الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهــران السانية
كلية الآداب ،اللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

العناصر اللغوية و دورها في رسم الصورة النقدية في مقدمة ابن خلدون

بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في مشروع اتجاهات النقد المغربي القديم

إعداد الطالب:
بلبشير هجيرة

المشرف:
أ.د. بوقربة الشيخ

السنة الجامعية
2007 - 2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــــــة

إنّ التراث العربي في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية قد لقي العناية في كثير من البلدان العربية و الإسلامية بخاصة في المشرق العربي ، في حين لم ينل النقد العربي في مغربنا العربي الكبير ما يستحقه من عناية الباحثين .

على الرّغم من استئثار مغربنا العربي بكوكبة من الأدباء و النقاد الذين أبدعوا تراثا جديرا بالبحث و الدرس و الإبراز .

من هذا المنطلق جاء مشروع النقد الأدبي المغربي باتجاهاته المختلفة ليفتح آفاقا واسعة أمام الباحثين من أجل ربط حاضرنا بماضينا و إقامة جسر التواصل بينهما .

و من ثمة ارتأينا أن يكون بحثنا حول " العناصر اللغوية و دورها في رسم الصورة النقدية في مقدمة ابن خلدون " ، و لقد اهتدينا إليه بعد مرورنا بموضوعات مختلفة كنا نرى بعض الثغرات يصعب سدّها .

إنّ اقتراح أستاذنا المشرف لهذا الموضوع كان بمثابة الإضاءة الأولى التي رسمت بنا الطريق ، طريق البحث حول علم من أعلام الفكر العربي المغربي ألا و هو ابن خلدون بمقدمته الخالدة .

أمّا رحلتنا مع المقدمة هي البحث في العناصر اللغوية الأساسية و التي شكّلت عند ابن خلدون رؤية نقدية خاصة و هي تعود بدورها إلى تراكمات معرفية أغنت رصيده الفكري و الأدبي و بلورت عنده تلك الصورة التي ميزته عن سائر النقاد المغاربة .

من هنا كان عليّ أن أرجع إلى كتب التراجم الأدبية و أعيد النظر فيما كتب عن النقد المغربي و قد شجعني على الاقتناع بالموضوع كون آثار ابن خلدون قد درست من جوانب تاريخية واجتماعية و فلسفية ، أو ما اصطلح عليه بالدراسات الأنتروبولوجية Antropologie و انصبت أكثرها في هذا المضمار(اجتماعيات) سواء في ذلك المستشرقون الذين وجدوا في ابن خلدون المعلّم التاريخي و الإجتماعي الفذّ ، فراحوا يبحثون في آثاره ليستخلصوا منها آراء و نظريات فلسفية و اجتماعية خاصة .

بينما راح فريق آخر من الباحثين ـ وهم قلّة ـ يبحثون في الجانب اللغوي و النقدي ليكتشفوا آراء جديدة قد تختلف عن القدماء و المحدثين .

إنّ مجمل فكر ابن خلدون موجود في مؤلفه " كتاب العبر "إذ أنّه الكتاب الأوّل و هو المعروف باسم " المقدمة " و هو الذي يشتمل على أفكار ابن خلدون الجديدة و الملهمة لديه إلهاما ـ كما صرّح بذلك ابن خلدون نفسه .

لم يتوصل معظم الدارسين لفكر ابن خلدون و المعلقين عليه الإحاطة الشاملة ، إذ بهرتهم المقدمة بأبعادها و خصوصياتها ، فراحوا يجزئونها من حيث بنياتها و تحليل كلّ جانب من جوانبها على حدى في ضوء اهتماماتهم الخاصة ، أو بالنسبة إلى قطاعات محدّدة من قطاعات المعرفة ، و كانت النتيجة تراكما في الدرا سات و المقالات التي ـ على الرغم من فائدتها ـ إلاّ أنّها لا تخلو من تشويه لفكر ابن خلدون الحقيقي و سوء إدراك لمعنى كلّ جانب من الجوانب الداّخلة في بنيتة الشاملة .

يعدّ ابن خلدون من أكبر العلماء المسلمين الذين أثروا في الحركة العلمية و الفكرية و الثقافية ، فقد كان عالما وباحثا في ميادين شتى من أكبر العلماء المسلمين الذين أثروا في الحركة العلمية و الفكرية والثقافية ، فقد كان عالما و باحثا في ميادين شتى ، و أسهم في تخصصات متنوعة يشهد له بذلك مقدمته ، من علوم و فنون يتحدّث في معظمها بأسلوب الجهابذة الممحصين ، و قد مكّنه عقله الواسع و ثقافته الكبيرة و تجربته الواسعة و تنقله المستمر .

المقدّمة " عمل جبّار " و ما كان له أن يكتبها لولا العناية اللإهية و إخلاصه و صبره ، فهي تجمع علوما و فنونا متنوعة تشبه الموسوعة من السياسة إلى الإجتماع إلى الفلك ثمّ علوم اللغة و اللسان : من نحو و بيان و أدب ، إذ يطرحها صاحبنا طرحا أِشبه ما يكون طرحا تنظيريا و فلسفيا تارة و ناقدا أدبيا تارة أخرى .

تلكم هي الوقفات التي شدّت انتباهي فرحت استقرأ هذه العلوم اللغوية و اللسانية ، علوم توقف عندها لبن خلدون بالنقد و التحليل ، حيث أعطى لكلّ علم آراء مستحدثة تتفق و فكره المتجدد الذي كان يرى الأمور و يزنها بميزان المفكّر الإجتماعي بالدرجة الأولى .

رأينا بعد مشاورات و بمعية مشرفنا أن نجمل البحث في مدخل و ثلاثة فصول :

أمّا المدخل ، فيتناول ثلاث محاور أساسية تلخّص الصورة العامة للبحث .

--المحور الأوّل : حديث عن جوانب من الحياة الثقافية و الفكرية لبلاد المغرب العربي على أيّام ابن خلدون ثمّ صورة عامة عن الحركة النقدية و الأدبية .

-- المحور الثاني : ترجمة موجزة لحياة ابن خلدون ، بالتعريف بشخصيته ، أعماله و آثاره الفكرية و الأدبية ، و إبراز لأهمّ الشيوخ و العلماء الذين كان لهم أكبر الأثر في توجيه فكره .
-- المحور الثالث : و يتناول آراء ابن خلدون النقدية في مجال اللغة و النقد .

أمّا الفصل الأوّل : تناولنا فيه علوم اللسان من منظور ابن خلدون ، هذه العلوم مفصلة و مرتّبة كما رتّبها صاحبها ، بدءا بعلم النحو ثمّ علم اللغة فالبيان والأدب ، توقفنا عند كلّ علم بعرض لأهمّ الجهود و آراء القدماء من المشارقة أو المغاربة قبل عرض آراء ابن خلدون ثمّ ربطها ببعض الأفكار الحديثة التي رأينا لها بعض العلاقة بالدراسات الحديثة مثل آراء دو سوسير DeSaussure في اللسانيات العامة و غيرها .

ثمّ تلاه الفصل الثاني : بعرض جانب من أهمّ الجوانب اللغوية ذي الأهمية البالغة في مقدمة ابن خلدون التي كانت مدار العلوم اللسانية بعامة ألا و هي : الملكة اللغوية و اللسانية ، مفهومها عند ابن خلدون من حيث محاور هامّة إذ استهللناه بمدخل لغوي و معجمي للملكة بمنظور القدماء و المحدثين لها ، ثمّ رصدنا أهمّ المعوقات التي تعترض سلامة الملكة ، منطلقنا - دائما- من المنظور الخلدوني .

و بعدها أنهينا البحث بفصل ثالث :جعلناه لأهمّ الآراء النقدية المتعلقة بالشعر من حيث حدّه و لفظه و معناه ، الطبع و الصنعة ثم بخاتمة الفصل بذكر أبرز سمات منهج ابن خلدون النقدي .

أمّا المصادر و المراجع التي ذللت صعاب بحثنا هذا فهي متنوعة بين القديم و الحديث ، و يأتي القرآن الكريم على رأس ذلك فهو الشاهد الأساس لمثل هذه الأعمال إذ رجعنا إليه في تثبيت الآيات و التحقق منها .

و بعده يأتي عدد لا بأس به ــ نحسبه كذلك ــ من المصادر العربية التي استقينا منها مادة البحث و هي متنوعة في معطياتها بين الاتجاه العلمي و الأدبي ، و قد أخذنا منها باعتبارها المعين و المنبع الأوّل للتراث العربي و منها على سبيل المثال لا الحصر، البيان و التبيين ، الحيوان للجاحظ ثمّ الشعر و الشعراء لابن قتيبة ، و هذا ابن سلام الجمحي في طبقاته ووساطة الجرجاني عبد العزيز و دلائل الإعجاز لعبد القاهر ... و غيرها من المصادر المشرقية الأصل ، أمّا من المغربية فقد حالفنا الحظّ في الإطلاع على أهمّ مصادر النقد المغربي مثل العمدة لابن رشيق ، و منهاج البلغاء لحازم القرطاجني و السجلماسي في المنزع البديع ...

و ممّا ساعد خطّتنا المنهجية ، مراجع يأتي في مقدّمتها" تاريخ النقد عند العرب " للدكتور إحسان عباس الذي أضاء لنا عدّة نقاط مع مراجع أخرى من نفس الدراسة و الاتجاه مثل كتاب " النقد الأدبي بين القديم و الحديث" للدكتور زكي العشماوي وعبد العزيز عتيق في كتابه " في النقد الأدبي " وغيرها ممّا اعتمدناه في مسار بحثنا ، والمراجع الغربية كان لها بعض الحضورفي مثل محاضرات دوسوسير Cours linguistique generale و مقتطفات من آراء بعض المستشرقين من أمثال **إغناطيوس كراتشوفسكي** الروسي الأصل و غيره .

لا جرم أنّه اعترضتنا عوائق و مشاكل منها ما يتعلق بالمجال المعرفي و الآخر بالمجال المنهجي أمّا المجال المعرفي فتمثل خاصة في صعوبة استقراء نصوص" المقدمة" لما يكتنفها من الغموض و الإيجاز من ناحية مع ندرة المراجع التي تذللّ مثل هذه الصعوبات ، أمّا المنهجي فتمثل الصعوبة في عملية الجمع و الترتيب مع مراعاة خصوصية المنهج الاستقرائي لذا وجدنا أنفسنا نسلك من بعض المناهج العلمية ذات الاتجاه السياقي كالمنهج التاريخي و الاجتماعي و هذا لطبيعة الموضوع ، فابن خلدون ــ كما سبقت الإشارة من المفكّرين الذين يجمعون بين الفكر و الاجتماع .

وفي غمرة هذه الصعوبات إلاّ أنّنا سعينا جاهدين في سبيل تخطّيها محاولة منّا في تقريب الصورة ونحن لا نزعم أو ندّعي الإلمام بكلّ جوانب الموضوع - فللّه وحده الكمال و التمام -

أودّ في نهاية هذه المقدمة أن أقدّم عرفانا و تنويها للأستاذ الدكتور الشيخ \ بوقربة على تشجيعه المستمر و توجيهه و صرامته التي أسعفتني و أضاءت لي هذا البحث حينما كاد أن يضيق ويدلهمّ لذا لا يسعني إلاّ أن أنوّهبمجهوداته اتجاهنا فله كلّ الشكر و الفضل بعد المولى عزّ و جلّ .

كما لا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور السيد ناصر اسطنبولي الذي أمدّني بذلك المرجع " النقد الأدبي عند العرب " لإحسان عباس" قبل أن أدخل المسابقة ، و لنصائحه و إرشاداته القيّمة فكان بادرة التفاؤل ، دون أن أنسى أساتذتي الكرام الذين أفدنا من توجيهاتهم في السنة التحضيرية فكانوا لنا خير عون ، الدكتور مختار حبّار، د\ بلقاسم ،د\ بن سعيد ، د\ سكران ،السيدة \ بن سعيد ، د\ تحريشي د\ شرشار أحسن الله إليهم جميعا و سددّ خطاهم في سبيل خدمة اللغة و الأدب العربي .

الحياة الثقافية في بلاد المغرب العربي على أيام ابن خلدون :

إنّ الجانب الثقافي لكلّ أمّة ، تتظافر عنده عدّة عوامل معينة من سياسة و علم و أدب ... و ما إلى ذلك حتى تساهم في استقراره و إنتاجه و بالتالي تطور مظاهر حياته عموما. وأوّل هذه العوامل المساعدة على ذلك **العامل السياسي**،إذ لا يكاد يختلف اثنان أنّ لهذا العامل دوره الكبير والخطير في آن واحد في استتباب الأمن والأمان وبالتالي في العطاء الفكري والثقافي و بشكل ملحوظ أو على نقيضه من ذلك.

***أوّلا أمّا المجال السياسي :**

إنّ المرحلة التي عاشها ابن خلدون كانت مرحلة تدهور و تقهقر الأمة العربية ، مشرقها و مغربها ، صرا عات و اقتتال و غياب الاستقرار ، فهذا **المغول** في المشرق العربي و بقيادة **تيمورلنك**[1] يهدّون سوريا... و لم يكن النزاع و الاقتتال خارجيا ، بل كان داخليا ، إذ إنّ تاريخ الحكومات الإسلامية في القرن السابع و الثامن الهجري يشهد على كثرة تعاقب السلاطين و الحكام و تمرّد الجماعات القبلية.

أمّا دول المغرب العربي ، ما فتئت هي الأخرى تصارع و تقاتل ، فابن خلدون صوّر هذا الجانب في العديد من كتاباته التاريخية الشاهدة :"ووجدت بين السلطان و بين ابن عمّه أبي العباس صاحب قسنطينة فتنة أحدثتها المشاحنة في حدود الأعمال من الرعايا و العمال و نشب هذه الفتنة عرب أوطانهم من الدواودة ."[2] و يقول في شأن الفتن التي ألمّت و عصفت بدول المغرب العربي على اختلاف جهاته :" كان السلطان أبو حمو قد التحم بينه و بين السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية بالصهر في ابنته ، و كانت عنده بتلمسان ، فلما بلغه مقتل أبيها و استيلاء السلطان أبي العباس ابن عمّه صاحب قسنطينة على بجاية ، أظهر الامتعاض لذلك ، و كان أهل بجاية قد توجسوا الخيفة من سلطانهم بإرهاف حسّه و شدّة سطوته فانحرفوا ..." [3]

و هكذا شهد ابن خلدون كثيرا من الفتن التي عانت منها دويلات المغرب العربي و منها حصار تلمسان و سقوط الأندلس ، شهد ذلك التمزق بأمّ عينيه .

[1] ـ المغول :إسم لدولتين أ-دولة في آسيا الوسطى ، أسّسها "جنكيز خان"، ووزّعها بين أبنائه و منهم" جغتاي" ـ ب في الهند أسسّه "بابر" من أحفاد "تيمورلنك": أوتيمورالأعرج (1336-1405)، ملك المغول ، و فاتح شهير \ ينظر المنجد في اللغة و الأعلام.

[2] ـ"محمد عيد" الملكة اللسانية عند ابن خلدون "\ ص12-13 .

[3] ـ "ابن خلدون" التعريف بابن خلدون غربا و شرقا"ـ دار الكتاب المصري\ ص 28-29.

و كثيرا ما شارك برأيه و قلمه في السياسة العامة و الخاصة ، فضاع من عمره في المهاترات السياسية تنقل خلالها بين بلاد المغرب و افريقية و الأندلس ، و خدم السلاطين و تعرّض للسجن و الطرد و الابتلاء، و لكن اضطراب العصور و الدّول كان بمثابة العواصف في البحار العالية ، فكثير من السفن و المراكب ستغرق لا محالة، فلا ينجو منها إلاّ تلك السفن القوية التي يقودها رجال أشدّاء خبروا البحر و عرفوا أسراره و سبروا أغواره .

هذا ما ذاقه ابن خلدون من الابتلاء و الفتنة ، :>> ألم* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون << -الآية(2) من سورة العنكبوت –و قال عزّ من قائل : >> و لنبلونّكم بشيء من الخوف و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات * و بشّر الصابرين<< الآية **155** من سورة البقرة .

من الفتن التي تعرّض لها ابن خلدون و الضغوط النفسية و الجسدية و الفكرية الكبيرة حين تعرّضت **تونس** لذلك الوباء العظيم و هو **الطاعون** "الذي ذهب فيه أبواه و شيخه عبد المهيمن ... فقد اهتز لذلك من أعماقه ، فانصرف إلى العلم متجها إلى السياسة ليتولى الوظائف تلوى الأخرى ، و دخل في هذه الفتن و المؤامرات لحساب سلطان على حساب سلطان آخر"[1]

رجوعا إلى كتاب ابن خلدون في " تعريفه" نجد الحقائق الساطعة لتلك الجوانب السياسية التي كشف عنها بالتجربة و المعايشة الحقيقية و بصورها المتناقضة .

- يقول ابن خلدون ناقلا من هذه الصور تجربته التالية " كان اتصالي بالسلطان أبي عنان آخر سنة ست و خمسين- 56، و قرّبني و أدناني ، و استعملني في كتابته ، حتى تكدّر جوّي عنده ...ثمّ اعتلّ السلطان آخر سبع و خمسين -57- ، و كانت قد حصلت بيني و بين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدين مداخلة ، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم ، و غفلت عن التحفظ في مثل ذلك من غيرة السلطان ، فما هو إلاّ أن شغل بوجعه ، حتى أنمى إليه بعض الغواة أنّ صاحب بجاية معتمل في الفرار ليسترجع بلده و بها يومئذ وزيره الكبير عبد الله بن علي ،، فانبعث السلطان لذلك و بادر بالقبض عليه ، و كان فيما أنمى إليه أنّي داخلته في ذلك ، فقبض عليّ ، و

[1] - **" الملكة اللسانية " \ ص13**

امتحنني ، و حبسني و ذلك في الثامن عشرمن صفر سنة ثمان وخمسين -58- ثمّ أطلق سراح الأمير محمدا ، و مازلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك ، و خاطبته بين يدي مهلكه مستعطفا بقصيدة

أوّلـــــــــهـــا :

على أي حال لليالـــي أعــاتــب *** و أي صر وف الزمان أغالب
كفى حزنا أنّي على القرب نازح *** وإنّي على دعوى شهودي غائب
و إنّي على حكم الحوادث نــازل *** تسالمني طورا و طورا تحارب

ثمّ أتبعها بقصيدة أخرى في التشوق :

ســلوتــهــم إلاّ أدكــار معـــاهــد *** لها فـي الليالـــي الغابرات غرائب
وإنّ نسيم الريح منهم يشوقنــــــي *** إليهم و تصيبني البروق اللواعــب

هذه مقتطفات من ما جادت به قريحة ابن خلدون و في مثل تلك الظروف العصيبة يقول :"فكان لها منه موقع ، و هشّ لها (يقصد السلطان أبي عنان) ، و كان بتلمسان ، فوعد بالإفراج عنّي عند حلوله بفاس ... فأطلق سراحي ، و عاملني بوجوه كرامته ... إلى أن اضطرب أمره و انتقض عليه بنو مرين "[1]

إنّ هذه الفتن و الإضطرابات لم تهن من عزم ابن خلدون و لم تنقص من همّته إلى بلوغ أعلى المراتب شأنه في ذلك شأن رجال الدّولة و الساسة الكبار الذين خلقوا لأن يكونوا سادة و قادة و أمراء .

ثانيا * المـجـال الـفـكـري و الأدبــي:

إنّ النشاط العلمي في العالم العربي في القرنين الحادي و الثاني عشر – السابع و الثامن الهجري – حيث سقطت الوثبة العقلية الكبرى في مجالات متعددة من الفكر و العلوم ، " إذ تحوّلت الفلسفة إلى خطاب تعلّق على أعمال ابن رشد و ابن سينا ، و لم تنتج شيئا جديدا بمعناه الحقيقي " [2]

بدلا من تطور العلوم حلّ محلّها تعليم العلوم ، "كعلم الفلك ، و علم السيمياء و بعض العلوم السحرية "[3]

[1] - " التعريف بابن خلدون و رحلته" \ ص 69-70
[2] - " عبد القادر جغلول"الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي" \ ص 20
[3] - نفس المرجع \ ص 24

إنّ هذا الانحطاط الثقافي المثقل ما هو إلاّ جانب من الانحطاط العام الذي ساد العالم العربي ، و هو مقرون بالانحطاط السياسي .

عاش ابن خلدون في الوقت الذي كانت فيه الثقافة العربية تدخل مرحلة **الإسبات Hibernation** [1] حيث لم يجد هذا الوارث الأخير للفكر العقلي ميدانا قائما لأن يستثمر من خلاله ،" فالعلوم الوضعية تتقدم و الفلسفة تحولت إلى خطابة " [2]، إنّ هذا الحصاد الناتج عن الانحطاط ستكون نتيجته تأسيس علم جديد، و بالفعل كان ابن خلدون قد أعطى مهمّة للفكر العقلي نمطا جديدا لم يألفه الفكر العربي على مرّ العصور .

ثالثا *المستوى الحضاري والتأخر الثقافي في بلاد المغرب :

إنّ المستوى الحضاري المتدهور الذي عرفته بلاد المغرب العربي ، قد ظهر أكثر ما ظهر في الميدان الثقافي تمثل بصورة في نقص المثقفين عددا و كيفا .

يقول الدكتور عبد الله شريط في هذا الشأن :"و لقد بلغت السذاجة بأجدادنا في موضوع تأخّر المغرب العربي ثقافة هذا بالنظر إلى المشرق ، إذ كانوا يعللونه بأنّه راجع إلى تفوق طبيعي في ذهنية أهل الشرق." [3]

فوجد ابن خلدون نفسه مضطرا لأن يقاوم هذه الأفكار و يرجئها إلى مسألة حضارية عمرانية ، وهي في علّتها الرئيسية كما يقول : علـة **البداوة و استفحال الأمية** و بالتالي انقطاع التواصل الحضاري بين المغرب و المشرق ، ويرى أنّ المسألة مسألة عمرانية و حضارية و يظهر ذلك في ذلك التفاوت في سرعة التعـّلـم و المهارة بين سكان المدن و سكان البادية في الوطن الواحد " ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو و كيف تجد الحضري متحليا بالذكاء ممتلئا بالكيس ، حتى أنّ البدوي ليظنه قد فاته في حقيقة إنسانيته و عقله و ليس كذلك ، فما ذلك إلاّ لإجادته في ملكات الصنائع و الآداب في العوائد و الأحوال الحضارية ."

* المراكز الحضارية ، العلمية و الثقافية :

عرفت بلاد المغرب العربي نهضة علمية واسعة تجلت في مراكز حملت على عاتقها تطورا و ازدهارا شمل كثيرا من العلوم و الفنون و الآداب على غرار ما كان عليه المشرق من نهضة فكرية ، دينية وسعت مناطق المغرب العربي كلّه ، شرقه ووسطه و أ قصاه ...

[1] - الإسبات Hibernation الأصل: جمود بعض الحيوانات خاصة في فصل الشتاء \ خمول الإنسان Inactivité * Stagnation

[2] - " محمد الشريف بن دالي حسين " الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون " \ ص 20-

[3] - " عبد الله شريط " الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون \ ص 664-665

و تتوالى بعدها النكبات و العواصف ، فأضحت آثارا و أطلالا ، من هذه المراكز الأثرية التاريخية ، مدينة **القيروان :** فهي من المراكز الإشعاعية الدينية والعلمية التي عاشت ازدهارا ثقافيا جعلها في طليعة العواصم الإسلامية التي أدّت دورا فعّالا في تاريخ الفكر الإسلامي ، فقد كانت القيروان وجهة العلماء والأدباء ،تــشــدّ إليها الرحال من كلّ فج ، لما يرونه من إقبال على العلم و الأدب .

فهذه حلقات الأدب من شعر و نثر و نقد و قصص التي كانت منتشرة انتشارا عظيما لا في المساجد بل في الدور و القصور و النوادي الخاصة .

و لكنّه و بعد نكبة القيروان في منتصف القرن الخامس الهجري ، فلم تبق حركة فكرية تذكر في القيروان ، >> فقد هاجر الشعراء و الأدباء إلى "صقلية " ، و الأندلس و غيرها من أنحاء العالم الإسلامي . <<[1]

يشير العبدري في رحلته عندما يقول حين زار القيروان في القرن السابع الهجري ،:" لمّا دخلت القيروان يذلت وسعي في البحث عمّن فيها من أهل العلم ، فلم أجد فيها من يعتبر سوى هذا الفقيه المحدث الـراويـــة المعروف بالدباغ "[2]

و مدينة فاس: أو" بغداد المغرب" ، كما كانت تدعى من قبل ، مدينة فاس حاضرة العلم إذ اجتمع فيها علم القيروان وعلم **قرطبة** و قد كانت فاس في طليعة المراكز الثقافية الهامة في المغرب الأقصى منذ أن تأسست سنة 192هـ من طرف إدريس الثاني .

يقول ابن خلدون متحدّثا عن مدينة فاس من حيث عمرانها :" ... و تنافس الناس في البناء ، فعالوا الصروح ، و اتخذوا القصور المشيدة بالصخر و الرخام و زخرفوها بالزليج والنقوش و تناغوا في لبس الحرير و أكل الطيّب و اقتناء الحلي من الذهب و الفضة ، و استبحر العمران و ظهرت الزينة والترف "[3] ،إلى جانب هذه المراكز الثقافية **بـجـايـة :** لقد ازدهرت بجاية في عهد الأمراء الحماديين ، حيث ظهر من الأدباء و العلماء الذين أسهموا بنصيب وافر في النهضة الثقافية التي عمّت البلاد" أصبحت بجاية العاصمة الحضارية للمغرب

---

[1] - "عفيفي محمود إبراهيم عبد الله" مظاهر الحضارة في بلاد المغرب " \ ص 670 \ رسالة دكتوراه \ قسم التاريخ الإسلامي \ القاهرة .
[2] - " رحلة العبدري"، من نفس المرجع السابق \ ص 670 .
[3] - " محمد الشريف بن دالي " الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون "\ ص 38 .

الأوسط و الأدنى ، بخاصة بعد سقوط القيروان على يد الأعراب الهلالية ." [1]

كذلك مدينة **تيهرت** ، التي تعتبر من أقدم مراكز الثقافة في المغرب الأوسط ومؤسسها"**عبد الرحمن بن رستم سنة 162هـ** ، فجعلها عاصمة الدولة الرستمية " [2]

*** المساجد :**

لقد كانت المساجد في بلاد المغرب العربي كسائر بلدان العالم الإسلامي ، من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن الكريم و الحديث الشريف و الفقه و العلوم الدينية و العربية ، حتى أصبح الكثير منها مراكز هامة للحركات العلمية ، و" من أشهر المساجد التي كان لها شأن كبير في هذا المجال مساجد **برقة و طرابلس** و مساجد إفريقية ، و من أهمّها **الجامع الأعظم بمدينة القيروان** الذي أدّى دورا هامّا في كلّ العهود المغربية من

عهد المرابطين إلى الزيريين إلى المرينيين ." [3]

كما كانت **الكتاتيب** الأماكن التي يتعلّم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة و الكتابة و حفظ القرآن الكريم ، و "قد وجدت في بلاد المغرب و في مدينة القيروان بصفة خاصة منذ منتصف القرن الأول للهجرة ، ثمّ أخذت في الانتشار شيئا فشيئا ، و كان التعليم فيها إجباريا و مجانيا " [4]

*** المكتبات :**

ما زالت المكتبات في المغرب العربي إلى عهد بعيد منتشرة تمدّ الخاص و العام بالكتب النفيسة و التي جلبت من المشرق العربي ، كان **للمعز بن باديس**[5] الفضل الأوّل في نشرها و الاهتمام بها ، كما لا تزال كتب و مصاحف و مخطوطات ذلك العهد موجودة إلى الآن سواء بالقيروان أو الرباط " مكتبة الرباط الملكية"

كما عرف المغرب ظاهرة المكتبات العامة و الخاصة ، و قد ساعد على ذلك ولاّة الأمر على حركة التأليف و شراء الكتب ، فقد كانت هناك أماكن محددة لبيع الكتب ، من كافة جهات المغرب

---

[1] - المرجع رقم (1) 676

[2] - نفس المرجع \ ص 676

[3] - نفس المرجع ص\ 676

[4] -نفسه ص\ 677

[5] - المعز بن باديس أحد القادة المغاربة أيام الدولة

العربي الأدنى منه أوالأوسط أوالأقصى ،" ففي مدينة مراكش وجد ما يقرب من مائتي متجر لبيع الكتب ، كما وجد أيضا بمدينة تلمسان سوق لبيع الكتب " [1]

المجـال اللغوي :

نال علم اللغة و النحو عناية الدارسين وولاة الأمور ببلاد المغرب باعتبارهما المدخل الأساسي لمعرفة أسرار اللغة العربية و معانيها ، و أداة لتقويم اللسان ، و قد دفعهم ذلك أنّ اللسان الغالب على أهل البلاد وهو

لسان البربر و اللهجات المحلية ، و من ثم أقبلت الرعية على دراسة علم اللغة و النحو .

الحركة النقديـــــــــــــــــة:بين القرن السادس و السابع

قد نسمي هذين العصرين في تاريخ الأدب المشرقي و المغربي فترة **الخوف و الضياع** ، فترة الحروب الصليبية في المشرق ، و سقوط كثير من المدن الأندلسية واحدة تلوى الأخرى في القرن السابع ، ثمّ تلك الموجة المغولية التي أضعفت و أخمدت المعارك الأدبية ، فضعف النقد، و بعدت الشقة بين الشاعر و حماة الشعر و رعاته ،"فأصبح الشاعر يملأ فراغه بمطولات شعرية ، وهي كما قال ابن رشيق:" أكثرإثارة للهيبة في النفوس " [2]

و كانت التفننات البلاغية التي تكاثرت على مرّ الزمن ، و ذلك الجناس الذي صار يحكّم القصيدة أكثر ما يحكّمها الشاعر، "و إنّما اختصّ بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة ، و جعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، و فرّعوا له ألقابا و نوّعوا أنواعا ، و إنّما حملهم على ذلك الولوع في تزيين الألفاظ و أنّ علم

البديع سهل المأخذ و صعبت عليهم مآخذ البلاغة و البيان ..."[3]

وقد أثّر ذلك الخوف و الضياع انتشار **الشعر الصوفي** لانسياقه و استرساله من جهة ثانية ، ثمّ الحاجة إلى نغمته العذبة " فكثيرا ما كان يغنى في الحلقات ، فهذا الشاعر" أبواسحق الغزي " حين قال :" [4]

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة *** باب الدّواعي و البواعث مغلـق

خلت الدّيار فلا كريم يرتـجــــى *** منه النوال و لا مليح يـعـشـق

---

[1] - نفس المرجع السابق ص\ 677

[2]- ابن رشيق " العمدة" ينظر " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " إحسان عباس ص \ 494

[3] - المقدمة ص\ 552

[4] - المرجع الأول \ ص 495

وهذا " التطيلي" ، وشّاح الأندلس الذي يصور سيادة الفقه و اندحار الشعر : [1]

أيـا رحـمتـا لـلشعـر أقـوت ربوعه *** على أنّـه لـلمكـرمات مـنـاسـك
و للشعراء الـيـوم ثـلـث عـروشهم *** فلا الفخر مختال و العزّ تـامـك
ويا" قام زيد"اعرضي أو تعارضي *** فقد حال من دون المنى "قال مالك"

لقد ازدادت أزمة الشعر إلى اكتفاء الجماهير بالشعر العامي ، فظهر نوع من شعر **الزجل** الذي وجدت فيه غذاءها الطبيعي ، و بهذا افتقد الشاعر الذي ينتهج مذهبا يثير من حوله حركة نقدية ، هكذا كان حال الشعر سببا في ضعف النقد عموما .

و من مظاهر الإنحراف نحو الشكل ، اهتمام الشعراء بالشؤون البلاغية " فانصّب النقد حينئذ في التفريع و التقسيم ، فتحولت كلمة نقد عن معناها الأصلي "[2]

*** الأنـدلـس و دورها في النشاط النقدي :**

لقد اضطلعت الأندلس بكثير من مهمة النقد في هذين القرنين السادس و السابع ، كما انصبّ اهتمامها بتطوير فني **الموشح و الزجل** ، هذين الفنين الذين كانا يتطلبان مقاييس نقدية جديدة ما دام الشعر قد تجدّد في أشكال أندلسية خاصة ، و لذا يقول الدكتور إحسان عباس :<< وجدت ـ هذه الفنون ـ أكثر زادها في عمدة ابن رشيق" >> [3]

كما ظهر في هذا العهد اتجاه جديد يتميز عن الشرق بالاستمداد من التراث الأرسطي ، " **فمنهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني**" يعتبرأوّل من أدخل نظريات آرسطو وتعرض لتطبيقها في كتب العربية الخالصة " [4] ، فهو الذي أخرج البلاغة من اتجاهها العربي إلى اتجاه الفلاسفة ومنطق آرسطووهذا "**المنزع البديع** " للناقد **السجلماسي** الذي لوحظ أنّه أكثر نقاد عصره اطّلاعا على الفلسفة اليونانية بوجه عام ، وكتابي آرسطو " فن الشعر" والخطابة"[5] ، << وهكذا و بعد ظهور منهاج البلغاء لحازم والمنزع البديع للسجلماسي والروض المريع في

[1] ـ المرجع السابق.
[2] ـ" تاريخ النقد الأدبي" إحسان عباس ص\ 496
[3] ـ نفسه ص\497
[4] " الأثر الأرسطي في النقد البلاغة "
[5] ـ المصدر نفسه .

صناعة البديع **لابن البناء المراكشي** ، فهؤلاء من مدرسة بلاغية واحدة يستقون من منابع واحدة و يسيرون في إبداعاتهم لبلوغ غاية واحدة <<[1] وقد امتزج تفكيرهم التراثي الأصيل بتراث اليونان المتمثل في كتب آرسطو خاصة ما يتعلق بالمنطق و النقد .

* ابن خـلـدون تـرجـمـة و تـعـريـف :

يرى بعض من عني بفنالتراجم من العرب أنّ الغرب قد سبقنا في الترجمة الذاتية مستشهدا بعمل " جان جاك روسو Jean Jaques Rousseau[2] في " **الإعترافات" Les Confessions** التي تحوي على حقائق يندى لها الجبين ، حيث تنعدم فيها الرجولة التي كان **ابن خلدون** يفتخر بها و كلّ شرقي - عادة -

و لقد نهج **طه حسين** في كتابه " الأيّام" نهج الترجمة الذاتية ، إلاّ أنّها مقصورة على فترة معينة دون الإلمام و الشمولية للحياة كلّها ، أمّا ترجمة ابن خلدون لنفسه فكانت شاملة ملمّة لجوانب كثيرة من حياته و حياة من حوله بدقة و عناية متناهية[3]

و عليه ، قبل الشروع بترجمة تقليدية لابن خلدون ، لابدّ من وقفة و إطلالة على المنابع و الأصول التي انحدر منها المفكّر ابن خلدون ، تقول أغلب المصادر التي ترجمت"أنّ أصل ابن خلدون بربري و ليس من أصل عربي ، محتجيّن بقضيتين:أولاهما أنّ البربركانوا يصطنعون أصلا عربيا لأنفسهم بحكم تفوق العنصر العربي في المجال السياسي و تأثيره القوي في الحياة العامة .

أمّا الثانية أنّ ابن خلدون قد شنّ حربا عنيفة على العرب الذين لا يعرفون الحضارة أبدا ، بل همّهم دائما التخريب و التدمير، و هم من أهمّ مصادر عدم الاستقرار السياسي و الاجتماعي ..."[4]

---

[1] - المصدر نفسه.

[2] - جاء في منجد اللغة و الأعلام ، "جان جاك روسو"(1712-1778) كاتب فرنسي و فيلسوف اجتماعي ،ولد في " جنيف" ، نادى بطيبة الإنسان و بالعود إلى الطبيعة ، له من المؤلفات : " العقد الاجتماعي" Lecontrat Social " و " إميل" و "اعترافات"

[3] - من " تمهيد مقدمة ابن خلدون " تحقيق درويش جويدي ص \ 6 .

[4] - المصدر السابق ص \ 6

والمنطق الذي يوافق انتهازية ابن خلدون بادّعائه أنّه من أصل بربري و هذا ليحظى بمكانة مرموقة- على اعتبار - أنّ أعظم ملوك و سلاطين و أمراء المرابطين و الموحّدين و الحفصيين كانوا من أصول بربرية .

*** مـــولــــــــده:**

هو عبد الرحمن بن محمد بن جابر بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي مـــن "أخي كريب ... و ينسب سلفهم إلى وائل بن حجر من أصول يمنية عريقة ، انتقل سلفه من إشبيلية[1] Cevia.

فاستقروا بتونس ... ولقد جاء على لسان ابن خلدون في التعريف بنفسه والترجمة لحياته و لعائلته ، نوجز منها ، قائلا: >>أمّا نشأتي ، فإنّي ولدت في تونس في غرّة رمضان سنة 732هـ ، ربيت في حجر والدي - رحمه الله - إلى أن أيفعت و قرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله بن برّال الأنصاري ... و بعد أن استظهرت القرآن ، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة[2] إفرادا و جمعا في إحدى و عشرين ختمة ... و عرضت عليه قصيدة الشاطبي[3] ، ثمّ عرضت عليه كتاب التفسير ... و من خلال ذلك تعلّمت صناعة العربية على والدي و على أستاذي تونس منهم الشيخ : أبو عبد الله محمد الحصايري ، و كان إماما في النحو، ... و منهم إمام العربية و الأدب بتونس ، أبو عبد الله محمد بن بحر، و كان بحرا زاخرا في علوم اللسان .

فأشار عليّ بحفظ الشّعر، فحفظت الأشعار السّتـة - و يقصد بها المعلقات الشهيرة - و الحماسة (ديوان أبي تمام) ، و طائفة من شعر المتنبي ، و من أشعار كتاب الأغاني ، و لازمت أيضا إمام المحدثين بتونس شمس الدّين أبي عبد الله محمد بن جابر صاحب الرحلتين ... أجازني إجازة عامّة ...و أخذت الفقه بتونس ... إلى غير ذلك من مشيخة تونس ، وكلّهم سمعت عليه وأجازني ثمّ درجوا كلّهم في الطاعون الجارف سنة ثمان وأربعين أيام السلطان أبي الحسن ملك

[1] - " إشبيلية " Cevia مدينة في جنوب غرب إسبانيا ، على الوادي الكبير ، فتحها المسلمون سنة 712 واسترجعها فردينان الثالث سنة 1248 م

[2] - " التعريف بابن خلدون رحلته شرقا و غربا " ص 379 \ أما القراءات السبع المشهورة "1- قراءة نافع المدني برواية ورش-2 قراءة عاصم بن نجود برواية حفص 3- قراءة بن عامر4- قراءة الكسائي 5- قراءة حمزة الكوفي 6- قراءة عمرو بن العلاء 7-

[3] - نفس المرجع السابق.

افريقية ،و الأدب عن أبي العباس أحمد بن شعيب من أهل فاس ، برع في الأدب واللسان والتعاليم والطّب ، فكان له شعر سابق به الفحول من المتقدّمين ، وله إمامة في نقد الشعروبصربه>> [1]

*** مشيخة ابن خلدون و تأثيرها في فكره و نبوغه:**

لقد نضجت أفكار ابن خلدون ضمن تيّار فكري مرتبط أشدّ الارتباط بواقع عصره ، لذلك فإنّ التعرّف على شيوخه و التعريف بهم و على توجهاتهم الفكرية وعلى مدى تأثيرهم في فكره ، سيمكننا من الكشف عن بعض الأبعاد المعرفية و التناقضات الفكرية التي كابدها صاحب **" العبر"** الذي نوّه بالعديد منهم ، إضافة إلى والده اكتفى ابن خلدون باستعراض سبعة و عشرين شيخا من بين مجموعة كبيرة من الشيوخ الذين تلقى عليهم بطريقة أو بأخرى نوعا أو أنواعا من العلوم السائدة في عصره و هم :

- بدءا بوالده ، محمد الذي أخذ عنه صناعة العربية ، و له بصر بالشعر وفنونه المتوفى سنة 749هـ \ 1348م بالطّاعون و ابن خلدون لم يتجاوز السادسة عشر سنة[2]

- أوّل الشيوخ الذين ذكرهم ابن خلدون :**أبو عبد الله محمد بن برّ ال الأنصاري** و هو أندلسي بلنسي من جالية الأندلس ، تتلمذ على مشيخة بلنسية Valencia **(2)** قبل هجرته إلى إفريقية ، أخذ عنه ابن خلدون عدّة مواد علمية ، درس عليه القرآن و القراءات برواية يعقوب و عرض عليه قصيدتي **الشاطبي** اللامية و الرائية

المعروفة باسم : **" حرز الأماني و عقلية أتراب الفضائل في القراءات و الرسم القرآني "**، كما درس معه كتابي التفسير لأحاديث **" الموطأ"** و التمهيد على موطأ مالك لابن عبد البر و كتاب تسهيل القواعد **لابن مالك**

الذي جمع فيه قواعد النحو بإيجاز ، إضافة إلى مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي و الفرعي و الجامع بين الأمهات ، و الذي عني بشرحه العديد من فقهاء المغرب .

- الشيخ **الحصايري :** وهوأبوعبد الله العربي ، درس عنه كتاب "التسهيل" ، وأخذ عنه علوم القرآن والحديث و الفقه و بعض من علوم العربية.

- الشيخ **ابن الشاوش :** هو أبو عبد الله الزرزالي أو المزاري ، يشير ابن خلدون إلى اسمه فقط و لم يمكننا من المزيد حول شخصيته و لا على أنواع الدروس التي أخذها عنه .

---

[1] **- نفس المصدر السابق ص \ 7**

[2] **" محمد العادل لطيف " شيوخ ابن خلدون ، مقال إعلامي Google " بلنسية " Valencia ، مرفأ في اسبانيا،على مصب غوادا لاخارا ، إحدى عواصم الحضارة الإسلامية في الأند لس بني عامر من ملوك الطوائف استردّها الإسبان س \ 1238م.**

- الشيخ **ابن القصار:**أبو العباس أحمد ، أخذ عنه علوم النحو ، و يشير ابن خلدون إلى أنّ لشيخه هذا شرحا لقصيدة " **البـردة** " ، و هذا دليل على إمكانية اهتمام الفقهاء و المدرسين بعدّة مواد و علوم تجمع بين التفسير و العربية و التصوف .

- الشيخ **ابن بـحـر :** أبو عبد الله محمد ، أخذ عنه علوم اللسان و شجّعه على حفظ العديد من القصائد بما فيها " الأشعار الستة " ويقصد **المعلقات** ، و شرح شعر أبي تمام ... و يذكر ابن خلدون أنّه حفظ الكثير من شعـر أبي تمام و المتنبي ، و من الأشعار الواردة في كتاب **" الأغاني "** لأبي الفرج الإصفهاني ، و الذي نقل عنه ابن خلدون نصوصا طويلة نجدها بالكتاب الأول من " العبر " .

- الشيخ **الوادشي :** شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن جابر القيسي الأندلسي ، توفي 749هـ \ 1348م بالطاعون، و يشير ابن خلدون أنّه أجازه إجازة عامة في كتب كثيرة من العربية و الفقه - الشيخ **القـصيّـر"**: أبو القاسم محمد ، درس معه ابن خلدون كتاب **" التهذيب"** في اختصار المدونة لأبي سعيد البرادعي ، درّس بمدرسة ابن اللوز، يباشر فيها تفسير القرآن الكريم دون حفظه ، فأنكرواعليه أصحاب الزوايا .

- الشيخ **عبد السلام الهوا ري :**أبو عبد الله محمد المنستيري التونسي ، قاضي الجماعة و شيخ الفتيا ، شارح مختصر ابن الحاجب الفرعي في الفقه ، توفي هو أيضا بالطاعون ، حضر مجالس السلطان المريني عندما زحف على افريقية فأثبت جدارته و كفاءته .

هؤلاء من مشيخة **تونس** و ما جاورها ، أمّا ما جاء في سيرة مشيخة و علماء المغرب الأقصى على الوجه الأخصّ ، لقد كانت الحملة التي قام بها أبو الحسن المريني على إفريقية سنة 746 **هـ** 1347م[1] فرصة لابن خلدون كي يتعرف على مجموعة كبيرة من أهل العلم المغاربة استقدمهم السلطان معه ، يلزمهم مجلسه و يتجمل بمكانهم فيه ، يقال أنّ عددهم بلغ الأربعمائة 400 من فقهاء و قضاة و أدباء وشعراء وغيرهم.

لقد تمكّن ابن خلدون من ملازمة بعضهم بتونس و اللحاق بهم في "فاس" ، فكان لهم عليه تأثير كبير ولا سيما " الشيخ الآبـلـي " و " أبو البركات البلفيقي و الشريف الحسيني ..." لقد أبدى ابن خلدون نحوهم تبجيلا كبيرا معترفا بعلمهم و كفاءاتهم و لما قدّموه من علم و معرفة و منهج في التفكير .

[1] - المرجع السابق الإعلامي \ " الآبلي" نسبة إلى "آبلة" Avila مدينة في اسبانيا الوسطى بقشتالة القديمة " كاستيا" ، إمارة من الإمارات الأندلسية

- الشيخ **الآبلــي:** أنّ لابن خلدون شخصيات أخرى كان لها أكبر الأثر في تكوينه العلمي و المعرفي و السلوكي لم يذكرهم كشيوخ ، لكن احتكاكه بهم ، مباشرته لهم أدّت إلى التأثير عليه و هو : إبراهيم زرزر اليهودي طبيب بلاط ابن الأحمر ، و فارس بن ميمون و غيرهم .

أمّا الشيخ الآبلي ، فقد أفرد له ابن خلدون في كتابه "لباب المحصّل في أصول الدّين" كي نعلم مدى أهمية هذا الشيخ في المسيرة العلمية لتلميذه .

يقول ابن خلدون واصفا شيخه :<<...إلى أن طلع الآن شمس الدّين نوّر آفاقه ، و مدّ على الخافقين رواقه وهو سيّدنا و مولانا الإمام الكبير العالم العلامة فخر الدنيا و الدّين حجة الإسلام و المسلمين ، غيّاث النفوس ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي ، رضي الله عن مقامه ، و أوزعني شكر إنعامه ، شيخ الجلالة و إمامها و مبدأ المعارف و ختامها ، ألقت العلوم زمامها بيده و ملكته ما ضاهى به كثيرا ممن قبله ...فاقتطفنا من يانع أزهاره و اغترفنا من معين أنهاره و أفاض علينا من علومه و حلاّنا بمنثوره و منظومه >> [1]

- من هو الآبلي؟ حتى يكون له هذا الشأن والمقام عند ابن خلدون؟ رأينا من الضروري التعرف على هذا االشيخ لمدى تأثره به مقارنة ببقية الشيوخ الآخرين .

جاء في الأثر [2] :" ولد الآبلي بتلمسان سنة 681هـ-1282م و توفي 757هـ ، أندلسي الأصل من مدينة "آبلة" الواقعة بالشمال الغربي" لمدريد" ، كان والده قائدا عسكريا ضمن جيوش الدولة الزيانية في عهد يغموراســن بن زيان الذي عدّد ابن خلدون خصاله و أشاد بفطنته السياسية.

لقد استطاع استقطاب أنظار و شغف طالبي العلم ، كما اشتهر بتحكّمه في العلوم العقلية و التعاليم ، فــكـبّ الناس عليه في تعلّمها . عاش الآبلي عدّة مآسي لحقت بتلمسان تتمثّل في حملة يوسف بن يـعـقـوب النــاصـر المريني و حصاره لها بداية شهر شعبان سنة 698هـ -1299م و دام الحصار ثماني سنوات .

إنّ الآبلي هذا كان على دراية و معرفة واسعة بعلوم الفلسفة المشرقية من خلال كتب الرازي الذي كان يعتبره الأوحد في زمانه في علوم المنقول و المعقول .

[1] - المرجع السابق .
[2] - المرجع السابق الإعلامي بتصرف

يقول ابن خلدون في شأن الدراسة و التتلمذ على هذا الشيخ :<< عكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن تكونت بعض الشيء ... كان الشيخ في نزلنا و كفالتنا ، فأشرنا عليه بالبقاء و ثبطناه عن السفر، فقبل و أقام و طالبنا السلطان أبو الحسن فأحسنا له العذر ، فتجافى عنه>>[1]

إنّ الآبلي يمثّل في الحقيقة نموذجا من النماذج الشاذة المعزولة التي لازالت تتخبّط دون جدوى من أجل الحفاظ على استقلالية تفكيرها و ممارستها في زمن تعطّلت فيه الأفكار والمعتقدات وكلّ صورالحلم محظورة و التنقل ممنوعة و الكتابة في غير المديح كفرا ... و هكذا سيصبح ابن خلدون ـ فيما بعدصورة مصغّرة من شيخه ، و سنلاحظ أنّ مسار حياته يشبه إلى حدّ بعيد مسار الشيخ المبجّل الآبلي ـ و هذا ما صرّح به " يحيى ابن خلدون " صاحب " الرحلة" أخو عبد لرحمن صاحب العبر والمقدمة حيث قال أنّ الشيخ أصبح جزءا من العائلة خاصة بعد وفاة الوالد في الطاعون[2] ، لقد انبهر ابن خلدون بشيخه بخاصة في طريقة تبليغه للمواد المدروسة و لمواضيع المواد المجبرة .

و قائمة المشايخ طويلة و متعددة لا يمكن حصرها ، و نظرا لأهميتها و قيمتها التاريخية توقفنا عند أهم المحطّات التي توقف ابن خلدون هو نفسه عندها لكونها من العوامل الأساسية و المكونة لشخصيته الفكرية و الأدبية.

*** تـــراثـــه (آثــاره و مــخـلـّفــاتــه) ***

تراث ابن خلدون عامر و زاخر عمارة حياته و زخر فكره و علمه الذي نافس به علماء عصره من المغرب العربي الكبير و حتى المشرق ، فقد كان له صدى عميق في **مصر** على وجه الخصوص ، " حيث دخل القاهرة مغادرا تونس في منتصف شعبان سنة 784هـ ، فوصل إلى ثغر الإسكندرية يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقّة ."[3]

... و استوطن القاهرة و تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدّة ، و التعليم في إحدى مدارسها ...ثمّ ولاّه **الملك الظاهر برقوق** قاضي قضاة المالكية بديار مصر سنة 786هـ للمرّة الأولى ، و بين ولايته و عزله في مصر ستّ مرّات ، توفي ـ رحمه الله ـ و هو قاض فجأة يوم الأربعاء من

[1] ـ المرجع نفسه.
[2] ـ المرجع نفسه.
[3] ـ تمهيد مقدمة ابن خلدون

رمضان سنة 808هـ ، دفن بمقابرالصوفية خارج باب النصر ، و له من العمر ستّ و سبعون سنة و خمسة و عشرون يوما .

لابن خلدون سفارتين : أولاهما إلى عظيم الفرنج بإشبيلية ، فعظّمه و عرض عليه البقاء ، أمّا الثانيــة فقام بها تطوعا ، ذلك أنّ سلطان مصر هبّ لمقاتلة **تيمورلنك** و الدفاع عن مدينة دمشق ، ولسوء حظّ السلطان عاد إلى مصر تاركا دمشق وجها لوجه أمام همجية تيمورلنك و جنوده ، ممّا أجبر ابن خلدون على المغـامرة بلقاء تيمورلنك ، حتى دلـّي بالحبال من أسوار دمشق ، فقام بمهمّة ناجحة حيث استطاع أن يقنع تيمورلـنك و بطانته بالتسليم، هكذا كانت حياة ابن خلدون في مصر أكثر استقرارا وأوفر شرفا من حياته في المغرب.[1]

تـعـريـف بـمـؤلـفـات ابـن خـلـدون :

أشهر مؤلفات ابن خلدون : **المـقدمة ، الـعبر ، التعريف ، و بعض الرسائل .**

أوّلا ـالـمـقـدّمـة : أمـّا المقدّمة فهي الكتاب الأوّل من تاريخه العام ، فقد جاءت وحدة ضخمة مثقلة ، تـمـتـاز بروعة ابتكارها و اتّساع أفقها و طرافة موضوعاتها وعمق مباحثها .

" فبعد أن نزل ابن خلدون **بقلعة ابن سلامة**[2] عائدا من الأندلس سنة 776هـ ، حيث تهيأ له الأمان واجتماع الشّمل مع أولاده ، فألـّف أثناء ذلك " العبر" و **" مقدّمته الشهيرة ".** [3]

يقول ابن خلدون مفصحا :<< فأقمت بها ـ قلعة ابن سلامة ـ أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلـّها ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب ـ العبرـ و أنا مقيم بها و أكملت **المقدّمة** منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتيدت إليه في تلك الخلوة ، فسالت شآبيب الكلام و المعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها و تآلفت نتائجها ...>>[4]

يبقى أن يطرح كلّ لبيب هذا السؤال : ـ ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقي من ذلك الإبتكار الذي يـراه غريبا ؟ و هل كان له الفضل في ابتداع هذا العلم ؟ أم كان له فقط فضل التوسع؟ !

---

[1] ـ نفسه .
[2] ـ "محمد عيد الملكة اللسانية " ص \ 15
[3] ـ نفس المرجع.
[4] ـ "محمد عبد الله عنان " ابن خلدون ، حياته و تراثه الفكري ص \ 144

يقول ابن خلدون أنّ علمه بكر وجديد وأنّه ألهم إليه إلهاما ـ كما سبقت الإشارة ـ نعم ، إن هناك موضوعات عولجت من قبل لكن دراستها كانت في حدود من ذلك العلم الشاسع الذي يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة بخاصة إذا استثنينا بعض ما خلّفه الفلاسفة اليونان ، "لاسيما عن آرسطو في **نظم الدولة و المجتمع** و عليه فقد كانت بحوث ابن خلدون في المقدّمة أصداء بعيدة المدى في تفكير عصره و ما بعد عصره ، حيث تأثّر **المقريزي** * بأسلوب المقدمة ، فوضع رسالته :" **إغاثة الأمة بكشف الغمّة**" معترفا لفضل ابن خلدون قائلا: << ...حتى إنّ هذا العلم أو العلوم التي استحدثها ابن خلدون ، مادّتها و موضوعاتها لم يكن لها مكانا بين علومنا الحديثة>> **(4)** أمّا موضوع "المقدمة"إنّ الذي استحوذ على المؤلّف الموضوع العمراني البشري أو ما يسميه بالاجتماع الإنساني ، و من العلوم و الصنائع و السعي في المعاش و طرق الكسب ... و الفرق بين العمران الحضري و البدوي ... و غير ذلك .

و عليه فقد جاءت المقدّمة على النحو التالي من التبويب و التفصيل :

ـ في ستة أبواب سمّاها فصولا و هي :

الأوّل: في العمران البشري ، أصنافه ، و قسطه من الأرض .

الثاني : في العمران البدوي ، القبائل والأمم الوحشية .

الثالث: الدول ، الخلافة و الملك و ذكر المراتب السلطانية.

الرابع: في العمران الحضري و البلدان و الأمصار .

الخامس : في الصنائع و المعاش و الكسب ووجوهه.

السادس: في العلوم و اكتسابها .

و يندرج تحت هذه العلوم **علوم اللسان العربي** الذي هو محور بحثنا إذ خصّه ابن خلدون تحت أربعة أركان: **علم اللغة ، علم النحو ، علم البيان ، و علم الأدب** .

ثانيا ـ العبر : أمّا كتاب العبر هذا فهو في أجزاء سبعة كبيرة ، مع ملحقه " التعريف بابن خلدون " فهو بصفة عامّة كتاب في علم التاريخ .

ثالثا- التعريف بابن خلدون : هذا الملحق بكتاب العبر ، عبارة سرد لمجريات تاريخية من حياة ابن خلدون مع ما يتصل بمن حوله من ظروف سياسية واجتماعية متلونة بلون عصره المليء بالصراعات و التناقضات .

رابعـا- رسـائـل و تلخيصات : إنّ من تراثه - أيضا- بعض الرسائل التي يشرح فيها **"الـبـردة"**شرحا بديعا[1]

ثمّ يضاف إلى هذه الآثار بعض التلخيصات لكتب متفرقة مثل **كتب ابن رشد** ، كما لخّص " **الإمام فخر الدين الرازي** " ، ثم شرع في شرح **"الرجز"** الصادر عن أصول الفقه في التصوف بعنوان " **شفاء الســائــل لتـهذيب المسـائـل"** ، و يقع في سبعة أجزاء و ثمانين ورقة ، وهي مسائل تتعلق بآرائه حول المتكلّمين من المتصوفة القدماء منهم و المتأخّرون على اختلاف مذاهبهم[2] .

آراء ابن خلدون اللـغويــة و الـنــقــديـــة :

يعد ابن خلدون من أكبر العلماء المسلمين الذين أثروا في الحركة العلمية و الفكرية و الثقافية في العالم العربي و حتى الغربي ، فقد كان عالما و باحثا في ميادين شتى ، و أسهم في تخصصات متنوعة يشهد له بذلك ما في مقدمته من علوم و فنون >> تحدث معظمها بأسلوب الجهابذة الممحصين ، و قـد مكّنه من ذلك عقله الواسع و ثقافته الكبيرة و تجربته الواسعة و تنقله المستمر <<[3]

" **المقدمـــة"**عمل جبّار، و ما كان له أن يكتبها لولا العناية الإلهية ، فهي تجمع علوما و فـنـونا متنوعة قد تبدو للبعض أنّها تشبه الموسوعة أو خلط لا تجانس فيه ، فكيف تجمع بين التصوف بالسحر و الشعوذة أو بين السياسة و الغناء ، ثم علوم اللسان العربي بأركانه و أسسه .

أمّا القارئ بعناية و بصيرة و فهم عميق ، يجد أنّ ابن خلدون تناول الجانب المعرفي في العمـران البشري باعتباره إحدى دعائمه ، إذ أن الظاهرة التاريخية تقوم في أبعادها الاجتماعية و السياسية على الجوانب العلمية و الثقافية داخل العمران .

من هنا عني ابن خلدون في تأسيسه لعلم التاريخ بالعلوم **العقلية و النقلية و الآلية ،** و من ثمّ جاء حديثه في العلوم الآلية **كعلوم اللسان العربي** من لغة و نحو و بيان و أدب ، و التي يعتبرها آلة لفهم الشرع ثمّ كان له في حديثه عن العلوم داخل العمران البشري نظرات و آراء في مجال النقد و البلاغة.

---

[1] **- محمد عيد " الملكة اللسانية " ص\ 171**

[2] **- نفس المرجع السابق**

[3] **- " المصطلح عند ابن خلدون " رسالة دكتوراه ، إعداد**

أمّا **اللـغـة** : فيرى ابن خلدون ، إنّها الوسيلة لنقل المعاني " الكلمات و اللغات هي وسائط بـيـن عـقـول الأفراد "[1] ، و هي " ترجمة للمعاني ، و العلوم اللغوية توضح قواعد هذه الترجمة "[2] ، أمّا العلـوم اللغوية فهي أولا علم النحو والصرف ، الذي يدرس تركيب الكلمات " وعلم اللغة هو العلم الذي يـغـوص في عوالم المعنى بأسلوب يتجاوز التسميات البسيطة و مدلولات الكلمات المباشرة "[3]

فاللغة في عمومها – عند ابن خلدون- " ما هي إلا وسيلة و آلة لخدمة أغراض أخرى أبعد منها و هــي الإنسان المتحضّر و المجتمع الراقي "[4]

فاللغويون القدماء ظنوا أنّهم قد أتوا بالحل النهائي لمشكلة اللغة عندما اخترعوا لها قواعد تحفظها من اللحن ، ولكنهم و على الرغم من جهودهم الجليلة << لم يتعبوا أنفسهم في البحث عن مدى التوفيـــق الذي كتب لهذا الحل في ميدان **التطبيق الإجتماعي** >>[5] من هنا نشأ الخلاف بين **العالم الإجتماعي و** العالم اللغوي ، بين من ينظر إلى المشكلة من الوجـهــة الحضارية ، و من ينظر إليها من الوجهة الفنية ، أو من يعالج اللغة بوضعها ظاهرة إنسانية معقدة ، و من يعالجها بوصفها مشكلة تقنية بحتة ، وأخيرا خلاف من ينظرإلى اللغة من **خارجها** ، و من ينظر إليها من **داخلها** ، هذا هو الجانب الذي أثاره ابن خلدون و طرحه في الصميم ، و عالج من خلاله جميع الـفـصـول المتعلقة بمجال اللغة .

ثم ينتقل بعدها إلى الإعتبارات الدلالية الأوسع إلى **عـلـم البيان** ، الذي يتخطى تأليف المعاجم ، في كشفه للتشوهات و الإستعاضات من الترابطات و الإستعارات التي يمكن أن تؤثر على الكلمات بمعانيها و في سياقاتها المختلفة ، علم البيان عنده من العلوم اللسانية ،" لأنه متعلق بالألفاظ و ما تفيده ، و يقصد بها الدلالة عليه من المعاني "[6] ثم ذكر أن <<ثمرة فن البيان إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن >>[7]

---

[1] - " المقدمة" ص \ 553
[2] - الدكتور" عزيز العظمة" ابن خلدون و تاريخيته " ص \ 182
[3] - " الدكتور عبد الله شريط " التفكير لأخلاقي عند ابن خلدون " ص \ 571
[4] - **المرجع الثالث ص \ 182**

[5] - د \ عبد الله شريط " التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون " ص \ 571
[6] - " المقدمة " ص \ 550
[7] - نفس المصدر ص \ 550

و بعد أن قدّم لمحة عن تطور البلاغة قارن بين المشرق و المغرب ، فوجد أن المشارقة على هذا الفــن أقوم و أقدر ، و لاحظ أن أهل المغرب إنما اختصوا بعلم البديع << ...إذ فرّعوا له ألقابا و عددوا أبوابــا ... و صعبت عليهم مآخذ البلاغة و البيان لدقة أنظارها فتجافوا عنها >> [1] ، و لا يذكر ابن خلدون هنا إلاّ **ابن رشيق** ، و لعل ما في لهجته من قسوة كان يقصد بها علماء آخرين اهتموا بأصناف علم البديع.

و الغريب حقا أنّه لم يشر إلى **حازم أو السجلماسي** و لو مرّة واحدة ، أمّا **ابن البناء** فقد ذكره في حديثه عن صناعة الحساب [2] ،" و هكذا تغاضى عن بلاغة المغرب خلال **القرنين السابع و الثامن** "[3]

أما **علم الأدب** ، فهو العلم الرابع و الأخير من علوم اللغة ، فهو ليس علما بالمعنى الدقيق للكلمة ، فهو لم يهتم بوضع أسس أو دعائم لهذا المجال، فالأدب عند ابن خلدون ثمرته هي الإجادة في فني المنظـوم و المنثور على أساليب العرب و مناحيهم و هو << حفظ أشعار العرب و أخبارها و الأخذ من كل علم بطرف>>[4]، ثم يقرّ أن للأدب أصولا : << و سمعنا من شيوخنا في في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفن و أركانه أربعة دواوين و هي **أدب الكاتب لابن قتيبة ، و كتاب الكامل للمبرد و كتاب البيـان و التـبيين للجاحظ و كتاب النوادر لأبي علي القالي** >>[5]

ملكــة اللـســان : هي إحدى الاهتمامات الكبرى و المحورية التي شغلت ابن خلدون في معالجته للعلــوم اللغوية بعناصرها المختلفة ، كيفية تحصيل الملكة و ترسيخها و طرق تعليمها ، إذ إنّ ملكة اللسان عنده هي صناعة و قدرة على تبليغ الأغراض و المقاصد ، و قد عدّها ابن خلدون صفة راسخة و تحصل بالتكرار المستمر << و الملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل و تكراره مرّة بعد مرّة حتى ترســخ صورته >> [6]

---

[1] - نفس المصدر ص\ 552
[2] - حازم القرطاجني \ صاحب " منهاج البلغاء" و السجلماسي \ صاحب " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع " ، و ابن البناء صاحب \ الروض المريع في صناعة البديع "
[3] - د \ عباس أرحيلة " الإشكالية الأرسطي " ص \ 720
[4] - المقدمة \ فصل علم الأدب ص \ 553-554
[5] - نفس المصدر
[6] - نفس المصدر ص \ 555

و هو نفس ما ذهب إليه من قبل القدماء من اللغويين أو الفلاسفة مثل الفارابي الذي يؤكد أنّ الملكة إنما تحصل عن طريق التكرار المستمر لفترات متعددة << و يتم اكتسابها نتيجة الاعتياد الحاصل عن تكرار الشيء الواحد في فترات متقاربة ، و تتميز بالرسوخ و عدم الزوال >> [1]

قوانين ابن خلدون واحدة في خطّ واحد فيما يتعلق بتكوين الملكات ، فالملكة اللغوية كالملكة الصناعية وهي في كلّ ملكة لسانية يتمكّن بها الإنسان في حالة اكتمال الملكة اللغوية.

يقول ابن خلدون :<< اعلم أن اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة ، إذ هي ملكتن في اللسان للعبارة عن المعاني و جودتها و قصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما بالنظر إلى التراكيب ، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفرّدة للتعبير بها على مقتضى الحال بلـــــغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، و هذا هو معنى البلاغة >> [2]

و يشترط لصحة الملكة و سلامتها ظروفا و شروطا ، فيحتاج المتعلّم أوّلا إلى بيئة اجتماعية مؤهـلــة ملائمة تلقنه الجيّد من اللغة و النقي الصافي << المتكلم من العرب ... يسمع كلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطباتهم ، ثمّ لا يزال سماعه يتجدد و استعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة و صفة راسخة >>[3]

أمّا المقصود بكلامهم ، بدءا من القرآن الكريم و الحديث و أساليب العرب من المنظوم و المنثور.

كما يشترط لهذه البيئة النقية الصافية تعليما صحيحا ، وفق متهج تربوي عقلاني يستند على أسس ودعائم علمية و موضوعية ، حيث يكون التعليم للترغيب لا للترهيب مثل ما شاع آنذاك على عهد ابن خلدون ، إذ سلك فيه المربون أساليب أرهقت كاهل المتعلمين و شقّت عليهم الدراسة، بخاصة تلك المؤلفات المطوّلة في علوم النحو أو الفقه و الحديث ، أو تلك المتون المنظومة المختصرة و المحشوة بتآليف يستعصى فـهـمـهـا << كما فعل ابن الحاجب في الفقه و ابن مالك في العربية و الخونجي في المنطق و أمثالهم ، و هو فســاد في التعليم و إخلال بالتحصيل . >>[4]

[1] - نفس المصدر ص \ 555
[2] - نفس المصدر ص \ 554
[3] - " المقدمة " ص \ 554
[4] - نفسه ص \ 555

لقد كان لابن خلدون في هذه المسألة ملكة اللسان **منهج متكامل** ، يتلخص في مقترحات عملية تطبـيـقـيـة

1- كثرة الحفظ ، مع اختيار المحفوظ الجيّد من كلام العرب .

2- ملكة المعلّم المتفوقة تنقل بالضرورة إلى المتعلم ، فإذا لم تكن كذلك جاءت الملكة مشبوهة و ناقصة .

أمّا المقترح الأوّل فقد أولاه ابن خلدون عناية بالغة و هو المحفوظ الأدبي الذي يسميه **بالنقي** من قرآن وعلومه و أساليب العرب ، و ربط علاقة ذلك بالأمصار العربية ، المغربية و المشرقية ، إذ يقرر بعد تحليل و مقارنة أن المشرق و الأندلس من الأمصار التي أولت التعليم عناية وإتقان ، حيث أخلطت في تعليمهـــا تدريس القرآن بالفنون و كلام العرب ، فجاءت ملكاتهم مستحكمة راسخة في اللغة العربية و علومها .

بينما حدث العكس في المغرب بمشرقه ووسطه و غربه ، فلاحظ قصورا فادحا و لا جدوى من طريـقـــة تعليمهم الجامدة التي يعتريها كثير من العيوب ، كاعتماد بعضهم **النحو غاية لا وسيلة** – **هذه** القضية التـــي شغلت العلماء و المربين منذ الآفاق فمؤلفات **الخليل و تلامذته ملأت الأسماع و الأصقاع** .

لقد تطرق ابن خلدون إلى قضية النحو مبديا رأيه فيها من حيث كونها:

1- لها صلة مباشرة بالملكة اللسانية

2- مختصرات النحو و متونه مخلّة و مجهدة بالتعليم

3- كثرة التآليف في مجال النحو عائقة عن التحصيل .

العجمـة و أثرها فـي اللـسـان :

إنّ العربي قبل أن تدخل العجمة إلى لسانه كان يعتمد على ملكته التي نمت من خلال تلك البيئــة النقية الصافية << لأنّ البيئة العربية هي أداة التكوين الملكة و مساعدة المتعلم على التذوق الصحيـح والتمكن من الأساليب الصحيحة >> [1]

و لذلك العربي بملكته يستغني عن كثير مما يحتاج إليه علماء الأعاجم إلاّ أنّ هذه الظاهرة لا تتعارض مع ما أورده في المقدمة بأنّ علماء الإسلام أكثرهم العجم ، إذ هو يفصل بين عجم النسب و عجم اللغة ، فعجم النسب أصحاب حضارة و تفوقوا في ميادين كثيرة من العلم ،

[1] - " محمد فاروق نبهان " الفكر الخلد وني " ص \ 348

أمّا عجم النسب الذين كان مربّاهم و منشأهم منذ الصغر ، و اختاروا منذ طفولتهم تعلّم اللسان العربي ، فامتلكوا ناصيتة بل تفوقـــوا في الكثير من العلوم و الفنون .

*** الـمـعـادلـة الإ فـتـراضيـة فـي العجـمـة و أثرهـا علـى المـلـكـة *[1]**

ـ كلـّما كـثـر الاخـتـلاط ← فـسـد الـلـسـان

ـ الـعـجـمـة بالـنـسـب + نـشـأة عـربـيـة = مـلـكـة صحيحة

أمــثـــال

سيبـويـه الـفـارسـي الـزمـخـشـري ابن قـتـيـبـة

*** جـهـابـذة و فـرسـان الـكـلام ***

آراء ابن خـلـدون الـنـقـديـة :

إنّ المتتبع لآراء ابن خلدون النقدية في " المقدمة "، يجد أنّ أغلب ما تناوله من القضايا لا يخرج عن مقومات التيار العربي الأصيل ، فهو حين يتحدث عن الذوق و ثقافة الأديب مع إصراره على ضرورة الثقافة و الدربة و التكوين في تحصيل ملكة الأدب العربي ، ثم يتحدث عن لغة الأدب و عن خصائص القول الشعري ، وحين عقد فصلا للفظ و المعنى ، ولامس جوانب متعددة في مجال الأدب والنقد والبلاغة .

[1] ـ المعادلة و الرسم ـــ استنتاج افتراضي

إنّ ابن خلدون << لم يلتفت إلى جهود من سبقوه من النقاد المغاربة كحازم القرطاجني أو السجلماسي و ابن البناء و من عاصروه على الأقل >>[1] لأنه لو فعل ذلك لتسنى للدارسين و الباحثين تقـيـيـم آرائـــــه التقييم الحقيقي .

يقول الدكتور إحسان عباس متحدثا عن ابن خلدون ناقدا : << كان ابن خلدون أعظم ناقد في هذا العصر رغم أنّه لم يزاول النقد الأدبي و لم يمنحه من جهده الكثير >>[2]

لقد بنى ابن خلدون أحكامه وتصوراته النقدية ، معظمها من ثقافته الشخصية ومن تجربته المتأثرة بالشيوخ و الأساتذة ، كثيرا ما يستعمل في عباراته النقدية : " **سمعنا من شيوخنا** "

من الآراء النقدية و الأحكام التي توقفنا عندها : حدّ الشعر – قضية اللفظ و المعنى – الطبع و الصنعة

* أولا ـ مفهوم الشعر و حــدّه عند ابن خلدون :

- ما المفهوم ؟

إنّه فكرة عامة تصور حقيقة الشيء المجرّدة ، و هذا عبر مصطلح خاص يوضع أو يكون موضوعا من قبل للتعبير عن تلك الحقيقة ، فما مفهوم الشعر عند ابن خلدون ؟

يقول ابن خلدون في حدّ الشعر :<< هو الكلام البليغ المبني على الإستعارة و الأوصاف المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كلّ جزء منها في غرضه ومقصده عمّا قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة >>[3]

يقدّم ابن خلدون من خلال هذا القول تعريفا جامعا مانعا – ونحن في هذا المدخل النظري نحاول أن نفكك أجزاء هذا التعريف و نتوقف عند كلّ جزء بالدراسة و التقصي بصورة ما علّنا أن نصل في الـنـهـاية رؤية واضحة .

الشعرعند ابن خلدون مبني على أربعة أجزاء: **الإستعارة – الوزن – وحدة البيت – الأساليب المخصوصة**

1 ـــ الاسـتـعـارة :

[1] - د \ عباس أرحيلة " الإشكالية الأرسطية " ص \ 721
[2] - د \ إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ص\ 617
[3] - المقدمة ص \ 572

إنّ ابن خلدون لا يتعامل مع الإستعارة وفق حدودها و ما استقرت عليه في علم البلاغة ، من حيث هي تشبيه حذف أحد طرفيه و إنّما أطلقها على صورة العموم ، حيث أراد بقوله " الإستعارة و الأوصاف "كلّ ما يدخل تحت طائلة الإستعارة من تشبيه و مجاز و كناية .

لقد جعل الإستعارة في مقدّمة الحدود الشعرية و لهذا خلفياته و أبعاده ، لقد كان التشبيه و الإستعارة من الضروب المستعملة آنذاك – أيّام ابن خلدون – و بخاصة عند شعراء الأندلس ، : >> شعراء الأندلس في القرن السابع و الثامن كانوا مولعين **بالتشبيهات** ، فقد ظهر كتاب " **غرائب التشبيهات "لعليّ بن ظافر**، فهو يعكس مدى اهتمام الأندلسين بالتشبيهات << [1]

الإستعارة ضرب من التصوير والجاحظ يقول " إنّما الشعر صناعة و ضرب من الصيغ و التصوير "[2]

و بلاغة الإستعارة هي أن يراد تشبيه الشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه و تظهره و تجيء إلى اسم المشبه بــه فتعيره المشبه و تجريه عليه ، >> فتقول رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته فتدع ذلك و تقول رأيت أسـدا عندما تقول الخنساء ، رفيع العماد ، طويل النجاد ، فطويل النجاد المعنى المستوحى هو طول القامة <<[3]

و الإستعارة ليست غاية في حدّ ذاتها ، و إنّما المعنى الذي تحدثه من طريق الصياغة فهو المقصود كذلك الأمر بالنسبة للكناية ، فإنّ مجال الكناية يعود من طريق المعنى لا اللفظ ، فالمتكلّم هنا يريد إثبات معنى من المعاني فلا يذكره بالفظ الموضوع له : >> فليست المزية في قولهم " **جمّ الرماد** "أنّه دلّ على قرى أكثــر بل هو إثبات للقرى من وجه أبلغ <<[4]

هكذا الشأن للتمثيل أو الإستعارة و المجاز ، فالصورة البلاغية من هذه العناصر التي تمثل أقطاب تدور عليها المعاني و هي من مقتضيات النظم ، فالجرجاني لا يرى قيمة الإستعارة دون موقعها من النظم ، فالقيمة الفنية في الإستعارة و التشبه و المجاز و الكناية ليست قيمتها من حيث هي كذلك ، بل من حيث قدرة كل منها على الامتزاج و التكيف في السياق .

---

[1] - د \ إحسان عباس" تاريخ النقد الأدبي عند العرب" ص \
[2] - الجاحظ \ " البيان و التبيين " 1\ 11
[3] - عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص \ 114
[4] - نفس المصدر ص \ 117

>> مثل ما جاء في حسن الإستعارة على الآية " **و اشتعل الرأس شيبا** " ، إسناد الاشتعال للرأس كما جاءها الحسن من جهة التقديم و التأخير ، من حيث تقديم ما هو حكم المضاف إليه أو الجار و المجرور (الرأس) و تصيّره فاعلا ، و من حيث تأخير ما هو في حكم الفاعل (شيب) فيصير تمييزا ، على اعتبار أن القياس و التقدير على الجملة بقولنا (اشتعل شيب الرأس) أو (اشتعل الشيب في الرأس)، و لا شك أنّ التقديم و التأخير له قيمته الأسلوبية التركيبية .<<[1]

ملخّص رأي الجرجاني أنّ الصورة البلاغية هي اتحاد عناصر الصياغة و النظم ، وعليه وجدنا شبه تشابه نسبي بين تعريف الجرجاني و ابن خلدون من جهة تأكيده في هذا المضمار أن الكلام هو مطابقة لمقتضيات الحال من جهة البيان حينما يتحدّث عن علوم اللسان .

2ـ الـــوزن :

لا يختلف ابن خلدون عن النقاد في اعتبار الوزن و القافية حقيقتين أساسيتين يميز الكلام فيهما بين المنظوم و المنثور >> ...و قولنا مفصّل بأجزاء متفقة الوزن و الروّي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكلّ <<[2] ، إلاّ أنّه لا يقبل من جهة أخرى بتعريف العروضيين وهم من يعرف الشعر " بالموزون المقفى " ، و آراء من بقيم التباين بين الشعر و النثر على دعامتي الوزن و القافية **وحدهما** >>و كأنّما أدرك أنّ حقيقة الشعر لا تكمن في العنصر الموسيقي وحده ، لذلك هو يخرج من دائرة الشعر كلّ المنظومات العلمية <<[3]

أمّا للدكتور محمد النويهي في ضرورة الوزن في الشعر رأي له أثره يقول :>> و ليس شيئا زائدا يمكن الاستغناء عنه ، و ليس مجرد شكل خارجي يكسب الشعر زينة و رونقا و طلاوة و حلاوة ، ليس الوزن قيد يبرم به الشاعر و يحاول الخلاص منه ، بل الشاعر الحق الصادق لا يجد في الأشكال الموزونة مناصا حين يحاول الكلام في ساعة الإلهام <<[4]

[1] - " دلائل الإعجاز" \ ص \ 117
[2] - المقدمة ص \ 572
[3] - الأستاذ منهوج " موقف ابن خلدون من اللغة و النقد " أطروحة ماجستير س \ 1987
[4] - د \ محمد النويهي " قضية الشعر الجديد " ص \ 38

إنّ ضرورة الوزن في الشعر تمثل شرايين الدّم في الإنسان ، لا يحيا الشعر إلاّ به ، ولهذا يرى"**إليوت"أنّ** وظيفة الموسيقى في الشعر : >> فهي التي تمكّن ألفاظ الشعر من تعدي عالم الوعي إلى العالم الـذي يجاوز حدّ الوعي . << [1]

3ـ وحــدة الـقـصـيـدة :

إنّ مفهوم ابن خلدون لوحدة القصيدة ما كان معناه مقسوما بين بيتين على الأقل ، و مختلف نصوصه في المقدمة داعية إلى ذلك ، إلى وحدة البيت واستقلاله بمعناه ، ففي قوله ما يؤكّد > والشعر من بين فنون الكلام ، صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته من المتأخرين لاستقلال كلّ بيت منه كلام تام في مقصود و يصلح أن ينفرد دون ما سواه << [2] ، و يزيد المفهوم أكثر ايضاحا حينما يؤكّد على ضرورة انفرادكلّ بيت و حرص الشاعر على إعطاء البيت الإفادة التامة ثمّ استئناف بقية الكلام فيما يليه .

يختلف ابن خلدون مع **ابن طبا طبا** القائل بانتظام الأبيات و تناسقها : >> و أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوّله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدّم بيتا على بيت دخله الخلل .. . . يـجـب أن تكون القصيدة كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أوّلها بآخرها نسجا و حسنا و جزالة ألفاظ و دقة معان و صواب تأليف . << [3]

و هذا ما يؤكّده الجرجاني في تصوره النقدي لوحدة القصيدة : >> و اعلم أنّ مما هو أصل في أن يدقّ النظر و يفيض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، و يدخل بعضها في بـعـض و يشتدّ ارتباط الثاني منها بالأول << [4]

4 ـ الأساليب المخصوصة :

وهي آخر دعامة يتمم بها ابن خلدون تعريفه للشعر >> الشعر هو الكلام البليغ المبني على الإستعارة و.. الجاري على أساليب العرب المخصوصة <<[5] وهذه أكثر الدعامات و الخصائص أهمية وخطورة على حدّ تعبير الدكتور إحسان‌عباس الذي يرى أنّ هذا الجزء >> أهمّ جزء في تعريف ابن خلدون و أشدّه غموضا << [6]

---

[1] - المرجع السابق ص\ 39
[2] - المقدمة ص \ 568
[3] - " ابن طبا طبا " عيار الشعر ص\ 124
[4] - " دلائل الإعجاز " ص \ 74
[5] - المقدمة ص \ 572
[6] - " إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ص \ 624

فبعد اعتماده الإستعارة و الوزن ثم استقلال البيت ، يأتي إلى هذه الخاصية التي تعدّ محور تقييم الشعر و معيار الجودة فيه .

- فما المقصود بأساليب العرب المخصوصة ؟

للجاحظ – قديما- رأي في هذا يقول << فضيلة الشعر مقصورة على العرب ، ومن تكلّم بلسان العرب >>[1] ، لقد بلغت جرأة ابن خلدون النقدية أن جرّد بعض الشعراء لأنّهم لم يجروا شعرهم على الأساليب المخصوصة يقول :<< و قولنا الجاري على أساليب العرب المخصوصة فصل له عمّا لم يجر علي أساليب العرب المعروفة ، فهو حينئذ لا يكون شعرا إنّما هو كلام منظوم ، لأنّ الشعر له أساليب تخصّه لا تكون للمنثور >>[2]

إنّه و من الصعوبة بمكان إيجاد تفسير محدّد لهذا العنصر من التعريف " قضية الأساليب المخصوصة " ، أمّا الصعوبة فتكمن في طبيعة طرح ابن خلدون لمعطياته ، سواء اللغوية أو الأدبية بذلك الأسلوب الموجز والمبثوث بين طيات الفصول و المتكرر دون تفصيل دقيق أو مرجعية واضحة ، تاركا للقارئ حرية التفكير و التخمين ، و تلك سمة من سمات المنهج الخلدوني في مقدّمته .

إنّ الأساليب المخصوصة للعرب ما كانت من **المحفوظ النقي** على حدّ تعبيره ، و يقصد بالنقي القرآن الكريم و الحديث و أشعار العرب الإسلاميين و أشعار الجاهلية " و ماكان خاليا من المحفوظ فنظمه رديء و لا يعطيه الرونق و الحلاوة "[3]

التزم ابن خلدون بهذا المبدأ و جعله المعيار الأساسي لجودة الشعر و هو مبدأ استقاه من شيوخه حينما يجرّد المتنبي و أبي العلاء من هذا المعيار :"و بهذا الاعتبار كان الكثير ممّا لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرّي ليس هو من الشعر لأنّهما لم يجريا على أساليب العرب "[4] ، كما أنّه لم يستثن من شعراء الأندلس **ابن خفاجة** و هو يستند –

---

[1] - **الجاحظ " الحيوان " ج2 ص 79**
[2] - **المقدمة ص \ 572**
[3] - نفس المصدر
[4] - نفس المصدر

دائما – في حكمه إلى شيوخه " و لهذا كان شيوخنا ـ رحمهم الله ـ يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه وازدحامـهـا في البيت الواحد "[1] .

كذلك أخذ ابن خلدون عن شيوخه نفورهم من حشد المعاني و تزاحمها في البيت الواحد مؤثرين السهولة و التبسيط ، أمّا التعقيد يقول إحسان عباس :<< شيء كرهه نقاد الأندلس حتى حازم القرطاجني >>[2]

*** ثانيا ـ رأيه في المطبوع و المصنوع :**

الطبع و الصنعة من القضايا النقدية التي حظيت باهتمام النقاد قديما و حديثا ، فالجاحظ و ابن قتيبة و الآمدي و غيره من الذين يرون أن الكلام صناعة لا تختلف عن الصنائع ... و كان يقال للشعراء ـ شعرك مطبوع جيّد ، فيما يقال لآخر شعرك مصنوع عليه أثر الكلفة.

ـ فماذا يقصد بالمطبوع و المصنوع ؟ و ما مفهومه عند ابن خلدون ؟

يستهل ابن خلدون فصله الخاص بالمطبوع و المصنوع مبينا حقيقة الكلام <<اعلم أنّ الكلام الذي هو العبارة و الخطاب >>[3]

أمّا المطبوع :<< الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من إفادة مدلوله المقصود منه ، ليس المقصود منـه النطق فقط ، بل المتكلّم يقصد أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة ، و يدلّ به عليه دلالة وثيقة ، ثم يتبع هذه السجية التي له بالأصالة ضروب من التحسين و التزيين يعدّ كمال الإفادة >>[4] يميل ابن خلدون إلى شعراء الجاهلية فيضع زهير بن أبي سلمى على رأس الشعراء المطبوعين<< و كذا وقع في كلام الجاهلية لكن عفوا من غير قصد و لا تعمد ، و يقال إنّه وقع في شعر زهير >>[5]

يكاد يجمع النقاد كلّهم أنّ المطبوع من الشعراء هو الذي يأتيه الشعر طوعا و ينقاد إليه دون عناء أو مشقة أو تكلّف . أمّا شعراء الصنعة و التكلف هم الذين يسعون إلى تثقيف أشعارهم ، ينقّحون ألفاظهم و يعيدون النظر في معانيهم ، يزيدون و ينقصون .

[1] ـ نفسه ص \ 574 جاء في نسخة المحقق(المقدمة) أبو اسحق و هو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة شاعر غزل والوصف
[2] ـ " تاريخ النقد الأدبي " ص \ 618
[3] ـ المقدمة ص \ 581
[4] ـ المصدر نفسه
[5] ـ نفسه ص \ 582

وبعد شعراء الجاهلية لابن خلدون رأي في الإسلاميين :<< أمّا الإسلاميون ، فوقع لهم ـ أي الشعر ـ عفوا و قصدا و أتوا فيه بالعجائب ... فقد كانوا مولعين بالصنعة >>[1] لقد نسب للشعراء الإسلاميين كلا من الطبع ـ ما يأتيهم عفوا ـ و الصنعة ، أمّا ما أتوا بالعجائب لعلّه يكون بسبب

تأثر الشعراء الإسلاميين بصيغ القرآن الكريم و ما وقع لهم من محفوظه ، و نحن نعلم أنّ القرآن مليء بالتحسين البديعي ، مثل ما استدلّ عليها ابن خلدون بقوله :<< و هذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مـثـل : (و الليل إذا يغشى *و النهار إذا تجلىّ *) ومثل قوله (فأمّا من أعطى واتقى و صدّق بالحسنى) >> [2]

أمّا استدلاله من أمثلة الشعر المطبوع يذكر مثالين اثنين كلاهما في شعر الغزل وهما **قيس بن ذريــح و كثيّر :**<< و لنذكر مثالا من المطبوع الخالي من الصناعة مثل قول قيس بن ذريح >>[3]

و إنّي أخرج من بين البيوت لعلّني * أحدّث عنك النفس في السرّ خاليا**

و قول كثيّر :

و إنّي و تـهيــامــي بـعزّة بـعـدما * تـخـلّـيت عمّا بيننا و تـخـلّـت**

أمّا المـصـنوع :

يقول ابن خلدون في المصنوع :<< أمّا الكلام المصنوع بالمعاناة ، قاصر عن الكلام المطبوع ، لـقـلة الاكتراث فيه بأصل البلاغة ، و الحاكم في ذلك الذوق >>[4] هي آخر عبارة ختم بها ابن خلدون فصله الخاص بالمطبوع و المصنوع ، و هي كما نرى تعريفا جامعا مانعا ، فالمصنوع ما خرج عن الطبع الأصيل ، و زاده التكلّف معاناة و مشقة ، يقول ابن قتيبة في المتكلّف : << فالمتكلف هو الذي قوّم شعـره بالثقاف و نقّحه بطول التفتيش ، وأعاد النظر بعد النظر >>[5]

لقد عدّ الصنعة من الأساليب المستهجنة ـ و هي سمة شعر العصر ـ لدى شيوخه فقد كان شيخه **أبوالبركات البلفيقي** يتمنى على الدولة لو تنزل أقسى العقوبات لمن ينتحل فنون البديع ، يقول

---

[1] ـ نفسه ص \ 584

[2] ـ نفسه ص \ 584

[3] ـ المقدمة ص \ 582 \ قيس بن ذريح بن سنة بن حذافة بن الكناني ، شاعر من العشاق المتيمين ، اشتهر بحب "لبنى" ، من شعراء العصر الأموي \ توفي 68 هـ \ 688 م \ انظر الأغاني \8 \ 107 -128 ، كثيّر بن عبد الرحمن بن الأ متيّم مشهور بـ "عزّة" ، من أهل المدينة توفي بها 105 هـ\723م ينظر الأغاني 8 \ 25 ـ وفيات الأعيان \ 433

[4] ـ نفس المصدر

[5] ـ "ابن قتيبة " الشعرو الشعراء" ج 1 \ ص\ 70

ابن خلدون على لسان شيخه : >>إنّ من أشهى ما تقترحه عليّ نفسي أن أشاهد في بعض الأيّام من ينتحل فنون البديع في نظمه أو نثره قد عوقب بأشدّ العقوبة <<[1]

شهد العصر حركة متميزة ، كان ميدانا للتباري و التسابق بين النقاد و البلاغيين من أجل اكتشاف صورة بيانية أو بديعية مناسبة ، ولعلّ ذلك هو الذي كان سببا في جمود الحركة النقدية ،

هكذا اهتم النقاد و أجـهـدوا أقلامهم في البحث عن مجرّد ألفاظ لا طائل تحتها أعطوها أسماء متنوعة شغلتهم عن المحتوى لأنّهم وجدوا أنفسهم مبهورين بجمال الشكل و غرّتهم الألفاظ و التراكيب بما فيها من بهرجة و زخرفة "تسرّ الناظرين" .

و لهذا عدّ ابن خلدون دخول الصنعة في الكتابة الديوانية بداية الفساد فيها : >> و من ثمّ انتشرت الصناعة في منثور المتأخرين و نسي عهد الترسيل و تشابهت السلطانيات بالإخوانيات والعربيات بالسوقيات و اختلط المرعي بالهمل <<[2]

*** ثـالـثـا ـ رأيــه فـي الــلـفـظ و الـمــعــنــى :**

الأصل في صناعة النظم و النثر إنّما هو في اللفظ أمّا المعاني فهي تابعة <<لأنّ المعاني موجودة عند كلّ واحد ، و في طوق كلّ فكر منها ما يشاء و يرضى فلا تحتاج إلى صناعة >> **(1)** ، هي فكرة كما يلاحظ القارئ تذهب بنا مباشرة إلى مفكّرها الأول وهو الجاحظ ، فهو الموجد لنظرية " المعاني المطروحة يعرفها العجمي و العربي و البدوي "

ثمّ يتجه ابن خلدون بعدها في هذه القضية بتمثيل غريب ، إذ يشبه المعاني بماء البحر و الألفاظ بالآنيـــة فيغترف منها بآنية الذهب و الفضة و الصدف و الزجاج و الخزف، فالماء واحد والآنية مختلفة[3]

إنّ قضية اللفظ و المعنى من الموضوعات التي كثر الحديث فيها من طرف النقاد منذ القديم >> أثـارها النقاد اليونان أيام عصرهم الذهبي عندما كانت المحاورات الفلسفية والأدبية تعقد في

---

[1] - **المقدمة ص \ 583**

[2] - **المقدمة ص\ 583 \ يقصد "بالسلطانيات" : الكتابة الديوانية رسائل بين الملوك و الأمراء - "الإخوانيات" رسائل الأقارب - "العربيات النثر العرب المرسل الأصيل - " السوقيات " الكلام العامي المبتذل المستهجن \ "المرعي" الأصل: الماشية في مراعيها \ الهمل: ما همل وضاع وهذا كلّه أسلوب خلدوني متهكم من جهة و متجهم على الظاهرة البديعية .**

[3] - **المقدمة ص \ 577**

حضرة سقراط و أفلاطون ، و كانوا من القائلين بتفضيل المعاني ، على خلاف الروم الذين كانوا مولعين بجمال الأسلوب و الزخرفة اللفظية التي تضمن لهم روعة الإطار الخارجي >>[1]

أمّا اهتمام النقاد العرب بصفة خاصة و اختلافهم شأن غيرهم في أيّها أفضل الألفاظ أو المعاني ؟

انقسم النقاد إلى فئات ثلاث :

* قسم اهتم بالألفاظ و فضّلها على المعاني
* قسم اهتم بالمعاني و فضّلها على الألفاظ

* و القسم الثالث اتخذ موقفا معتدلا حيث جعل اهتمامه بالألفاظ و المعاني في آن واحد و اعتبرهما بمثابة الجسد للروح ، و هؤلاء ما يطلق عليهم **بالمدرسة التوفيقية** ، أو أتباع نظرية النظم .

و ابن قتيبة معروفة قسمته أو معادلته الرباعية بطرفيها الأساسين و هما اللفظ و المعنى ، و ما يقابلهما من الجودة و الرداءة ، فهو يقسّم الشعرإلى أربعة أضرب باعتباراللفظ والمعنى من جهة و الجودة والرداءة من جهة ثانية :[2]

* 1- لفظ جيّد و معنى جيّد ———— و هو ما حسن لفظه و جاد معناه
* 2- لفظ جيّد و معنى رديء ———— و هو ما حسن لفظه و حلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى
* 3- معنى جيّد و لفظ رديء ———— و هو ما جاد معناه و قصرت ألفاظه عنه
*4- لفظ رديء و معنى رديء ———— و هو ما تأخّر لفظه و تأخّر معناه

بهذا التقسيم تتفاوت عند ابن قتيبة مسألة المعاني و جودتها و رداءتها ، فهي ليست كما طرحها الجاحظ

أمّا ابن رشيق ـ الذي يعدّه ابن خلدون رائدا في الأدب و البديع ـ فهو يعمد إلى التمثيل والتشبيه " فالشعر كالإنسان تماما جسمه هو اللفظ و روحه المعنى "[1] ، هو نفس التقييم الذي وجدناه عند معاصره **ابن شرف القيرواني** في كتابه أعلام الكلام :" المعاني هي الأرواح و الألفاظ الأشباح "

---

[1] - د \ بشير خلدون " الحركة النقدية على أيام ابن رشيق " ص \ 169

[2] - ابن قتيبة " الشعر و الشعراء \ 1 \ ص \ 64

فالشعر عند ابن شرف علـــى أربعة أضرب : ما حسن لفظه و معناه ــ ما حسن لفظه و ساء معناه ــ ما حسن معناه و ساء لفظه ــ ما ساء لفظه و معناه "[2]

و بعد فالرؤية تكاد تكون متشابهة ـ إلى حدّ بعيد ـ بين هؤلاء و ابن خلدون إلاّأنّ ما يميز رأي صاحبنا هو تأثره الواضح بنظرية الجاحظ " المعاني المطروحة " ، هذا ما سيكون إجلاؤه أكثر في الفصول لاحقا .

و نلحظ بعد هذا العرض الموجز لآراء ابن خلدون سواء في مجال اللغة كعلوم اللسان ، أوفي مجال بعض القضايا النقدية أنّها حتما تتجه اتجاها عربيا أصيلا خالصا مستمدّا من التراث الأدبي و النقدي القديم حـيـنــا و موصولا بمفهوماته الاجتماعية بالقياس و الإسقاط حينا آخر .

[1] - ابن رشيق " العمدة " ج \ ص \ 124
[2] - ابن شرف " أعلام الكلام " ص \ 27

الفصل الأوّل

*عـــــلم النحو
* عـــــلم اللّغة
*عـــــلم البيان
*عـــــلم الأدب

تمهيد:

إنّ اللسانيات علم يمتلك كل الخصوصيات المعرفية التي تميزه عما سواه من العلوم الإنسانية الأخرى من حيث الأسس الفلسفية و المنهج و المفاهيم والاصطلاحات ، حيث يبدأ بما تقتضيه الضرورة العلمية.

مما لاشك فيه أن اللسانيات لم يكن لها قصب السبق من المعارف الإنسانية التي عكفت على تناول الظاهرة اللغوية موضوعا لدراستها ، ذلك أن تاريخ الأمم و الحضارات غني بالدراسات التي اتخذت اللغة بعناصرها موضوعا بالتحليل و الوصف

إن القرآن الكريم كان له الفضل في إخراج هذه اللغة " بمجالاتها الضيقة إلى حيز الرمز و الإيحاء والبعد الروحي الماورائ"[1] ، و قد اعتبر القرآن الكريم المصدر الثاني في تقعيد اللسان العربي و اللغة بصفة خاصة .

ومن المسائل التي تفرعت عن إسهام القرآن في ضبط علو اللسان هو "حرص النحويين العرب على العودة إليه أصلا صافيا من كل عجمة "[2] .

و قد ذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن نشأة علوم النحو أن ماجرّ العرب إلى تقعيدها خشيتهم " أن تفسد تلك الملكة اللسانية رأسا و يطول العهد بها فينغلق القرآن و الحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة تشبه الكليات و القواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام و يلحقون الأشباه بالأشباه."[3]

- **اللسان في القرآن الكريم:**

لقد بلغ عدد الآيات التي ورد فيها لفظ اللسان أربعة عشر و جاء وروده دلالة على النظام التواصلي بين أفراد المجتمع البشري ، من ذلك قوله تعالى " و من آياته خلق السموات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم ."الآية 22 من سورة مريم ، و في الآية الرابعة من سورة ابراهيم قوله تعالى :" و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ." ، و في الآية 195 من سورة الشعراء قوله تعالى:" ..لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ." ، ثم جاء ورود اللسان في كذا من السور :كسورة لشعراء الآية 113 – سورة القصص الآية 34 سورة الدخان الآية 58 ـ سورة البلد الآية 9 .

[1] ـ محمد عابد الجابري " تكوين العقل العربي " ص 86- 87
[2] ـ نفس المرجع ص 87
[3] ـ " مقدمة ابن خلدون " ص 546

أ ولا عــلـــم الـنــحــو :

أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا بحاجة إلى النحو لأنهم كانوا يتحدثون العربية بالسليقة و لا يخطئون و كانوا يفهمون ما يسمعون ، و استمر الحال على ذلك إلى جاء الإسلام " فدخل في الملة أجناس من غير العرب ، فتعلموا العربية ، فظهر عندهم وعند من خالطهم من العرب ما يسمى باللحن" [1]

و من ثمّ احتاج الناس إلى وضع هذا العلم لضبط الألسنة ، و نجد ابن خلدون يستهل فصله هذا بقولـه " فلما جاء الإسلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم و الدول، و خالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليه السمع من المخالفات التي للمتعربين ... وخشي أهل العلوم أن تفسد تلك الملكة ... ..

فينغلق القرآن و الحديث على الفهوم ... فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين تلك الملكة ... يلحقون الأشبـــاه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع و المفعول منصوب و المبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغيّر الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا و تسمية الموجب لذلك التغير عاملا ... و صارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم و اصطلحوا على تسميتها بعلم النـــحـــو"[2]

-1- نشأة علم النحو :

لقد أهابت العصبية بالعلماء في الصدر الأول الإسلامي أن يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسربت عدواه إلى القرآن الكريم و السنة الشريفة بما هدوا إليه و سمّوه علم النحو

و مع كثرة الأسباب و الوقائع التي ذكرت في الكتب التاريخية عن وضع النحو و مدى تفاوتها تبقى جهود العلماء الذين استفرغوا جهودهم " فأرقوا عيونهم ولم يطبقوا جفونهم الليالي الطوال لتأسيس فن خطير الأثر على اللغة العربية " [3]

[1] - المقدمـــة \ ص546
[2] - نفس المصدر \ ص 546- 547
[3] - محمد الطنطاوي " نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة " \ ص 11

-2- سبب وضع علم النحو :

قال ابن جنّي :" رووا أن أحدا ولاّه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كتب إليه كتابا لحن فيه ، فكتب إليه عمر أن " قنّع كاتبك سوطا " ، و هكذا انتشرت جرثومة اللحن ، قال الأصمعي :" أربعة لم يلحنوا في جد و لاهزل : الشعبي و عبد الملك بن مروان و الحجاج بن يوسف و كان أفصحهم ." [1]

قال أبو الطيب :" و اعلم أن أول ما اختلّ من كلام العرب و أحوج إلى التعلم الإعراب ، لأن اللحن قد ظهر في كلام الموالي و المتعربين من عهد النبّي – عليه الصلاة و السلام - فقد روي أن رجلا لحن بحضرته فقال :" أرشدوا أخاكم فقد ضلّ ."[2]

-3- واضعو علم النـــحـــو :

لا أحب الإطالة في الحديث بنقل كلام أولئك العلماء جميعهم حول واضعي علم النحو ، حديث أجمعت كتب النحو ، نقلا عن الأنباري ، حيث جاء في قوله أن أول من وضع علم النحو كان عليا-كرّم الله وجهه- إذ يقول :" إعلم – أيدك الله بالتوفيق و أرشدك إلى سواء الطريق - أن أول من وضع علم العربية و أسّس قواعده و حدّ حدوده أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ثم أخذ عنه أبو الأسود الدؤلي و قد اجتمعا عليه ."[3]

و القصة معروفة ، و لا بأس من اختصارها ، إذ قال أبو الأسود في روايته أنه دخل على أمير المؤمنين علّي ، فوجد عنده رقعة ، فاستفسر عن ذلك فقال علّي –ض- :" إني وجدت كلام العرب قد فسد بمخالطة هذه الحمراء ، فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه يعتمدون عليه ، ثم ألقى علّي الرقعة فإذا مكتوب عليها " الكلام كلّه اسم و فعل و حرف ، فالإسم ما أنبأ عن المسمى و الفعل ما أنبئ به و الحرف ما أفاد معنى " ، ثمّ قال لي : انح هذا النحو و أضف إليه ما وقع إليك ، و اعلم يا أبا الأسود" إن الأسماء ظاهر و مضمر و اسم لا

[1] - نفس المرجع \ ص 11 – 12
[2] - " نشأة علم النحو و تاريخ أشهر النحاة " \ ص 25
[3] - نفس المرجع \ ص25 \ 26

ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهرولامضمر " ،وإنما أراد بذلك الإسم المبهم"[1]

ثمّ قال مردفا :" ثمّ وضعت بابي النعت و العطف ثمّ بابي التعجب و الإستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن و أخواتها ما خلا لكن .. كنت كلّما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت . فلذلك سمي النحو ."[2] ، و فيما يروى – أيضا- أن عليا (ض) سمع أعرابيا يقرأ : " لا يأكله إلاّ الخاطئين " فوضع النحو.

و تبقى الروايات كثيرة متضاربة في الإشراف الكلي لسيدنا علّي على كثرة مشاغله و اهتماماته ، إلاّ أنّه كان خليقا أن ينسب إليه هذا العلم لرجاحة عقله و حكمة قوله .

-1- أبو الأسود الدؤلـــــي

لقد اعترف العلماء متقدموهم و متأخّروهم ، مشرقيّهم و مغربيّهم أن أبا الأسود هو الذي ابتكر شكل المصحف بما يحفظ للمسلمين كتابهم الكريم و لغتهم الشريفة .

قال ابن سلام في الطبقات :"و كان أو ّل من استّن العربية و فتح بابها و نهج سبيلها ووضع قياسها ، أبو الأسود الدؤلي "[3]

و قال ابن قتيبة : " أول من وضع العربية أبو الأسود " ، فلأبي الأسود الفضل الوافر في بدء الغرس الذي نما و ترعرع ثم ازدهر ، و هكذا نشأ النحو أول الأمر صغيرا شأن كلّ كائن، فوضع أبو الأسود منه ما أدركه عقله و نفذ إليه تفكيره ثمّ أقرّه الإمام علي (ض) على ما وضعه و أشار عليه ."[4]

و بهذا كانت تلك النهضة الميمونة بالبصرة اتقاء وباء اللحن عند الموالي الذين كانوا أحوج الناس حينذاك إلى تلقي هذا العلم و تخليصه من فساد العجمة .

و روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين تعهدوه بالرعاية قرابة قرن ، انتهى الاجتهاد فيه بين الفريقين من البصرة و الكوفة ، " ثمّ التأم عقد الفريقين في بغداد و نشأ المذهب

---

[1] - " الحمراء " : و يقصد بها الأعاجم

[2] - نفس المرجع \ ص 25

[3] - المرجع السابق \ ص 26

[4] - معجم الأدباء \ ص

البغدادي الذي عماده الترجيح بين الفريقين ." [1] ، و بهذا شعّ نور هذا العلم في سائر البلاد الإسلامية التي احتفظت به ، مثل بغداد و الأندلس ـ في عصرها الزاهر ـ و مصر و الشام و ما يتاخمها .

بيان جدول لأهم أ علام النحو يضم طبقات النحويين من كلا الفريقين ، البصريين و الكوفيين .

أبو الأسود الدؤلي

1

المدرسة البصرية

نصر عنبسة ابن هرمز يحيى

2

ابن أبي اسحق عيسى بن عمرو أبو عمرو

الأخفش-الخليل-يونس الرؤاسي الهراء

سيبويه - اليزيدي – أبو زيد الكسائي

الأخفش قطرب الأحمر-الفراء –اللحياني

الجرمي- المازني – الرياشي ابن سعدان ابن السكيت

المبرد ثعلب

[1] ـ نشأة النحو \ ص 27

إن هذا الجدول يبين مشاهير النحويين و اللغويين العرب و المسلمين الأمثل منهم فالأمثل ، حيث بدأ علم النحو بالمدرسة البصرية ، ثم تفرع بعدها إلى مدرستين بينهما اتجاه بغدادي بدءا بأبي الأسود الدؤلي إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي قيل فيه : " لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ."[1]

و هو واضع فن الموسيقى العربية بوضعه علم العروض ، ثم يليه التحفة النادرة ، سيبويه ، الذي تكاد أغلب الدراسات تجمع على أنه لم يكن العالم الجمّاع للسابقين فحسب بل كان له تفرّده، فأظهر إبداعا لبعض القواعد ، ثم عني بالشواهد النثرية و الشعرية ، حتى قيل أن فيه ألفي و خمسين بيتا .

لقد عظم شأن سيبويه بعلمه في النحو حتى صار يسمى بـ " قرآن النحو " ، و نال بعلمه شأوا بعيدا بلغ أمصارا من المشرق و المغرب ، حتى أن علماء المغرب و الأندلس أقبلوا على مدارسته..

-4- جهود المغاربة و الأندلسين في علم النحو :

إنه و أثناء الفتح الأندلسي عرف المغرب حركة نحوية على غرار الإزدهار العلمي ، حيث ضارعوا علماء المشرق فانتشرت دراسة النحو في سائر المدن ، حتى كادت الأندلس تحاكي العراق في عصره الزاهر.

و قد كان لكتاب سيبويه المكانة المقدسة عند المغاربة فتحملوا المشاق و الأخطار من بلادهم إلى المشرق للحصول على صورة منه " فمن حفظته حمدون النحوي القيرواني ، خلف بن يونس الشنزيني " ومن الشراح " أبوبكر الحسني و ابن طراوة و ابن خروف "[2] ، و القائمة طويلة .

و كثر العلماء و تباروا في تصنيف المؤلفات مع تنويع الإنتاج ، و ملأت قرطبة والأندلس الأسماع و الأصقاع ، و سارت نهضتهم إلى غاية القرن السابع الهجري .

[1] - ينظر المزهر للسيوطي الجدول مستقى من " نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة " محمد طنطاوي \ 35
[2] - المرجع السابق \ ص 191

-5- ابن خلدون و علـم النحـو :

أمّا ابن خلدون فشأنه شأن علماء الإسلام ، فقد اعتبر النحو مفتاح العلوم العربية ، فهو كما قال الشاعر :

النحو يبسط من لسان الألكن *** و المرء تكرمه إن لم يلحن

و إذا أردت من العلوم أجلّها *** فأجلّها منها مقيم الألسـن

فالنحو يمثّل المحطة الأولى التي يقف عندها كل العلماء و بعدها ينطلقون إلى مختلف التخصصات ، كالفقه و علوم القرآن و الأدب و التاريخ و الفلسفة و غيرها .

ولابن خلدون نظرة عميقة ، فهو لم يقع على دراسة أبواب النحو التقليدية ، إنما أكّد ما يتصل بالوظيفة التي يؤديها النحو في فهم التراث العربي و شرح النص القرآني ، إلاّ أنه يقف موقفين من أولئك الذين تعلقوا بالنصوص المنطقية و النصوص الجامدة .

" و جعلواالنحو تحت تأثيرالمنطق الأرسطي صناعة لاتهتم إلاّ بالأدوات أكثرممّا تهتم بتعلمه ملكةاللسان."[1]

أمّا الموقف الثاني ، فهو موقف المنوه لمن كان أقرب فهما لوظيفة النحـو الصحيحـة التي تدنـي الثقافة العربية وتراثها الفني من المتعلمين . لقد تحدث ابن خلدون عن النحو بوصفه واحدا من العلوم التي يحتاج إليها العمران البشري ، فالعلوم تزدهر بازدهار العمران و تضعف و تنكمش بتقهقر العمران حيث يقول :" وقد كادت هذه الصناعة أن تأذن بالذهاب لمارأينا من النقص في سائرالعلوم والصنائع بتناقص العمران ."[2]

ثمّ نجده يقترح وجها للتعليم حتى تستحكم هذه الملكة – ملكة النحو – :" ووجه التعليم لمن ينبغي هذه الملكة و يروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن و الحديث ، وكلام السلف و مخاطبات فحول العرب في أسجاعهم و أشعارهم و كلمات المولّدين أيضا في سائر فنونهم ."[3]

---

1 - المقدمة \ ص 545 \546
2 - نفس المصدر \ ص 546
3 - نفس المصدر \ص 546

و كثيرا ما انحرف عن القصد أولئك الذين جعلوا القواعد جامدة بعيدة عن وظيفتها الحقيقية ، إذ يعتبر ابن خلدون هذا الأمر **بالخرفشة** ، و المقصود بها تلك القواعد التي وضعها النحاة الذين لم يستطيعوا الغوص في أعماق اللغة .

على هذا النحو نحا الجرجاني – عبد القاهر –[1] في كتابه الخالد " دلائل الإعجاز " ، مؤكّدا أن الفهم الخاطئ لطبيعة النحو هو الأساس الفاسد الذي يعدّه ضربا من التكلف و بابا من التعسف :" و لا يعتمد فيه على عقل ... و آراء لو علموا مغبتها لتعوذوا منها ."[2]

يرى الجرجاني أن لا تفسير و لا تأويل يستقيم بدون ردّ تراكيب الكلام إلى النحو و الفزع إليها ، و جملة القول أن النحو عند عبد القاهر هو الذي يفتح الألفاظ المغلقة على معانيها ،و هو مقياس الصحة في الفكر:"

و كذلك المعيار الذي يعرف به فضل كلام على كلام ."[3]

ولنا أن نقرأ مثلا في قول الجرجاني :"إذا أردت أن تقرأ ذلك عيانا فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فتقول : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، ثم ضعه على نحو: من، نبك قفا حبيب ذكر ومنزل ثم انظر هل يتعلق منك فكر؟"[4]

فالنحو عند عبد القادر وسيلة الشاعر الفنان لإبراز الصور الذهنية والمعاني التي تتألف داخل السياق .

فالجرجاني مزج بين النحو والبلاغة مزجا يجعلنا ندرك أنّ الصورة البلاغية هي وسيلة لكيفية الصياغة، فالنظم عنده التركيب والبناء والتصوير والبلاغة .

وبهذا التحليل لأقوال وآراء القدماء في علم النحو نجد أنفسنا قد خلصنا إلى خاتمة مفادها أنّ ابن خلدون كان يعيب على أهل المغرب بخاصة و إفريقيا بعامة انحرافها عن قصدها الشريف إذ يقول :" فقطعوا الصلة بين النحو ... إذ هو قواعد جامدة والنصوص اللغوية

---

[1] - الجرجاني " عبد القاهر " – هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني نسبة إلى جرجانة، المدينة الفارسية العريقة التي تقع بين " طبرستان و خراسان "، و رجّح أن يكون مولده سنة 400 هـ \ 1078 ووفاته سنة 474 هـ ، ينظر معجم المؤلفين و منجد اللغة و الأعلام .

[2] - الجرجاني " دلائل الإعجاز \ ص 68

[3] - نفس المصدر \ ص 127

[4] - الجرجاني دلائل الإعجاز ص 127.

الشاهدة على صحة الإستعمال .. فقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أعربوا شاهدا أو رجحوا معنى من جهة الاقتضاء الذهنيّ، لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه "[1]

ثانيا علم اللغة :

لقد بدأ نجم العرب يعلو بمجيء الإسلام ،فأخذوا ينشئون حضاراتهم التي شملت كل ميادين العلوم والآداب وكان لهؤلاء مجد أدبي وهو الشعر الذي قيل فيه إنه ديوانهم ومجلى بيانهم وعنوان فخرهم ولم يكن لهم مع ذلك آثار مكتوبة تدون ذلك الشعر لأنهم كانوا أمة تعتمد على المشافهة والرواية طريقا لنقل الشعر والأخبار و المعارف من جيل إلى جيل .

ثم أسهمت" قراءات القرآن الكريم بما فيها من ملامح نطقية بارزة " وهي التي يشترط في صحتها أن تكون منقولة مشافهة عن الرسول صلى الله عليه وسلم وتدوين المصحف وتجويد خطه وضبطه ،" من ثم كان نشوء علم اللغةوالنحو والصرف والإعراب" ومن هنا بدأ التفكير في وضع معايير للحفاظ على النطق السليم و التركيب.

فكان الصوت من أولى اهتمامات الأوائل في جهودهم ، فالدارسون الأقدمون على اختلاف توجهاتهم العلمية ، من القراء أو النحاة أو علماء الأصوات أو حتى الفلاسفة كانت دراستهم الصوتية من الإشتغالات الأساسية حيثأنّ" الظاهرة الصوتية هي الأساس الأو ّل المعمول عليه في وضع المعايير الأساسية للنحو العربي."[2]

ولعل قصة أبي الأسود الدؤليّ أقوى دليل على ذلك حينما همّ بوضع ضوابط لقراءة القرءان الكريم إذقال له سيدنا عليّ (ض) : "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، و إن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين ."[3]

كما هو واضح و جلّي ، أن الهدف من كلّ هذا هو وضع ضوابط للأداء الفعلي الصحيح للقراءةالصحيحة للقرآن الكريم ، و هي القراءة التي تخضع للكفاية اللغوية للسان العربي .

---

1 - المقدمة ص 400
2 - أحمد حسني " مباحث في اللسانيات "\ ص 13
3 - ابن سينا " رسالة الحروف" – نقلا عن " نشأة النحو " \ ص 23

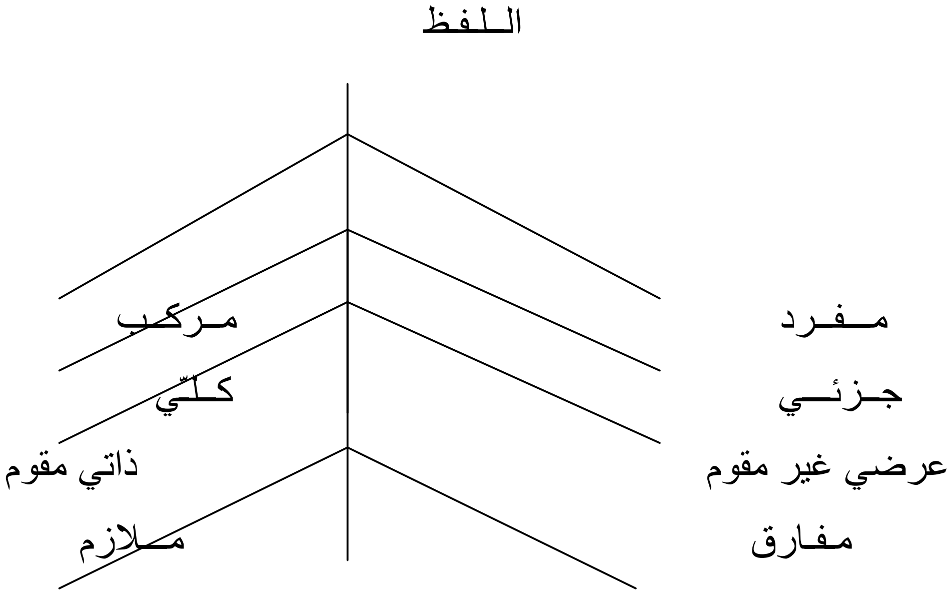
- الجـهـود اللـغــويـــة :

و تواصلت عطاءات التفكير اللغوي و الصوتي على وجه الخصوص عند العرب ، فهذا جنّي(392)[1] ، أول من استعمل لغويا للدلالة على علم اللسان – و هو علم الأصوات –

لقد جاء حديث **ابن سينا** في رسالته [2] ، حديثا عن العالم بأسرار الطبيعة ، حيث أشارإلى كنه الصوت و أسبابه ثمّ حديث الطبيب المشرّح حين وصف أجزاء الحنجرة ، فشرح بدقة جهاز النطق ، دقائقه ووصفه بشكل عجيب " ما نظن أحدا من المتقدمين بلغ شأوا مثل شأوه " [3]

-1- مفـهـوم ابـن سـيـنـا لـلـغـة:

لقد تجاوز ابن سينا في طرحه الإشكالية اللغوية نهج الأوائل تعمقا و ربطا بين ميادين اللغة المنطقية و النظرية من حيث أن اتجاهه العام و الغالب في دراسته موسوم بالفلسفة الصورية و البرهانية النظرية ، إن ملّخص نظرية ابن سينا تتحدد في ثنائية التفريع الموسعة – لمسألة دلالة اللفظ-



وقد أفرد لكل تفرع فصلا على حدة حسب طبيعة كل صنف و تفرّع .

[1] - ابن جنّي هو أبو الفتح عثمان (942-1002)، نحوي بصري ،صحب أبا علي الفارسي ، له مؤلفات منها:"الخصائص"،" المنصف" "سرّ صناعة الإعراب" ، و "شرح ديوان المتنبي "و " كتاب التصريف "، "اللمع في النحو"، كان صديقا للمتنبي \ انظرالمنجد في للغة و الأعلام.
[2] - المقصود " رسالة الحروف "
[3] - عابد الجابري " نحن و التراث "\ ص 97

لقد كان لابن سينا رأي في هذا المجال الذي ظلّ العرب ، مفكّروهم و مترجموهم يخوضون فيه ألا وهو مسألة التشابك الحاصل في لغتهم بين مضامين اللفظ الواحد و أ بعاده الحقيقية و المجازية ، يقول ابن سينا في هذا الشأن : " فإن اتفق أن لا يوجد للمعنى لفظ مناسب و معتاد فليخترع له لفظ من أشدّ الألفاظ مناسبة و ليدل على ما أريد به ثم يستعمل فيه ."[1]

إنّ مفهوم ابن سينا للغة – بصفة عامة – مفهوم يميل إلى المفهوم الأرسطي للغة و حدّها مهملا إلى حدّ ما فكرته عن الخصائص اللغوية التي تقترب من مفهوم الأصوليين ، و هو يعترف في رسالة " الحدود" التي تضمّ "قرابة خمسة و أربعين حدّا يبدؤها بصعوبة التحديد ووجوه التقصير التي يقع فيها من يتعرض "[2] بأنّه غير قادر على توفية الحدود اللغوية حقّها إلاّ في النادر

-2- مـفـهـوم الـفـارابـي للغـة :

إنّ دراسة الفارابي للموضوع اللغة دراسة شمولية عامة أعلن من خلالها عن فلسفة ذات صلة وثيقة بسائر العلوم مثل النحو ، البلاغة متطرقا لشرح أبنيتها و علائقها بتدرجاتها اللسانية و الفكرية ، إذ هي لغة المستويات من العامة إلى الخاصة .

ثمّ بدت فلسفة الفارابي ميدانا رحبا يتناول " معا رج علاقة الاسم بالمسمى أو اللفظة بالشيء و الحرف بمدلوله الحسي و العقلي ."[3] ، و يعلّل كيفية نضوج اللغة و اكتمالها على صورة اللسان و العقل ضمن الأطر المحيطة بها .

و الجميل عند الفارابي أن يتناول الظاهرة اللغوية و هو يستعمل مصطلح اللسان العربي مستعينا بمناهج التفسير و التحليل و التعليل المنطقي متوقفا عند كلّ مرحلة من مراحل البناء اللغوي.

و هو منهج يتقاطع مع المنهج **السوسيري**[4] على كثير من صعيد ، إذ يقسم الفارابي علم اللسان عند كلّ أمة إلى سبعة أجزاء :

---

[1] - ابن سينا " الإشارات و التنبيهات " ص\ 187
[2] - التفكير اللساني عند ابن سينا " رسالة جامعية " ماجستير " معهد اللغة و الآداب " جامعة وهران \ ص 25
[3] - " جرار جهامي " – " الإشكالية اللغوية " \ ص 106
[4] - السوسيري : العالم اللغوي دو سوسير Alfred De Saussure سويسري (1857-1913) من كبار علماء الألسنية ، مؤسس البنيوية الحديثة ، جمعت محاضراته و نشرت بعد وفاته في " درس الألسنية العامة " 1916.

1- علم الألفاظ المفردة **2-** علم الألفاظ المركبة **3-** و علوم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة **4-** و قوانين الألفاظ عندما تركب **5-** و قوانين تصحيح الكتابة **6-** و قوانين تصحيح القراءة **7-** و قوانين تصحيح الأشعار .

يكاد يتفق الباحثون المعاصرون مع المؤلفين القدامى في القول أن ابن سينا لا يختلف في آرائه عن الفارابي إلاّ في بعض التفاصيل و الجزئيات ، بل هناك من يجزم بأن ابن سينا لم يعمل إلاّ على تفسيروتبسيط الأقوال و الآراء التي قررها الفارابي ، و قد يكون مردّ ذلك أن ابن سينا نفسه يعترف بفضل الفارابي عليه ، و بمكانته العلمية "باعتباره أحسن و أفضل شرّاح آرسطو و أنّه أحقهم و أجدرهم بالتقدير ."

-3- رسالة الكندي[1] في حدود الأشياء و رسومها ، و تحتوي رسالته هذه على مائة تعريف لحقائق منطقية رياضية و طبيعية و ميتافيزيقية للظاهرة اللغوية .

-4- رسالة الحدود و الرسوم لإخوان الصفا[2] ، و هي تضمّ قرابة مائتين و خمسين حدّا أكثرها فلسفي ، أوّل مؤلّف يجمع التعاريف الكلامية و هي متأثرة بمصطلحات الكندي .

-5- كتاب المنطق للغزالي[3] و هو معيار العلم الذي شرح فيه المنطق تكملة لكتابه " تهافت الفلاسفة " .

إنّ أسماء الأعلام المذكورة آنفا تصدّت للظاهرة اللغوية تصديا عميقا يتسم بالطرح الفلسفي الأرسطي ، فهؤلاء اللغويون هم بالدرجة الأولى فلاسفة ، لذا جاءت نظرياتهم و تحديداتهم غايتهم عدم الولوج في مواضيع أبحاثهم إلاّ بعد إجلاء معاني أو مضامين الألفاظ.

و في القرن السابع قام الوزير جمال الدين أبو الحسن علّي بن يوسف القفطي بتأليف كتابه " إنباء الرواة على أنباء النحاة " [4] ذكر فيه " مشايخ علماء النحو و اللغة ممن تناول المسائل

[1] - الكندي : أبو يوسف يعقوب (796-873) ، من قبيلة كندة ، عني بالرياضيات و المنطق و الفلك و الفلسفة ، من مؤلفاته حوالي 60 رسالة منها " رسالة في حدود الأشياء و رسومها "، و" رسالة كمية كتب أرسطوطاليس"، و غيرها . ينظر " المنجد في اللغة و الأعلام "

[2] - عابد الجابري " نحن و التراث " \ ص 91-92 " إخوان الصفا": جماعة ذات طابع سياسي ديني ، نشأت في البصرة نحو 983 ، جمعوا بين الفكر الإسلامي و اليوناني و بالأخص الفيثاغورسي ، إذ جعلوا للحساب دورا كبيرا ، دونوا تعاليمهم في- 52 – رسالة كتبت بأسلوب مسهب ، خلاصة عقيدتهم أنّ العالم صادر عن الله و قد فاض عنه ، و أنّ الله علّة كلّ فيض . \ المنجد في اللغة و الأعلام .

[3] - المقصود أبو حامد الغزالي ، صاحب "إحياء علوم الدّ ّين"

[4] - " جلال الدّين السيوطي " –" بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة "\ ص 6-7- من مقدمة الكتاب .

اللغوية و النحوية بالتصنيف رواية و في أرض الحجاز و اليمن و العراق و خراسان ... و مصر و وسط المغرب و جزيرة الأندلس .

و في القرن الثامن جاء بعد هؤلاء العالم اللغوي أبو بكر عبد الرحمن السيوطي الذي وضع كتابه العتيد " بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة " ، حيث انتقى له من كتب الأدب و التاريخ و التراجم و معاجم الشيوخ ، و مقدمات الكتب ، بحيث بلغت سبع مجلدات " و أوردت فيها الدرر تترى ما بين نظم و نثر ، و ما يدخل فيه من الفوائد و الفرائد ، و الألغاز و الزوائد ، و المناظرات و المحاورات ، و الفتاوى الواقعات ، و الغرر اللامعات ، أفردت لها كتاب الأشباه و النظائر النحوية ." [1]

اللـغـة من منـظـور ابن خـلـدون :

سواء نظرنا إلى اللغة العربية بوضعها لغة سحر و بيان أو إلى الدور الذي اضطلعت به في الثقافة العربية و الإسلامية ككل أو إلى دورها المباشر و غير المباشر ، سنجد أنفسنا أمام محدد أساسي و حاسم للفكر العربي بنية و نشاطا .

- فما هي الكيفية التي تعامل بها ابن خلدون مع اللغة كعلم ؟ و ماهي الرؤية التي تنطوي في إطارها مرجعيته الفكرية ؟ و ما علاقة ذلك في المنظور اللساني ؟

يدرس ابن خلدون اللغة فيمجملها معرّفا إياها :" هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية" ، و يقول في موضع آخر حيث اللغة عنده صناعة "اللغات ملكات شبيهة بالصناعة "[2] ، فعلم اللغة هو مجموع ما كتب من علوم خاصة بالعربية ، و هو بيان لموضوعاتها .

و يرجع ابن خلدون أن من دواعي التأليف في هذا المضمار هو اللّحن[3] ، و من ثمّ " احتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب و التدوين أمّا اللّحن الذي تحدث عنه ابن خلدون الذي ظهر عند العرب نتيجة احتكاكهم بالأعاجم ، و سمّاه **فسادا** ، و الفساد هو الخطأ الذي طرأعلىألسنة العرب بعد اختلاطهم بغيرهم من الأمم التي دخلت الإسلام ، فالفساد هو اللحن : كنصب الفاعل و رفع المفعول .

[1] - نفس المصدر \ ص 7
[2] - المقدمة \ ص 547
[3] - نفس المصدر \ ص 547

مثل يضربه الجاحظ في هذا الشأن عن الأعرابي الذي دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال : " سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح "[1]

يؤكّد ابن خلدون حقيقة مفادها أنّ اللغة العربية هي لغة الجاهليين – كما يعترف بها الفارابي في كتابه " الحروف "[2] .

فالمنبع الذي حافظ على نصاعة اللغة هو بعد قريش و بعض من القبائل عن تخوم أهل العجم ، حيث جاء في قوله :" كانت قريش أفصح العرب لغة ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ومن اكتنفهم من ثقيف و هذيل و خزاعة و بني كنانة و بني أسد و بني تميم ."[3] فاللغة الجاهلية لغة أهل الأعراب النظرية التي لم يكتنفها من شواذ اللغة لبعدها عن الأعاجم الوافدة .

و لذلك كان من عيوب اللغة عند العرب في لهجاتهم المتباينة ، قال أحمد أمين – على لسان د\ تمام حسن :" كان بعض العرب ينطقون الياء شبيهة بالجيم ... و كان بعضهم يميل الألف فلا ينطقها صريحة ، و بعضهم يثبت الواو و النون ... ، فهذه **عنعنة** تميم ، و **تلتلة** بهراء ، و **كشكشة** ربيعة و هوا زن ."[4]

عمد ابن خلدون في مقدمته إلى ذكر طائفة من مشاهير العلماء و المؤلفين في هذا العلم –علم اللغة- و لم يستثن ، إذ أشاد بدور المشارقة و المغاربة بخاصة الأندلسيين ، من المشارقة **الجوهري**[5] ، و قبله الإمام الفراهيدي أن أشرنا إليه في علم النحو ، و من الأندلسين،

ابن سيدة[6] ، صاحب " المحكم ".

كما أشار ابن خلدون في معرض حديثه عن اللغة إلى عالم لغوي ذي باع طويل في الشأن و هو عبد القاهر الجرجاني و الذي عدّه من جماهير و أئمة اللغة .

يعتمد الجرجاني في دراساته النظرية اللغوية على مبدأ هام و **مبدأ التفريق بين اللغة و الكلام** ، و هما ضربان رافقا الدرس البلاغي وأ سهم في نشأته و تطوره ، و هو مبدأ التفريق

---

1 - "البيان و التبيين" الجاحظ ، \ ص 110

2 - الفارابي يعترف :"الأفضل أن تؤخذ لغة العوام عن سكان البراري ، لأنّ العجمية لم تخالطها و اللحن لم يتفشى ، و من قبائل هذه البراري : قيس، تميم ، أسد ، طيئ و هذيل فهؤلاء معظم من نقل عنه لسان العرب " ينظر كتاب" الحروف" \ص 146.

3 - "المقدمة \ ص 461.

4 - "أحمد أمين " " ضحى الإسلام ج 2 \ ص 7

5 - "الجوهري " مؤلّف كتاب "الصّحاح" ، و هو إسماعيل بن حمّاد الجوهري \ انظر معجم الأدباء \ 2 \ ص 269

6 - "ابن سيدة " : علّي بن إسماعيل، ولد في" مرسية" مدينة اسبانية - Murcia مدينة في جنوبّي اسبانيا ، قاعدة مقاطعة ، كاتدرائية من القرن الرابع عشر ، متحف فني ، من مدن الأندلس المشهورة \ ينظر المنجد في اللغة و الأعلام .

بين مبدأ العدول و الانحراف ، و هي المبادئ التي لا تكاد تختلف عن المبادئ التي أطّرت قيم الدرس الأسلوبي الحديث .

إنّ ضرورة التفريق بين مبدأ اللغة و الكلام ضرورة منهجية انتقاها الدرس البلاغي في الأصل ، و يتجسّد ا لتفريق بين اللغة و الكلام في مفهوم كلّ منهما "فاللغة تحدّ غالبا على أنها مجموعة المفردات اللفظية الموضوعة بإزاء المعاني "[1] كما نجد اللغة عندا بن جنّي :" أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم " .[2]

أمّا الجرجاني فقد كان أكثر وعيا عمّن سبقه بضرورة التفريق بين الكلام و اللغة في صورته الثنائية الضدية بين اللفظ و المعنى :" فاللغة وضع و اتفاق و في مقابل الكلام الذي هو نظم و تأليف ، و أنّ اللغة لا تخضع لفاعلية ذاتية فردية ، بينما الكلام يخضع لفاعلية ذاتية عند نظمه و تأليفه ."[3]

و للجاحظ وقفات لغوية جمّة نختصر منها بإيجاز قوله في اشتقا قات العرب في لغتهم و اختلاف دلالاتها :" للعرب أمثال و اشتقا قات و أبنية و موضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم و إرادتهم ، و لتلك الألفاظ مواضع أخرى و لها حينئذ دلالات أخرى "[4]

يعدّ الجاحظ فقيها لغويا متقدّما ، فهو يترصّد الظاهرة اللغوية قصد الوصول إلى دلالات لمعاني أو أسماء مثل ما يقول في موضع اختيار العرب لأسماء أبنائهم في أسلوب خاص و طريق مثل ما هو معروف عن منهجه في الكتابة ، إذ يقول :" كان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير و الفأل ، فإن سمع إنسانا يقول حجرا ، و رأى حجرا سمىّ ابنه به ، و تفاءل فيه الشدّة و الصلابة و البقاء و الصبر و أنّه يحطّم ما لقي ...، و إن سمع إنسانا يقول ذئبا تأوّل فيه الفطنة و الخبّ ... ، و إن كانحمارا تأوّل فيه طول العمر و القوة و الجلد ، و

إن كان كلبا تأوّل فيه الحراسة و اليقظة ... و غير ذلك ."[1] ، و هكذا كانت العرب تسمّي بالكلب و الحمار على سبيل التفاؤل ، و منها مشتقات على شكل اسم الأب لابنه " يكون اسمه عمر فيسمّي ابنه عميرا و يسمي عمير ابنه عمران ، و قد يكون الإسم على سبيل المكان ."[2]

---

[1] - " الجرجاني " ورد ذكره عند ابن خلدون باسم "القاضي" حين تحدث عن مسألة القياس ، جاء في المقدمة :" ... و إن مال إلى القياس فيها القاضي " ص \ 550

[2] - " ابن جنّي " الخصائص " \ ص 303 ج 1 تحقيق محمد علي النجار - المكتبة العلمية .

[3] - "الجرجاني" \ " أسرار البلاغة " \ ص 52

[4] - الجاحظ " البيان و التبيين " ص

- علــم الـلـغــة فـي ضوء الـدراســات الحديثـة :

تجمع الدراسات الحديثة على أنّ اللسانيات أو " علم اللغة " Linguistique علم كلّي يشمل دراسة كلّ الظواهر اللغوية و ما يتصل بها من منحى الإتصال بالعلوم الأخرى على اختلافها ، و تنقسم العلوم في اللسانيات عادة إلى قسمين :

1- اللسانيات النظرية Linguistique –Theorique

2- اللسانيات التطبيقية Linguistique -Appliqee

أمّا اللسانيات النظرية فتعنى بالظواهر اللغوية وحدها ، كعلم الأصوات و علم الصرف وعلم النحو و التراكيب و علم الدلالة .

أمّا اللسانيات التطبيقية فتضمّ العلوم التي تطبّق الدرس اللساني النظري ، كتعليم اللغات القومية و الأجنبية و صناعة المعاجم Lexographie و الترجمة و أعراض الكلام و مختبرات اللغة .

و من فروع اللسانيات : اللسانيات الاجتماعية- Sociolinguistique – اللسانيات النفسية – Psycolingustique – اللسانيات العصبية – Neurolingustique – اللسانيات التربوية – Pedagolinguistique .

- دو سوســير [3] Ferdinand-deSaussure ، يعرّف اللغة بقوله : " اللغة تختلف عن الملكة اللغوية ،فما هي سوى جزء معين منا ، إنّها نتاج اجتماعي لملكة اللغة ، و في الوقت نفسه هي مجموعة من الإصطلاحات الضرورية التي يتبناها الجسم الإجتماعي ."[4] ، ثمّ يتابع

الظاهرة اللغوية من حيث الصوتيات "إنّ اللغة المنطوقة ليست هي الطبيعية عند الإنسان بل المقدّرة على تكوين اللغة ، إي تنظيم الإشارات المتمايزة التي تقابلها أفكار متمايزة "[5]

و هكذا نجد دوسوسير يعطي اللغة المكان الأوّل في دراسة الملكة اللغوية ، و هي لاتمارس إلاّ بمساعدة الأداة – نظام الإشارات- التي أوجدتها الجماعة .

---

1 - نفس المصدر

2 - نفس المصدر

3 - " دوسوسير " سبق التعريف به .

4 - نفس المرجع: " أحمد قدور " \ " مبادئ اللسانيات" \ ص 11-دار الفكر دمشق 1999

5 - نفس المرجع

لقد عبّر كلّ من دوسوسير و إدوارد سابير و نوام شومسكي بين اللغة كمؤسسة اجتماعية في دلالتها المعجمية و نظامها القرامتيكي و قوانينها التركيبية و الحدث اللغوي كأداء كلامي

خاص تنجزه العبقرية الفردية انطلاقا من تفجير طاقات اللغة الجماعية ذاتها ، لقد قال الأو ّل باللغة و الكلام و الثاني بالأنموذج و الواقع الكلامي و الثالث بالكتابة اللغوية و الأداء الكلامي"[1]

و **هذا وليام دويث وثني**[2] _الذي يكاد يلتقي مع دوسوسيرو أقرانه في تحديد اللغة من جهة و الكلام من أخرى يقول ويتني"أنّ الكلام ليس فعلا طبيعيا أو خاصية بيولوجية للإنسان و لكن هو **فعل اجتماعي**... و اللسانيات أو- علم اللغة –ليست علما طبيعيا ، و لكن علما **تاريخيا ..**"[3]

و في مايلي النص الأصلي مستقى من " اللسانيات من القرن العاشرمؤلفه جورج مونان Georges Mounin

Le langage n'est pas un fait naturel ou une propriété biologique de l'homme , mais Un fait social . La linguistique n' est pas une science naturel mais une science historique.

إنّ هناك مسألة لغوية تتعلق بـ**دورة الخطاب** حيث يلتقي معها- أيضا- دوسوسير و **حازم القرطاجني**[4] إذ يربطها دوسوسير بمسألة فيزيائية ، و يرى أنّ منطق الدورة موجود في دماغ أحدهما ، و على سبيل المثال حيث تقترن ظواهر الإدراك :" و هي التي نسميها

المتصورات الرأسية الذهنية بما يمثل الدلائل اللغوية أي الصور الإكوستكية المستخدمة عن تلك الظواهر ، و لنفترض أنّ متصورا ما يثير في الدماغ صورة أكوستكية مناسبة ، فإنّ هذه العملية تمثّل ظاهرة نفسية صرفة ، تليها عملية فيزيولوجية ، و صورة ذلك أنّ الدماغ يبلّغ أعضاء التصويت دفعة مناسبة للصورة الأكوستكية ، ثمّ إنّ الموجات الصوتية تنتشر من فم (أ) إلى أذن (ب)و تلك عملية فيزيائية صرف ، ثمّ إنّ الدورة تتواصل عند (ب) و لكن في ترتيب معاكس

---

[1] - **نفس المرجع**

[2] - **"وليم دويث وتني (1894-1827) William Dwight Whitnez ، كاتب و شاعر انجليزي ، رحل إلى ألمانيا أين واصل دراساته و أبحاثه في مجال اللسانيات و النحو المقارن بين اللغات الهندوأروبية ، صاحب نظرية " الكلمات بالنسبة للعقل هي كالأدوات في الأيدي " Mots sont pour l 'esprit de l'homme ce que sont pour ces mains les outils**
ينظر المؤ ّلف المشار إليه: لسانيات القرن العاشر \ ت\ جورج مونان \ الإعلام الجامعي الفرنسي \ ص 20-21

[3] - **النص من المرجع نفسه\ ص 21 ، محاولة خاصة في الترجمة .**

[4] - **-"حازم القرطاجني " نسبة إلى مدينة " قرطاجنة" ، المدينة الفينيقية الأصل التونسية الموقع ، رحل منها بعد سقوطهافي يد الروم إلى الأندلس و عاش في ظلّ الدولة الحفصية ، و هناك في مهاجره الجديد كتب كتابه الشهير" منهاج البلغاء و سراج الأدباء "**

أوّ لا من الأذن إلى الدماغ حيث تتم عملية تبليغ فيزيولوجية للصورة الأكوستكية ثمّ ثانيا في الدماغ نفسه حيث يتمّ ربط بين الصورة و المتصور الذهني الذي يناسبها ، و هكذا فإذا تكلّم (ب)بدورة مماثلة فإنّ العملية الجديدة أي كلام (ب) سيسلك في تنقلها من دماغه نفس المسلك الذي سلكته العملية الأولى أي كلام (أ) و بنفس المراحل المتتالية "[1] .

بينما نجد حازم القرطاجّني قد سبق دو سوسير ، إذ حاول وصف دور الخطاب بين المنطوق و المكتوب قائلا :"إنّ المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان ، فكلّ شيء له وجود خارج الذهن ، فإنه إذا حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه ، فإذا عبّر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر عنها هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين و أذهانهم ، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ ، فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدلّ على لمن لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ فتقوم بها في الأفهام صور المعاني، فيكون بها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها ."[2]

و يعتبر **بارث** هذه بعض المحطّات التي تعتبرها إسهامات لبعض المفكّرين اللغويين على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، إنّما قصدنا من ذلك تدعيم الآراء بعضها بعضا ، فرأي ابن خلدون نظري شامل في عمومه ، مستقى من مجموع ما ذرسه على شيوخه من جهة .

و بهذا فإن علم اللغة تصور اتخذ في العصور الحديثة أشكالا و ألوانا من الآراء و المفاهيم و هي في تطور مستمر بتطور العلوم ، فهذا " **بارث**[3] يعتبر " الكلمة ليست بريئة فهي شيء

من الإيديولوجيا و شيء من الذاتية"، و ما أقرب هذا من موقف أرسطو حين طلب من ذلك العملاق أن يتكلّم حتى يراه " تكلّم حتى أراك " فاللغة تعبير عن الوجود .

ثالثا علـــم البيـــان :

قال تعالى :**"الرّحمن* علّم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان "**

---

[1] - النص من محاضرات " ا للسانيات العامة " Cours lunguistique generale لدوسوسير \ ينظر رسالة "أمين الزاوي " \ "مفهوم القراءة عند الجاحظ "\ص 86 .

[2] - " حازم القرطاجني " \ " منهاج البلغاء و سراج الأدباء" \ ص 19

[3] - "بارث" رولان Barthes (1915-1980)، أديب فرنسي و ناقد ، استوحى أعماله النقدية من الدراسات العصرية للألسنية و التحليل النفسي ، من كتبه : "درجة الصفر "، " إمبراطورية العلامات" و" و "لذة النص" ، ينظر " المنجد في اللغة و لأعلام "

* يقول ابن خلدون في تعريفه لعلم البيان :" علم البيان هو علم من علوم العربية متأخرّ في نشأته و هو حادث في الملّة بعد علم العربية و اللغة ، و هو من العلوم اللسانية لأنّه متعلق بالألفاظ و ما تفيده ."[1]

كما يضيف إلى المعنى السابق معنى آخر :" علم البيان أحد جزئي البلاغة المكونة من علم المعاني و علم البيان ." ، كما يشير إلى مسألة الدلالة و مدى مطابقة اللفظ لمقتضيات الحال ، " فالبيان : مطابقة اللفظ لمقتضيات الحال ، و يسمى علم البلاغة "

و هذا المفهوم ، أو التعريف يجرّنا إلى العالم اللغوي و البلاغي عبد القاهر الجرجاني ـ الذي سبق الإشارة إليه ـ في كتابه " أسرار البلاغة " حيث نظرية النظم التي تتفرع عنها نظرية " المطابقة " التي أشار إليها ابن خلدون و التي سيلي ذكرها لاحقا .

يعرّف الجاحظ البيان بقوله :" هو البيان الذي سمعت الله تعالى يدعو إليه ، و بذلك نطق القرآن ، و بذلك تفاخرت العرب و تفاضلت أصناف الأعاجم "[2]

* مفاهـــيـــم بلاغـيـــة:

أمّا البلاغة التي هي جزء لا يتجزأ من علم البيان ، فجاء في قول ابن خلدون :" البلاغة تدور كلّها في السليقة و الطبع و بلوغ الغاية من الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها بدقة." ، فأصل الكلام العربي على سجيته و روحه و طبعه ، و هي أيضا " كمال الإفادة " ، إذ يبلغ المتكلم بها الغاية من إفادة مقصوده للسامع

أمّا البليغ : فهو المتكلم بلسان العرب الذي يتحرى الهيئة المفيدة و :"كلّ متحدّث بالعربية لا يحسن إيصال الكلام إلى السامعين فكلامه أشبه بأصوات الحيوانات و أجدر به أن لا يكون عربيا."[3]

إنّها تعريفات لم يأت ابن خلدون فيها بالجديد عمّا ذكر السلف أو القدماء البلاغيين ، المشارقة منهم أو المغاربة مع ذلك الازدراء الذي يعيب من خلاله على العرب من حيث استحسانهم

---

1 - "المقدمة" ص 550
2 -"الجاحظ" " البيان و التبيين ص 54
3 - -"المقدمة" ص 552

العربية و بلاغتها و إلاّ فهم في مصاف الكائنات الصوتية الناطقة و المبهمة في نفس الوقت و المعبر عنها "بالحيوانات " ، إنّه ازدراء و إنكار لما وصلت إليه العربية آنذاك في صور تدنيها .

* علـم الـبيـان في مـفهوم ابن خلدون ثلاثـة أصـنــاف:

ـ الصنف الأول: و يختص بدلالات التراكيب اللفظية البلاغية المتعلقة بتطابق اللفظ جميع مقتضيات الحال .

ـ الصنف الثاني : و يبحث عن الدلالة غير الحقيقية المتعلقة **بالمجاز** ، **الاستعارة** ، **الكناية** .

ـ الصنف الثالث : و يبحث في مسألة التحسين اللفظي ، **علم البديع** .

" جعل هذا العلم على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث عن الهيآت و الأقوال التي تطابق اللفظ جميع مقتضيات الحال و يسمى علم البلاغة و الصنف الثاني يبحث عن الدلالة على اللازم اللفظي و ملزومه وهي الاستعارة و الكناية و يسمى علم البيان و ألحقوا بهما صنفا آخر ، و هو النظر في تزيين الكلام و تحسينه بنوع من التنميق إمّا بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى لإشراك اللفظ بينهما أو طباق بالتقابل بين الأضداد و يسمى عندهم علم البديع."[1]

مــن مبادئ الـبلاغــة :

*** مبدأ العدول و الإنحراف :**

أو الخروج على مقتضى الظاهر ، إنّ العدول و الإنحراف مبدأ نظري له علاقة وطيدة بتقسيم الكلام بلاغيا إلى ضربين على اعتبار أنّ الضرب الأول هو الأليف و المرسل و الحقيقة ، فهو يمثل العبارة القياسية و القاعدة و المعيار ، بينما الضرب الثاني من الكلام هو الغريب و البديع و المجاز ، فهو يمثل التوسع في التعبير و الخروج عن المألوف ، و العدول عن المرسل من أجل الافتنان باللغة .

[1] - "المقدمة" \ ص 551

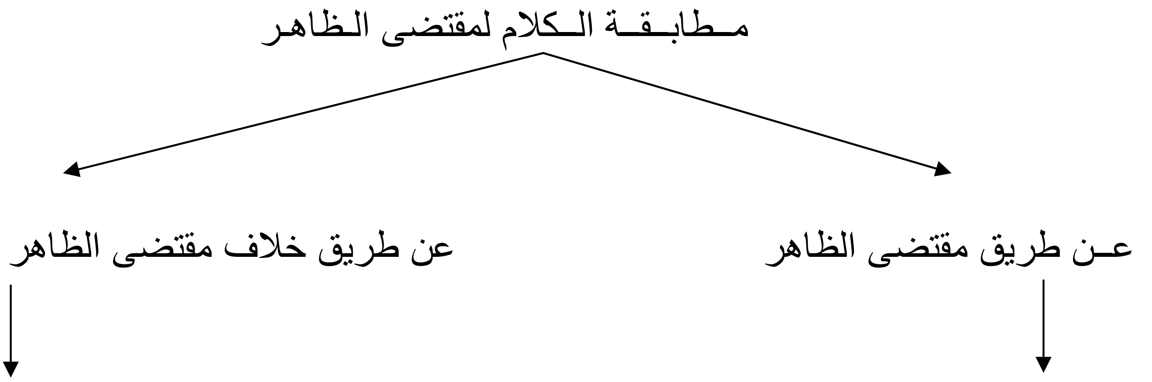
و قد طرق ابن جني مصطلح العدول طرقا صريحا ، و هو عنده بمعنى " الخروج من حالة يكون فيها إلى حالة أخرى مخالفة ."[1]

لقد عقد الجرجاني فصلا للحديث عن العدول ووظيفته الأدبية و الإنشائية , و هو العدول الذي يتم بطرق و مآخذ مختلفة منها الكناية و التعريض " حيث يتمّ العدول من إرادة صفة ما عن التصريح ، و الكلام المغسول إلى إرادة إثباتها من طريق يدقّ مسلكه ، و يلطف مأخذه و يعزّ مطلبه عن طريق الدلالة عليها بغيرها من الكلام المشحون ، الذي لا يقع إلاّ لفحول الشعراء و مصا قع الخطباء ."[2]

إنّ الجرجاني يعمّم ما شرحه من أدبية العدول بالكناية و ذلك ممّا جاء عن طريق الاتساع و العدول من الأساليب الأخرى التي أخرجت مخرجا مخالفا لمقتضى الظاهر ، فيقول :" كلّما كان فيه على الجملة مجاز و اتساع و عدول باللفظ عن الظاهر، فما من ضرب من هذه الضروب إلاّ و هو إذ وقع على الصواب و على ما ينبغي أوجب الفضل و المزية ، فإذا قلت : هو" كثير رماد القدر "كان له موقع و حظّ من القبول ، لا يكون إذا قلت : " هو كثير القرى و الضيافة " ، و كذا إذا قلت :" هو طويل النجاد " كان له تأثير في النفس لا يكون إذا قلت هو :" هو طويل القامة ".[3]

إنّ العدول و الإنحراف من المصطلحات المتداولة التي تغني مثل ما يغنيه **الإ نزياح** في الدرس الأسلوبي وهو خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وذلك من أجل إنتاج الدلالة الثانوية أومعنى المعنى وبمستويات خاصة .

*** نظرية المطا بقــة ***



[1] - "ابن جنّي" \ الخصائص ص 443
[2] - "الجرجاني" " دلائل الإعجاز" \ ص 400
[3] - نفسه \ ص400

المعيـــار ← كـلام تواصلي نفعي

عدول عن المعيار ← كلام فني ـ بلاغي أسلوبي جمالي ← مستويات العـدول على خلاف مقتضى الظاهر

- 1- المستوى الاستبدالي
- 2- المستوى التركيبي

} الجرجاني

- 3- المستوى الصرفي
- 4- المستوى الصوتي (الإيقاعي)

} ابن الأثيـــر

- 5- المستوى السياقي
- 6- مستوى التناص
- 7- مستوى الترقيم

} الأسلوبـــيـــة

*** مبدأ الدلالة الـتركيـبيـــة:**

يؤكّد ابن خلدون هذا المبدأ في فصله الخاص بعلم البيان بمصطلح **المسند و المسند إليه** و التمييز بينهما " هذه المسندات و المسند إليها أحوال للمتخاطبين ، إذا حصلت للمتكلّم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه ... و إذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب ، فإنّ كلامهم واسع ، و لكلّ مقام عندهم مقال ."[1] و يضرب لذلك أمثلة و شواهد عن التقديم و التأخير و حقّه من الدلالة اللغوية و البلاغية " ألا ترى معـــي أنّ قولهم (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) و هو من قبيل التقديم و التأخير، فالمتقدّم منهما هو الأهم عند المتكلّم ، فمن قال

[1] - "المقدمة" \ ص 551

(جاءني زيد)أفاد أنّ اهتمامه بالمجيء قبل الشخص ـ المسند إليه ـ و من قال (زيد جاءني) أفاد أنّ اهتمامه بالشخص قبل المجيء ـ المسند ـ " [1]

هذا التخصيص هو معنى من معاني النحو التي يؤكّدها الجرجاني في نظريته للنظم حيث العدول الإنزياح ففي قوله تعالى :" فريقا كذبّوا و فريقا يقتلون "[2] ففي هذه الآية تقدّم المفعول به و تأخر كل من الفعل والفاع (المسند و المسند إليه) و بذلك إفادة معنى الشمول .

وهكذا فابن خلدون لم يكن في غفلة عمّا كان عليه سابقوه من أمر النظم سواء عند الجاحظ في كتابه المفقود " نظم القرآن " أو عند الجرجاني في نظرية النظم من خلال كتابه " دلائل الإعجاز " الذي لم يصرح به ابن خلدون في مقدمته مثل ما صرّح بمصادر و كتب بلاغية و نحوية و لغوية الفراهيدي في علم اللغة و سيبويه في علم النحو ، و أشار على العموم بجهود الأقدمين :" لأنّ الأقدمين أوّل من تكلموا فيه ـ يعني ـ علم البيان ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، فكتب فيها جعفر بن يحيى و الجاحظ و قدامة ...ثمّ لم تزل مسائل الفن شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته و هذّب مسائله و رتّب أبوابه على نحوما ذكرناه آنفا من الترتيب"[3]

يرى ابن خلدون أنّ المشارقة هم أقدر في هذا الفن و أقوم كمالا و عمرانا :" فالمشارقة على هذا الفن أقوممن المغاربة و سببه ـ و الله أعلم ـ أنّه كماليّ في العلوم اللسانية و الصنائع الكمالية توجد في وفور العمران و المشرق أوفر عمرانا من المغرب" .

أمّا المغاربة فقد نسب إليهم الصنف الثالث من البيان و هو علم البديع :" و إنّما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة ، و جعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، و فرّعوا له ألقابا و عدّدوا أبوابا ونوّعوا أنواعا ... ثم زعموا أنّهم أحصوه في لسان العرب ، و إنّما حملهم على ذلك الولوع في تزيين الألفاظ ...و إنّ علم الألفاظ سهل المأخذ، و صعبت عليهم مآخذ البلاغة و البيان لدقة أنظارها و غموض معانيها فتجافوا عنه ،فمن ألّف في البديع من أهل

---
[1] ـ نفس المرجع
[2] ـ لآية 70 من سورة المائدة
[3] ـ نفس المصدر \ ص 552

إفريقية ابن رشيق القيرواني و كتاب العمدة له مشهور، و جرى كثير من أهل إفريقية و الأندلس على منحاه "[1]

هذا نص ابن خلدون كاملا ، الملاحظ أنّه يعيب على أهل زمانه من الذين تشدّقوا بالبديع و حسبوه من ا لكلام البيّن الجيّد ، و هي سمة أكثر المؤلفين في عهده كما يصرّح بذلك العديد من الباحثين .

*** مفهــوم الـبيـان عنــد الجـاحـظ :**

هناك دلالات متعددة للفظة البيان عند الجاحظ :" البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى حتى يفضي السامع إلى حقيقته "[2] ثم يفسّر ذلك بقوله :" البيان بصر و البيان من نتاج العلم " ثم هو يستشهد بقول سهل بن هارون القائل :" العقل رائد الروح و العلم رائد العقل و البيان ترجمان العلم "ثمّ إنّ أحسن الكلام كما هو معلوم عند الجاحظ :" ما كان قليله يغنيك عن كثيره "

يستدلّ الجاحظ بشواهد غيره على اعتبار أنّه مؤسس المدرسة البيانية الجمالية ، فكان لابد أن يلتفت إلى آراء البيانيين من الذين سبقوه و يتتبّع معاني البلاغة بأنواعها و خصائصها و كيف تأتي لغير العارفين بها أن يتقنوها و يتذوقوها :" فالفارسي يقول عن البلاغة إنّها معرفة الفصل من الوصل و يقول اليوناني أنّها تصحيح الأقسام و اختيار الكلام ، و يقول الرومي أنّها

حسن الاقتضاب عند البداهة و الغزارة يوم الإطالة ، و يقول الهندي أنّها وضوح الدلالة و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة "[3]

*** البيـان و عـلم الـدلالــــة :**

أمّا علم الدلالة فقد جعله ابن خلدون الصنف الثاني من علم البيان ، و هو المبحث المتعلق باللازم اللفظي و ملزومه في الإستعارة و الكناية .إنّ البلاغيين عرفوا البيان بأنّه إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة معمطابقة كلّ منهما لمقتضى الحال ، أي أنّ المعنى الواحد للفظ المفرد الواحد.

---

[1] - نفس المصدر \ ص 552

[2] - "الجاحظ" " البيان و التبيين "\ ص 54-55

[3] - " عباس أرحيلة " \" الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة " ص283

إذن فالعلاقة ـ في علم البيان ـ قائمة بين اللفظ و دلالته على المعنى ، هذا المعنى يختلف و يتباين و يتبع ذلك اللفظ و يتباين ، فمن يدرس موضوعات علم الدلالة لا يستطيع أن يغفل أمثال هذه الألوان البلاغية الاستعارة و الكناية ، التشبيه ، التورية و المجاز :" إذ هي من العوامل المؤدية لتبدلات المعنى و انزلاقـه "[1]

فمن يعالج موضوعات علم الدلالة ، لا يستطيع أن يغفل أمثال هذه الألوان البلاغية خاصّة في البيان و البديع لابدّ أن يتعامل معها من خلال منظور علم الدلالة ، بخاصة تلك الألوان القائمة على تبدلات المعنى و تغيّره ، " بشرط الإلمام بماهية المحدد الدلالي حتى تستطيع أن تصل إلى الدلالة السياقية المرادة من الصورة البيانية أو البديعية"[2] ، إذا ارتبطت كلّ كلمة بسياقها الذي يمنحها معناها الذي هي عليه ، فمثلا الفعل (رغبت في كذا) تختلف عن الفعل (رغبت عن كذا) ، فقد تكون الكلمة على سبيل الحقيقة ، كما قد تخرج على سبيل المجاز .

*** المقـــام والمقال و علاقتهما بدلالة المعنى :**

قال ابن خلدون في هذا الصدد:"إنّ كلامهم واسع ولكلّ مقام مقال يختصّ به بعد الإعراب و الإبانة"[3] أمّا **المقام :**فهو ذلك الموقف الذي يتطلّب نوعا من الألفاظ تجاوزت بطريقة معينة ، كما تفي بالمراد ، كما قد يتمثل في الأحداث أو الظروف الاجتماعية التي تبين وقت أداء المقال.

أماّ المعنى المقامي ، فهو المعنى الذي يتكون من ظروف أداء المقال بمحددات دلالية معينة ما تعرف باسم المقال.

*** الوسائل البلاغية لتبدلات المعنى :**

1- الاستعارة : هي إحدى وسائل تبدلات المعنى وفق نظرية موافقة المقال للمقام ، حيث تؤدّي دورا أساسيا ، فقد يستعار لمقام مقال مشابه ، ذاع و اشتهر ، فالأمثال تؤدّي هذا الدور بجلاء و وضوح ، فقولهم " قطعت جهيزة قول كلّ خطيب " فهي من الاستعارة التمثيلية التي لها مضربها و موردها أو " إنّك لا تجني من الشوك العنب " ، فكلّما قويت المشابهة بين المقامين كان التعبير أقوى و أدلّ و بهذا يصير المقام القديم من المقام الجديد.

وقد تختلف الدلالة لجملة واحدة من مقام لآخر عن طريق المحددات الدلالية التي يسوغها المقام نفسه، كانت لفظية أو معنوية نابعة من النغمة المصاحبة لنطق الجملة فمثال حرف النداء "يا" إذا

---

[1] - " عبد الواحد حسن الشيخ " \" العلاقات الدلالية و التراث البلاغي " \ ص 101

[2] - نفس المرجع \ ص 102

[3] - "المقدمة" \ ص 551 فصل الخاص بعلم البيان .

سبق لفظ " سلام " يختلف المعنى الدلالي ، فمن الممكن أن تقال في مقام التأثر ، أو في مقام التشكيك أو في مقام السخط أو في مقام الطرب أو في مقام التوبيخ أو الإعجاب أو التلذذ ...و غيرها من المقامات الأخرى .

و من ثمّ فلا غنى للبلاغة عن الدلالة و لاغنى للدلالة عن البلاغة " فالقاسم المشترك بينهما هو التبدل أو التغيّر الدلالي "[1]

-2- الكناية : هي أحد تبدلات المعنى من حيث نظرية لكلّ مقام مقال بالمفهوم الدلالي . أمّا رأي ابن خلدون في هذا المجال يستدّل بقوله :" و قد تريد باللفظ المركّب الدلالة على ملزومه كما تقول (زيد كثير رماد القدور)

ـ أو كثير الرماد ـ فتريد ما لزم ذلك عنه من الجود و قرى الضيف ، لأنّ كثرة الرماد ناشئة عنها ، فهي دالّة عنهما "[2] على سبيل الكناية " و هذه كلّها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد و المركّب كلّ بحسب ما يقتضيه مقامه "[3]

فالكناية كما يراها **بيار جيرو Pierre Jirot** :" كالمجاز المرسل قائمة على انتقال الإسم عبر تجاوز المعنى ، و قوام هذا الانتقال أن يعنى الجزء على أنّه الكلّ ، و هذا التجاوز

قد يكون مكانيا " و يقصد بذلك العلاقات التي أفرد لها البلاغيون في تعريفاتهم للمجاز و الكناية."

أمّا" **ليتـش**" ملخّصا العلاقة بين علم الدلالة و علوم كثيرة " السمانتيك Semantique ، نقطة التقاء لأنواع من التفكير و المناهج و إن اختلفت اهتمامات كلّ لاختلاف نقطة البداية "[4]

ينتهي ابن خلدون إلى أنّ ثمرة هذا الفن و يقصد به علم البيان :" إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن ، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه لجميع مقتضيات الأحوال منطوقة و مفهومة ، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال "[5] ، أمّا مسألة الإعجاز فقد كان لها عظيم الأثر في البلاغة العربية إذ شغلت مآثر العلماء و اللغويين و البلاغيين على اختلاف اتجاهاتهم و مذاهبهم على مرّ العصور ، فوقفوا مبهورين و لذا كانت البلاغة " أحق العلوم للتعلّم و أولاها لتحفظ بعد

---

[1] - " العلاقات الدلالية " \ ص 53
[2] - " المقدمة" \ ص 551 \ (كثير رماد القدر) هو نفس المثال الذي استدلّ به الجرجاني في "دلائل الإعجاز"\ ص 400
[3] - نفس المصدر \ ص 551
[4] - "ليتش و بيار جيرو " لم أجد لهما شيئا من التعريف أو الترجمة \ ينظر " علم الدلالة "
[5] - نفس المصدر \ ص 553

معرفة الله جلّ شأنه ، لأنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة و أخلى بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله من حسن التأليف و براعة التركيب والإيجاز البديع[1]

نخلص ممّا سبق أنّ ابن خلدون في هذا المضمار ـ علم البيان ـ إنّما كانت تعريفاته تقليدية ـ لا أكثر ـ جامدة على حدّ قول أحمد مختار في كتابه : علم الدلالة ، عبارة عن لائحة وصفية تشبه في ذلك قواعد النحو.

ومهما يكن من نتيجة أو رأي فقد كان ابن خلدون أمينا و حريصا في وصفه وانتقاءه للتعريفات التي توافق نظرته من تلك المصادر البلاغية المشرقية المشار إليها في طيّات التعريف بعلم البيان ، إذ هو يشيد بتلك الجهود التي يعتبرها ابن خلدون من الصنائع الكمالية التي تميز بها المشارقة الأقدمون .

* رابعا علم الأدب:

أمّا علم الأدب ، فهو ثمرة من ثمار اللسان كما يؤكّد ذلك ابن خلدون :" المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته "[2] ، هذه الثمرة بشقيها الشعري و النثري .

من المفاهيم التي يسوقها ابن خلدون حول الأدب قول العرب "إنّ الأدب هو حفظ أشعار العرب و أخبارها "[3] ثمّ يشير إلى ذلك التعريف الشائع " هو الأخذ من كلّ علم بطرف "

للإشارة ، إنّ الحجم الذي يفرده ابن خلدون في هذا الفصل ـ علم الأدب ـ بالنظر إلى علوم اللسان السابقة ، فصل لا يتعدى الاثنين و العشرين (22) سطرا ، لخصوصية كلّ فصل و علاقته بسابقه ، و مع هذا قد كانت ملاحظاته و توضيحاته موجزة و دالّة .

1 ـ نفس المصدر \ ص553
2 ـ " المقدمة " \ ص 553
3 ـ نفس المصدر \ ص 554

إذ يلخّص ابن خلدون أصول فن الأدب في أربعة دواوين أو مصادر و هي **" أدب الكاتب " لابن قتيبة** و كتاب **:" الكامل"للمبرّد و " البيان و التبيين" للجاحظ و** كتاب **" النوادر " لأبي علي القالي** ، ثم يتبعها فيما بعد كتاب **" الأغاني " لأبي الفرج الإصفهاني .**

إنّ ابن خلدون لم يدرس في المقدمة الشعر و الأدب موضوعا منفصلا كما هو الحال في كتب الأدب ، درسه مرتبطا بعلم العمران ، فهو جزء من كلّ ، كما تحدّث عن السياسة و الاقتصاد و قيام الدول و سقوطها ، و تحدّث عن الأمور الضرورية كالصنائع و الفلسفة ... فالأدب ضروري في العمران البشري .

الأدب في مفهومه ، كلام العرب من شعر و لغة و نحو و أيّام العرب بأشعارهم و أنسابهم و أخبارهم ، ممّا هو مبثوث في أمّهات الكتب التي مثّل بها كالأغاني و الكامل . و...غيرها ممّا أقرّه في قوله :" و سمعنا شيوخنا في مجالس التعليمأنّ أصول هذا الفن و أركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة و كتاب الكامل للمبرّد و كتاب البيان و التبيين للجاحظ و كتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، و ما سوى هذه الأربعة فتبع لها و فروع ."[1]

*** قـراءة فـي الأصـول الأربـعـة :**

أولاً - **أدب الكاتب لابن قتيبة :**و هو أوّل دواوين الأدب المصنفّة لدى ابن خلدون :" سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفن أربعة دواوين : أدب الكاتب لابن قتيبة ...."[2] .

" ابن قتيبة قرين الجاحظ في الثقافة و شمولها و ندّه في الذود عن مبادئه و النضال دونها "[3] ، كان ابن قتيبة فيما يقول ابن النديم " عالما باللغة و النحو و التأليف و غريب القرآن و معانيه و الشعر و الفقه ، كثيـر التصنيف و التأليف "[4] ، تواقا منذ صغره أن يكون أديبا ،

[1] - نفسه \ ص 554
[2] - المقدمة \ ص 554
[3] - "ابن خلكان" " وفيات الأعيان " \ ص 142 \ج \ 2
[4] - نفس المصدر\ ص 143 \ ج \ 3

بمفهوم الأدب على أيامه فهو القائل :" كنت في عنفوان الشباب و تطلب الآداب ، أحبّ أن أتعلق من كلّ علم بسبب و أن أضرب فيه بسهم "[1]

*** دواعي التألـيـف :**

ليس هناك أدلّ على التأليف من شهادة صاحبه و تصريحه به ، جاء في مقدمة كتابه : " إنّي رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين و لأهله كارهين ... ثمّ رأيت من كتّاب زماننا كسائر أهله استوطؤوا مركب العجز، أعفوا أنفسهم من كدّ النظر و قلوبهم من تعب التفكير ، فعملت لمغفل التأديب كتبا خفافا في المعرفة و في تقويم اللسان ... يشمل كلّ كتاب منها على فن ، و أعفيته من التطويل و التثقيل "[2]

- شروط الكتابة:

لقد وضع ابن قتيبة في " أدبه " شروطا للكاتب حتى يؤدّي مهامه على الوجه الأكمل نجملهـــا:

– يشترط على الكاتب نفسه قبل الكتابة أن يكون على دراية بأمور اللغة و الإعراب و الفقه ، و حتى بعض العلوم الحسابية ـ على حدّ القاعدة المشهورة ـ " الأخذ من كلّ علم بطرف ".

ـ أمّا الكتابة فتكون :

ـ بعيدة عن وحشي الغريب

ـ سليمة من اللحن

ـ تجنب التقعير ، و هو الإغراب و التشدّق في الكلام ، حيث يستدلّ بقوله عليه الصلاة و السلام :"؛ إنّ أبغضكم إليّ و أبعدكم منّي مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون المتفيقهون ،قالوا: يا رسول الله و ما المتفيهقون ؟ قال: المتكبّرون "ينظرالعهودالمحمدية للإمام الشعراني \ ص 602 ط\ دار صادر2004

ـ ثمّ جمع الكثير ممّا تريد في القليل ممّا تقول ، و يقصد به الإيجاز ـ على قدر ماهو محمود.

[1] ـ نفس المصدر

[2] ـ "ابن قتيبة" " أدب الكاتب " \ ص

أمّا شروط الكاتب فهي القاعدة المعمول بها آنذاك ، حيث ظلّت إلى عهد بعيد ، الفقه و علوم القرآن ، بالدرجة الأولى فهي المنابع و الأصول الأولى التي يستقي منها المتعلّمون أوّ لا و ينهلون من مبادئها ثمّ تليها علوم العربية من لغة و أشعار و غيرها ليستقيم اللسان و تجدر الكتابة .

و من أراد أن يكون أديبا " فليتسع في العلوم "، يقول ابن قتيبة عن نفسه مصرّحا أنّه قرأ التوراة و الإنجيل و اقتبس منهما ، كما قرأ في كتب العجم و الهند و اليونان، وأخذ بحظّ وافر من النزاع العقيدي الذي لفّ عصره هذا العلم الواسع أكسبه ورعا و تواضعا ، فكان حسن العشرة ، موطّأ الأ كناف ، مع اعتداد بالنفس ، فلم يؤثر أنّه تعلّق بأحد من أصحاب الجاه أو السلطان ، و الصلة الوحيدة التي تعرف عنه حسب المصادر التي تحدثت عنه ، هي صداقته للوزير " أبي الحسن عبيد الله بن يحي ابن خاقان ، وزير المتوكّل وابنه المعتمد الذي أهدى إليه هذا الكتاب **" أدب الكاتب"**[1]

لقد بلغت قيمة هذا المؤلّف صدى بعيدا على غرار مؤلفاته الأخرى ، فقد كانت صورة صادقة لثقافته تشمل أغلب معارف عصره ، لقد أورد **ابن خير الإشبيلي** في " فهرسته" عمّا

رواه عن شيوخه " كتب ابن قتيبة الأوسع انتشارا في وطنه **الأندلس** ، فذكر منها : الأنواء ، و المعارف ، و الشعر والشعراء ،وعيون الأخبار و أدب الكاتب ."[2]

هذا ما أكّده ابن خلدون سابقا ، بهذه المنزلة، و بهذه القيمة، حظي هذا الكتاب في المشرق والمغرب حتى جعله في مصاف الدواوين الأربعة و في المرتبة الأولى .

ثـانيا ـ **الكامل للمبـــرّد :** و هو ثاني أصل من الأصول أو الدواوين المصنفة لعلم الأدب في مقدمة ابن خلدون .

كان " الكامل "آخر ما ألّف المبرّد من كتبه ، و قد أوجز في مقدّمة الكتاب مادّته و المنهج الذي سيسير عليه ، حيث يقول :" هذا كتاب ألّفناه ، يجمع ضروبا من الآداب ، ما بين

---

[1] - "ابن قتيبة " : هو أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ولد في بغداد أو الكوفة ـ على خلاف ذلك ـ عام 213 هـ = 828 م ، لأب فارسي أصله من "مرو" و قليل ما ذكر عن أبيه في المصادر شيئا ، و التعليل القريب أنّه لم يكن ذا شأن اجتماعي أو سياسي .
\ ينظر "وفيات الأعيان" ، و " دراسة في مصادر الأدب " ت \ د. الطاهر أحمد مكّي \ ص 216

[2] - "أحمد مكّي" " دراسة في مصادر الأدب" ص 216- 217

كلام منثور ، و شعر موصوف ، ومثل سائر ، و موعظة بالغة و اختيار من خطبة شريفة و رسالة بليغة "[1]

أمّا عن الإشارة للمنهج و الغاية من هذا التأليف فقد كانت على سبيل الشرح و التفسير كلّ ما غمض من كلام غريب أو معاني مبهمة "و النية أن نفسّر كلّ ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق و أن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا "[2]

يميل كتاب "الكامل " إلى طابع العصر الذي ألّف فيه ، فهو يميل إلى الاستطراد ، و ينتقل من قضية إلى أخرى و أنّ دوره في النصوص الأدبية تعدّى الجمع و الاختيار إلى الشرح اللغوي و التصويب النحوي ، و تتبع دلالات اللفظ الواحد في وجوهها المختلفة عند جمهور الأدباء ، على غرار ما عند الجاحظ الذي تجد عنده ألوانا من الثقافات الأجنبية أيا كان مصدرها ، هذا ما لم ينحه المبرّد ، " فقد كانت ثقافته أزدية يمنية فيما يقول الرواة "[3]

* منـهـج الـمبـرد في الكامل :

ـ التوسط والاعتدال،هما السّمة الغالبة على نهج المبرد في كامله،إذ تجده ملتزما بالحياد إزاء نقله للصراعات ، و لم تقتصر تعليقات المبرد على النحو و إنّما تعدّتها إلى مسائل البلاغة ، فتحدّث عن الكناية و أقسامها و المجازو أنواعه،و الإستعارة،و عقد بابا منفصلا للتشبيه :

"إنّ العرب تشبّه على أربعة أضرب : تشبيه مفرط ، و تشبيه مصيب و تشبيه مقارب ، و تشبيه بعيد يحتاج إلى تفسير و لا يقوم بنفسه و هو أخشن الكلام "[4]

ـ الموقف المحايد و الابتعاد عن التحيز في المسائل السياسية و الخصومات التي شهدتها الأمّة الإسلامية فلم يشارك فيها بنقد أو برأي ، فلم يضمّن شيئا عن الخلافات التي دارت بين علّي و معاوية ـ رضي الله عنهماـ فقط ما أورده من كتاب وجّهه معاوية إلى علّي رضي الله عنهما يتضمن نقدا لطيفا .

محدودية النقد :

[1] ـ " المبرد" هو أبو العباس محمد بن عبد الأكبر ، أزدي يمني ، ولد بالبصرة 210 هـ ، قرأ لسيبويه ، تلقّى عن ابن حاتم السجستاني، كان غزير الحفظ ، كثير النوادر ، كان على صلة بالجاحظ ، تتلمذ عليه و على علماء آخرين مثل الزجاج ، الأخفش \ ينظر معجم الأدباء.

[2] ـ " المبرد" \ " الكامل" ص 3

[3] ـ "أحمد مكّي" "دراسة ف مصادر الأدب" \ص 192

[4] ـ نفس المصدر ج 2

أمّا عن هذا المجال ، يكاد أغلب الدّارسين لهذا المصدر أن يجمعوا على أنّ المجال **الفنّي أو النقد الجمالي** لم يحظ الكتاب منه بشيء ، فهو راوية شعر و مفسّر لغوياته ، معرب لكلماته ، محلّل لجمله ، و لا يتعرض بعدها لتحليل ظاهرة شعرية أو تفسير أو ردّ أسباب في مسائل نقدية فنية ،إن أبدى رأيه ، ففي إيجاز لا يتعدى تقديم البيت أو القصيدة و بعبارة "و هذا ممّا يستحسن لفظه و يستغرب معناه و يحمد اختصاره."

* قــيــمـــة المـــؤلـــف:

لقد حظي " الكامل " بتبجيل و تقدير العلماء ، مشرقهم و مغربهم ، و حذا حذوه الكثير من المؤلفين :" فقد عارضه " إبراهيم بن ماهويه "الفارسي بكتاب سمّاه " الكامل " و ألّف" أبوا لفتح المراغي" كتاب " البهجة على الكامل" ، أمّا آخرون فقد تتبعوا أغاليطه و سقطاته ، فقد ألّف أبو القاسم علي بن حمزة البصري كتابه " الشبهات على أغاليط الرواة" تتصل بالنحو و التاريخ و نسبة الشعراء ."[1]

أمّا الأندلسيون و المغاربة فقد صادف الكتاب هوى في نفوسهم ، فأقبلوا على مدارسته ، و عنوا بشرحه

و تبويبه و تصنيفه ، :"في نهاية القرن السابع الهجري أحسّ أمير مغربي وهو أبو زكريا بن أبي محمد بن أبي جعفر بما في الكتاب من فوضى ، فتعهّد به إلى علماء مغاربة ، فرتبوا مادته و هذبوه و جعلوه في أربعين بابا."[2]، و بهذا القدر و الشأن كان لابن خلدون الحقّ أن يجعله في صدارة الكتب الأربعة لعلم الأدب .

* الكتاب معرض لطيف بألوان من اللغة و النحو و الصرف ، يقول في تفسير ما غمض في قول الطرمّاح:

و أخرج أمّه لسواس سلـــمــى *** لمعفور الضرا ضرم الجنين

ـ يقول " ضرم الجنين ـ يقول ـ مشتعل و الجنين ما لم يظهر بعد و يقال للقبر جنن و الجنين الذي في بطن أمّه ..."[3]

---

[1] - "أحمد مكّي" " دراسة في مصادر الأدب " \ ص 164

[2] - نفس المرجع\ ص 164 - 165

[3] - نفسه

ثمّ هو يورد بعض الأمثال و الحكم مستقصيا وجه إعرابها على نحوما يرتضيه من وجوه الإعراب المختلفة فهو يجري على " سنن المدرسة البصرية التي تعتمد القياس سنّة و مذهبا في اللغة و النحو "[1]

إنّه لا يسع المقام هنا أن نورد منتخبات من " الكامل " لأنّها ليست الغاية المنشودة لهذا البحث، و إنّما كان بهدف التعريف بصفة عامة بما أنّه ذكر كمصدر أساسي من مصادر الأدب خاصة .

ثا لـثـا ـ البيـان و التبـيين للجاحظ:

و هو ثالث مصدر من المصادر الأدبية التي يشير إليها ابن خلدون في فصل علم الأدب .على قدر ما لهذا الكتاب من شهرة و مجد أدبي ، يبقى " البيان و التبيين " المعمار الفني و الجمالي الذي أقامه رجل فنان ، رجل مسلم وجد ربّه يمدح البيان<< " الرحمن * علّم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان">> و يحثّ عليه وبذلك نطق القرآن .

ألّف الجاحظ البيان و التبيين في أخريات حياته حيث علّت به السن و قعد به المرض " و طبقا لرواية ياقوت الحموي ، أنّه كان لدى الناس في عصره نسختان من الكتاب ، الثانية منهما أصحّ و أجود "[2]

* ـ منـهج الجـاحظ في البيان و التبيين :

لقد دأب الجاحظ في البيان و التبيين و غيره من مؤلفاته دأب **الخبر و الاستطراد** ، فهو لا يكاد يتمّ فكرة أو ينقل خبرا ليدخل في قضية أخرى ثمّ يعود إلى ما سلف معتذرا تارة أو مستندا أو مستشهدا أخرى ، يقول في هذا الشأن :"كان في الحقّ أن يكون هذا الباب في أوّل الكتاب و لكنّا أخّرناه لبعض التدبير "[3]

ـ أمّا **الخبر**، فهو ما كان ملائما لمادة النص العلمية و الأدبية كأن يحددّ مفهوما ما من مفاهيم البيان أو البلاغة مفيضا و شارحا ، و مفسرّا .

ـ أمّا **الاستطراد:** فغالبا ما يكون بنقل الأخبار بشواهد منظومة و منثورة ، أو أقوال تتنوع مصادرها و منابعها متحريّا نسبتها.

---

[1] - نفسه
[2] - نفس المرجع \ ص 166 \ ينظر معجم الأدباء
[3] - عبارة من البيان و التبيين أو ما يشابهها تجدها تتكرر في كتب الجاحظ

ـ **الطرافة :** أوكما يسميها البعض اللمسة الجاحظية التي أضفت على مؤلّفات الجاحظ سمة خاصة ،إذا تجرّدت منها أضحت مادّة علمية و أدبية جامدة جوفاء ، ونقصد باللمسة ، تلك الطرائف من النوادر المصنوعة تارة من نسج خياله المبدع ، أو هي مواقف حقيقية استقاها من واقعه المعاش بكلّ أحواله و تناقضا ته ...

*** قيمة المؤلّــــف:**

يقول "علي جواد **الطاهر**" (2) أنّ كتاب البيان و التبيين يمكّن الباحث أن يستخلص منه مادة أدبية في موضوع البلاغة .

أمّا المبّرد في كتابه " الكامل" يصف الجاحظ " كان الجاحظ نابغة عصره و كلّ عصر ، و يحكي أنّ ثابت بن مرّة العالم المشهور أنّه قال :" ما أحسد هذه الأمّة إلاّ على ثلاثة أنفس :أوّلهم عمر بن الخطّاب، و الثاني الحسن البصري ، و الثالث أبو عثمان الجاحظ "[1]

أمّا ابن قتيبة فكان من المعترفين بعلمه و الضائقين بمنهجه يقول:" فهو آخر المتكلمين ... و أحسنهم للحجة استثارة و أشدّهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، و تصغير العظيم حتى يصغر، و تجده يقصد المضاحيك و العبث... و هو مع هذا من أكذب الأمّة و أوضعهم لحديث ، و أنصرهم لباطل "[2]

و قد قرنه **"آدم مـتـز"** في كتابه " عصر النهضة في الإسلام " بـ **فولتــيـر Voltaire** أديب فرنسا الكبير في القرن الثامن عشر ميلادي .

والجاحظ عند **كراتشوفسكي**يرى أن الجاحظ أوّل من تناول مسائل النظرية الأدبية قبل عصر ابن المعتز[3]

و لا تزال بلاغة و بيان الجاحظ مفتوحة على الدراسات اللسانية و البلاغية الحديثة .

و هكذا قدّم الجاحظ بمؤلّفه الفائدة العظيمة للكثير من الذين جاءوا بعده ،<< " فنقل عنه ابن قتيبة في " عيون الأخبار"، و المبرّد في " الكامل" ، وابن عبد ربّه في "العقد الفريد" ، و الحصري في " زهرة الآداب" و ابن رشيق في " العمدة " >>[1]

[1] - الكامل/
[2] - "ابن قتيبة" \ " عيون الأخبار" نقلا عن المرجع السابق " دراسة في مصادر الأدب "
[3] - "عباس أرحيلة" \ الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة" ص 285

فلهذا جعل المصدر الثالث من مصادر الأدب ، و بذلت الجهود في تحقيقه إلى أن قام الباحث و المحقق الكبير **عبد السلام هارون** بتحقيقه و ضبط نسخه مستخدما المناهج الحديثة في الضبط و التحقيق .

رابعا ـ كتاب النوادر لأبي علّي القالي :

إنّه رابع الكتب المصنّفة للأدب عند ابن خلدون ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك :" ... و كتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، و ما سوى هذه الأربعة فتبع لها و فروع عنها "[2]

حينما قدم أبو علي القالي إلى المغرب " سنة 328هـ ، ثم إلى الأندلس سنة 330 هـ فاستوطن قرطبة ، فنشر بها علمه ، و ألّف فيها أكثر كتبه و في طليعتها " الأ مالي و النوادر " .[3] وجد أبو علي الحياة الكريمة الهنيئة في ظلّ ملوك الأندلس آنذاك ، يقول ياقوت الحموي :".. فوفد القالي إلى الغرب ـ يقصد المغرب ـ فأكرمه أهل المغرب و أفضلوا عليه ، و انقطع هناك بقية عمره ، و هناك أملى كتبه أكثرها عن ظهر قلب منها "الأ مالي و النوادر "[4]

* دواعي التأليف :

---

[1] ـ نفس المرجع \ ص 285
[2] ـ "المقدمة" \ ص 554
[3] ـ مقدمة النشر من كتاب " النوادر "
[4] ـ نفس المصدر

لندع أبوعلي القالي نفسه يصر ّح بمناسبة تأليفه قائلا ، بعد الثناء و المدح على أمير الأندلس ، عبد الرحمن الناصر ، أحد ملوك الأندلس أيّام الحكم الأموي ، الذي حظي عنده بالتكريم و التبجيل:" أمير المؤمنين حافظ المسلمين ، و قامع المشركين ابن عم خاتم النبيين عبد الرحمن ، محيي المكارم ، السراج الزاهر الذيءنصر الدّين و أعزّ المسلمين ..." ، ثم دعا له بالنصر و التأييد ، ثم راح يعترف بفضله عليه :"فتابعا لدي النعمة ، وواتراعليّ الإحسان "إلى أن صرّح بكتابه :" فأمللت هذا الكتاب بقرطبة و في المسجد الجامع بالزهراء المباركة "[1]

و هكذا جاء هذا الكتاب للمكانة التي حظي بها البغدادي في كنف عبد الرحمن و جزيل الكرم و العطاء ، فكان ذلك اعترافا منه بحسن الصنيع فراح يؤلّف نوادره و أماليه .

* مـادة الكـتاب و موضوعـاتـه :

جاء في مقدّمة الكتاب صورة عامة عن محتوى الكتاب :" أمللت هذا الكتاب بقرطبة في المسجد الجامع بالزهراء المباركة و أودعته فنونا من الأخبار و ضروبا من الأشعار ، و أنواعا من الأمثال ، و غرائب من اللغات ، على أننّي لم أذكر فيه بابا من اللغة إلاّ أشبعته و لا ضربا من الشعر إلاّ اخترته ، و لا فنّا من الخبر انتخلته ، ثمّ لم أخله من غريب اللفظ و حديث

الرسول عليه الصلاة و السلام على أنّي أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد ، و فسّرت فيه من الإشباع ما لم يفسّره بشر ..."[2] ، بهذه الصورة لخّص لنا أبو علي كتابه و المنهج الذي اتبّعه ، ثمّ لم يتوانى في الإشادة به .

* منـهـجـه فـي الـتـألـيـف :

لقد تصفحت الكتاب ، بعضه ، لا كلّه و لا جلّه ، وحاولت الوقوف عند محطّات ، فوجدته مليئا بالشواهد الشعرية و الأخبار و الحكم ، و بعد قراءة متأنية لما جاء فيه على العموم و من خلال مقدّمة الكتاب تبيّن مسلكه و منهجه بمميزات و خصائص معينة نجملها فيما يلي :

ـ حرص المؤلّ ّف على إيراد الأخبار بأسانيدها و رواياتها .

ـ إيراد الشواهد و الاستدلال عليها من كلام العرب و أشعارها .

ـ حرص المؤلف على تذليل الصعوبات ، بشرح ما غمض من الألفاظ الغريبة .

---

1 - " النوادر" ص 16

2 - " النوادر" أبو علي القالي" \ص 738

ـ إيراد الأ مثال العربية و الأقوال المأثورة باعتماده على أئمة اللغة و أعلامها ، **كالأصمعي، و الأنبا ري و...**

ـ اعتماده على أقوال مشايخه في إيراد الأخبار .

ـ الاستطراد في الروايات .

ـ تنوع مادة الكتاب ، من أخبار الأمراء و الخلفاء و بعض ما رآه من نوادر الحمقى و أخبار النساء ... مضمنا جملة من الفنون و العلوم الدينية ، كالتفسير و علم القراءات و سند الروايات في الأحاديث ، وطرائف الحكمة .

ـ بعض أخبار الغزل و العشق ...

قيل في هذا الكتاب :<< **كأنّك في بستان للفنون** >>

*** قيمة المؤلّف :**

جاء في معجم الأدباء عن ابن حزم قوله :" كتاب نوادر أبي علي القالي ، مبار لكتاب " الكامل الذي جعله المبرد ، و لئن كان **كتاب** أبي العباس أكثر نحوا و خبرا ،فإنّ كتاب أبي علي القالي أكثرلغة وشعرا"[1]

أمّا ما تعرّض له "البكري أبو عبيد " في كتابه " **التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه** " من تصحيح أغاليط القالي في بعض الظواهر اللغوية ، يقول البكري في هذا الشأن :"هذا كتاب نبهت فيه على أوهام أبي علي رحمه الله في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند، محتجّا على جميع ذلك بالشاهد والدليل" [2]

*** الأغـــــانـــــي:**

---

[1] - **"معجم الأدباء" ج1\ ص 304**
[2] - **" النوادر "ص 739**

لقد جعل ابن خلدون للأدب كتابا آخر لا يقلّ أهمية عمّا قبله من الكتب المشار إليها التي جعلها دواوين لعلم الأدب ، إنّه كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ، إلاّ أنّه لم يوليه رتبة كسابقه من الكتب الأربعة ، مثل أدب الكاتب و الكامل و البيان و التبيين و النوادر ، و لكنّه أشاد به :" فهو لعمري ديوان العرب و جامع أشتات المحاسن التي سلفت في كلّ فن من فنون الشعر و التاريخ والغناء و سائر الأحوال ... و لا يعدل بـــه كتاب فيما نعلمه ، و هو الغاية التي يسمو إليها الأديب و يقف عندها "[1]

<< **مكتـبـــة فــي كتـاب** >> ، تلكم هي مقولة اللجنة التي أشرف على تحقيق كتاب الأغاني في طبعته السادسة ، حيث جمع ما حضره و أمكنه من جمع للأغاني العربية قديمها و حديثها ، و نسب كلما ذكره منها إلى قائل شعره و صانع لحنه و طريقته من إيقاعه ، و تفسير غموضه مع علل إعرابه و أعاريض شعره .

*** منـهــج أبي الفرج في الأغاني :**

لقد بنى أبو الفرج مادّته في كتابه على **مـائة**صوت ، كانت على أيّام هارون الرّشيد ، ثمّ حدّد غرضه فــي الكتاب بنسب كلّ الأغاني إلى **قائل** شعره ثمّ صانع لحنه ، كما اشتمل الكتاب على أكثر أيّام العرب ووقائـعـهـم و غزواتهم و أخبار قبائلهم و أنسابهم وحتى

مياههم ، كما وصف البادية و ما لديهم من أخلاق و عادات ، ثمّ أزاح لنا الستار عن أنماط من الحياة ، فلولاه ـ كما قال د \ الطاهر مكي :" لولاه ما عرفنا عنها شيئا أو كان ما عرفناه محدودا لعصر كان أزهى عصور العربية لما هو طيّب أو خبيث على السواء "[2]

ـ سمة المنهج ، الشمولية و السعة مع نقد موضوعي إزاء المادة الذي تعرض لها فلم يكن << حاطب ليل يدو ّن كلّ شيء أو ليكتب كلّ ما يرويه >>[3]

ـ إيراد الأخبار مسندة برواياتها ، ثمّ يتبيّن وجه التناقض فيها ثمّ يرجع إلى رأيه .

يعتبر الأغاني من أولى المصادر في تاريخ الغناء العربي و أخبار المغنين و المغنيات في صدر الإسلام الدولة الأموية و الجانب الذي عاشه من دولة بني العباس .

---

[1] - "المقدمة " ص 554 \ أبوالفرج الإصفهاني ، ولد بأصفهان س\684هـ في بغداد س\356هـ 997م\ ينظر " وفيات الأعيان " ص 334.

[2] - " الطاهر مكي" دراسة في مصادرالأدب" \ ص 251

[3] - نفس المرجع ص 251

هذا الجانب الذي أحذ من الكتاب حجما جعل النقاد يؤاخذون أبا الفرج و ينتقدونه في منهجه في التأليف ، فأخباره على أهميتها تولي جانب الخلاعة و المجون قدرا مهمّا في عصر بغداد على أيّام الخلفاء العباسيين،

الأمر الذي جعل ابن خلدون يردّ في مقدّمته على ما ورد في الأغاني من مجالس الشرب على أيّام هارون الرشيد :"إنّما كان شرابهم النبيذ و لم يكن محظورا عندهم ، و أمّا السّكر فليس من شأنهم "[1]

*** قيـمـة الـمؤلـــف :**

للكتاب قيمته قديما و حديثا ، فالقدماء عرفوا قدره فأنزلوه منزلة خاصة ، يقول ياقوت الحموي :"لعمري إنّ هذا الكتاب لجليل القدر شائع الذكر ، جمّ الفوائد ، عظيم العلوم ، جامع بين الجدّ و الهزل "[2] ، و قيل أنّ الصاحب بن عباد " كان لا يفتأ يصطحب خزانة كتبه حتى كان الأغاني و كان يومه "[3] ، لقد حاول أحد الدارسين لكتاب الأغاني تجريده من الأصوات وأنواع النغم والإيقاعات التي لا فائدة من ذكرها " إنّه القاضي سالم بن نصر الله المعروف بابن واصل الحموي ، فاقتصر فيه على ذكر غرر الفوائد و دررها و شرح بعض الغامض "[4]

كما قام عالم مغربي يدعى ابن عبد الرحمن الأندلسي الفاسي استجابة لرغبة السلطان المغربي محمد بن عبد الله العلوي ، بتجديد نسخة من كتاب الأغاني ، أمّا المعاصرون ، فقد حاز الكتاب عندهم شهرة واسعة ، ونال أهمية بالغة " فقد نشر المستشرق الألماني **كوزاجرتن Kosegartene** (1792-1860)الجزء الأوّل بترجمته إلى اللغة الألمانية :

<< Ali spahanensis Libercantilenarun magnus >> [5]

وقد قام مستشرق إيطالي" قيدي" Guidi ، رفقة إيطاليين بعمل فهارس كاملة لكتاب الأغاني باللغة الفرنسية.

و أخيرا في عصرنا الحالي قام محمد الخضري باختصار الأغاني في سبعة أجزاء و نشرها في القاهرة عام 1965 تحت عنوان <<مهذّب الأخلاق >>[1] .

---

1 - **"ا لمقدمة" \ ص 300**
2 - **"ياقوت الحموي" معجم الأدباء" ص 13**
3 - **نفس المصدر \ الصاحب بن عباد :**
4 -
5 -

خاتمة الفصل الأوّل :

<< و نحن نرجع الآن بالتحقيق على الإجمال فيما تكلّمنا عليه من علوم اللسان ، والله الهادي للصواب>>[2]

بهذه العبارة التي ختم بها ابن خلدون فصل **علوم اللسان** ارتأيت أن تكون الشاهد القوي على خاتمة هذا الفصل الذي نحسب أنّنا أتينا على معظم نصوصه الأساسية بالتعريف و التخصيص ، و المتعلقة بعلم النحو و اللغة و البيان و الأدب ، و كلّها جاءت حلقات يرتبط بعضها في بعض متكاملة الأجزاء ، فلو أخذنا منها آخر حلقة و هي علم الأدب ، لم يكن للحلقات السابقة أوماقبلها من معنى و تكامل ، فلا يكون أدب إلاّ إذا روعي فيه الجانب البياني و اللغوي و النحوي .

[1] -

[2] - ''المقدمة''\ ص 554

لهذا لم يكن ترتيب ابن خلدون لهذه الفصول الخاصة بعلوم اللسان ترتيبا جزافيا اعتباطيا ، و إنّما على أسس علمية و استنتاجية مدروسة.

مثلما هو الحال **في مسألة الملكة** التي هي موضوع الفصل الثاني ، على اختلاف مظاهرها و أبعادها فهي ذات صلة وثيقة بسابقتها من علوم اللسان كما سيتبين لاحقا.

الفصل الثاني

مفهوم الملكة عند ابن خلدون

*الملكة في المعجم الخلدوني.
*من المنظور القديم و الحديث.
*سلامة اللّغة من سلامة عواملها.
*معوقات الملكة .
*منهج ابن خلدون التعليمي وعلاقته بالملكة.

*أولا ـ الـمـلـكـة فـي الـمـعـجـم

من المشاكل الأساسية التي تواجه الباحث اللساني العربي هو إعطاء مضمون محدّد و دقيق للملكة العربية و مصدرها .

و قبل الشروع في تحليل و مناقشة التصور العام للملكة عند ابن خلدون لا بأس من الوقوف بادئ ذي بدء عند الكلمة من حيث معجمها الخلد وني .

ـ الـمـلـكـة فـي الـمـعـجـم الـخـلـدونـي :

<<لكلّ خطاب معجمه الخاص >> **(1)** بحيث تكون مفردات معجم معين ملائمة للموضوع المطروق و بالتالي << يأخذ المعجم مشروعيته من حيث المنهجية التي تتحكّم فيه و من الغايات التي يتوخاها>> **(2)**

أمّا المعجم الخلد وني الذي نقصده نحن في هذا الفصل ، تلك التعريفات التي تشكّلت لدى ابن خلدون و كوّنت لديه شبه تحديدات نظرية خاصة بمسألة الملكة اللسانية .

1 ـأنّ الملكة صفة راسخة << هي القدرة على الفعل ، و هي صفة راسخة لا تحصل إلاّ بتكرار الأفعال >> **(1)**

2ـ الملكة لابد منها لامتلاك ناصية اللغة <<لأنّ اللغات كلّها شبيهة بالصناعة >> **(2)**

3 ـ الملكة سبب جودة المعاني أو قصورها << فالملكة التامة معناها القدرة على تركيب الألفاظ المفردة للتعبير عن المعاني المقصورة >> **(3)**

4 ـ السماع أصل الملكة << و لا تحصل هذه الملكة إلاّ بكثرة سماع لغة العرب الفصحاء و حفظ كلامهم ، فيصير لدى الإنسان الملكة بمعنى صفة راسخة فيكون كأحدهم >> **(4)**

5ـ الملكة تفسد بسبب المخالطة << و هذه الملكة تضيع أو تنقص بسبب مخالطة غير العرب و هذا معنى فساد اللسان العربي >> **(5)**

6 ـ تكسب الملكات بالإرتياض على كلام العرب << الملكات اللسانية تكسب بالصناعة و مخالطة العرب و هو معنى الإرتياض في كلامهم >> **(6)**

1-2-3-4-5-6- "المقدمة" ص\ 554 \ 554 \ 554 \ 555 \ 555 \ 568

يرى ابن خلدون أنّ اللغة ، هي إحدى مظاهر الاجتماع البشري فهي فعل يعود إلى اللسان وهذه هي طبيعته وأنّه صناعة لسانية تكتسب بالسماع ومران و الدربة ، و يتدرج هذا الاكتساب من الصفة إلى الحال إلى **الملكة** ، و هذا أساسه و إنّ لهذه الملكة **قوانين** تحكمها في تحصيلها و إجادتها و تصورها ، و بهذا القوانين نفسها حددّ مدى فائدة العلوم اللسانية .

ولذلك سنحاول استقراء ما جاء في نصوص ابن خلدون من آراء تلخّص مفهومه للملكة اللسانية و ما مدى تأثيرها على اللسان العربي .

يقدّم ابن خلدون تصوره العام لهذه الملكة من ناحيتين ، من ناحية الألفاظ المركبة والألفاظ المفردة إذ يرى ابن خلدون أنّ تمام الملكة اللسانية إنّما هو بالتراكيب اللغوية لا بالنظر إلى المفردات و هذه التراكيب اللغوية تعبّر عن المعاني المقصودة للمتكلّم فيتحقق بها الإفهام الصحيح على أن يراعى في تأليفها المطابقة لمقتضى الحال .

إنّ منطلق التفسير للملكة اللسانية منطلقه الظاهرة الاجتماعية ، حيث وصف الملكة من تلك النظرة ، نظرة اللغة و مسايرتها للتاريخ أو بمعنى أدقّ في مراحلها التاريخية ، يقول ابن خلدون << المتكلّم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلامهم أهل جيله و أساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم فيلقفها ، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كلّ لحظة و في كلّ متكلم ، و استعماله يتكرر إلى أن يصير ملكة و صفة راسخة .>> **(1)**

ثمّ يرى ابن خلدون أنّ بيئة و مناخا صافيا هو النموذج المثالي الذي يدفع اللغة دفعا صحيحا من حيث السماع و القراءة و الكتابة ، و هذا ما لم يتيسّر زمن ابن خلدون ، حيث انعدم ذلك المناخ أوكاد .

و لهذا نجد ابن خلدون يتجه في بحثه اتجاها معينا ، فهو يشخّص الدّاء بعد معاينتة ثم يقترح العلاج مقدّما قواعد و اقتراحات معتبرا إياها حلولا و أدواء لما آل إليه اللسان العربي .

1- " المقدمة " ص \ 554 \ 555

ثانيا الملكة من المنظور القديم و الحديث :

إنّ المتتبع و الدارس لمساهمات العرب في مجال البحث اللساني و العلمي على وجه أدق يجد أنّهم توصلوا إلى اكتشاف و إبداع نظريات علمية عديدة كانوا السبّاقين إليها و تتفق مع ما يقوله العلم الحديث بل قد تتفوقه في بعض الأحيان .

ـ مفهوم الملكة لدى علماء العرب:

نّ تعريفا واحدا موحّدا لمصطلح الملكة لم يوجد عند الدّارسين العرب القدامى << إلاّ أنّهم في تعريفاتهم و مفاهيمهم كأنّها مكمّلات بعضها بعضا >> **(1)** أما كلمة ملكة فمنهم من استعمل المصطلح **ملكة** ، و منهم من استعمل مصطلحات " كالعادة و الصناعة " .

الفارابي : (260هـ 339هـ) يعرّف الفارابي الملكة : << إنّ الملكة تحصل عن طريق التكرار المستمر لفترات متعددة و هي نوعان **ملكة خلقية و روحية** و **صناعية أو مادية** ، و يتم اكتسابها نتيجة الاعتياد الحاصل على تكرار الشيء الواحد في فترات متقاربة ، و تتميز **بالرسوخ** و عدم الزوال كملكة الأخلاق الحسنة >> **(2)**

و يعتبر **إخوان الصفا (الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري)**أنّ مصطلح الملكة هو ا لعادة عندما يبينون << أنّ المهارة في الشيء و إحكامه غاية الإحكام تكون نتيجة التدريب المستمر كمهارة البحث و الأخلاق و الصنائع >> **(3)**

أمّا **ابن سينا (370هـ - 433هـ)** ، فهو يعبّر عن مفهوم الملكة بالصناعة و يدقق مفهومها تدقيقا عجيبا ، وهو أنّ الملكة صناعة نفسية يعيشها الإنسان قبل تعلّمها ، و لكنّه لا يشعر ولا يعي كيفية القيام بها ، و هذا طبعا بعد اكتسابها و إحكام الأفعال التي تصدر عنها بقوله :<< الصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال إرادية بغير رويّة تنحو تماما مقصودا >> **(4)**

كما استعمل **أبو حيان التوحيدي** مصطلح العادة بقوله :<< قيل ما العادة ؟ قال : حال يأخذها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة يجري عليها مجرى ما هو مألوف طبيعي >> **(5)**

1ـد \ حسين زر وق "مجلة اللغة و الأدب " \ جامعة الجزائر \ ع \5 \ ص \ 152

2- المرجع نفسه \ رسائل الفارابي

3-" رسائل إخوان الصفا " ص 32

4- " ابن سينا" البرهان من كتاب " الشفاء" ت \ عبد الرحمن بدوي ص \ 192

5- " أبو حيان التوحيدي " الإمتاع و المؤانسة " ج 3 ص \ 132-133

يلاحظ ممّا سبق أنّ كلاّ من الفارابي و ابن خلدون يلتقي في مسألة **الرسوخ** ، فالملكة صفة راسخة كما قال ابن خلدون :<<صفة راسخة تحصل عند استعمال ذلك الفعل و تكراره مرّة بعد مرّة حتى ترسخ صورته >> (1)

و لكي تصل الصفة الراسخة إلى ملكة يجب أن تمرّ عبر التكرار المستمر إلى أن تصبح **حالا** ثم تزيد فتصبح **ملكة** .

هذا ما يؤكّده **الشريف الجرجاني (1339-1413م) : إذلخّص** مفهوم الملكة انطلاقا من التعريفات السابقة إذ هي :<< صفة راسخة و تحقيقه أنّه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ولا يقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية و تسمى حالة ما دامت سريعة الزوال فإذا ما تكررت و مارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية و صارت بطيئة الزوال فتصير ملكة و بالقياس إلى ذلك الفعل عادة و خلقا .>> (2)

و الخلاصة من هذا أنّ الملكة هي صفة راسخة ثابتة لا تزول أو يصعب زوالها تصدر عنها أفعال إرادية لا شعورية " فكأنّها طبع غير شعوري "تحصل بالممارسة و التكرار مرّات عديدة و على فترات متقاربة ، و هي نوعان روحية و خلقية و مادية و صناعية .

يكاد يتفق هذا المفهوم مع ما يقوله **علماء النفس المحدثين** ، لكن التعبير عنه يختلف ، فعلماء النفس يعبرون عن الملكة بمصطلحات **"العادة و المهارة "** ، أمّا مصطلح الملكة فيعنون به **"الاستعداد و التهيؤ"** ، و مهما كان الأمرفي اختلاف التسميات و المصطلحات فإنّ الملكة هي مهارة و قدرة على الإحكام .

ـ أمّا المحدثون :

يسود في الأوساط الغربية نظريتان حول تفسير الملكة اللغوية انطلاقا من كيفية اكتسابها وهما : **النظرية البنيوية أو الوظيفية ـ و النظرية التوليدية (3)**

أمّا الأولى فتعنى بالشكل وصفا دون تعمق في المضمون الحقيقي ، <<اعتبار الإنسان مجرّد آلة مقلّدة >> ، و يمثل هذه النظرية ليونارد بلوم فيلد **Leonard blomfild** في أمريكا و أندريه مارتينه **Andre Martinet** في فرنسا .

1- المقدمة ص \ 555

2- " التعريفات " للشريف الجرجاني ص\ 120 \ فيلسوف ومتكلم أشعري عرف "بالسيد الشريف"\ المنجد في اللغة والأعلام

3- مجلة اللغة و الأدب ع \ 5 \ ص\ 135

أمّا النظرية التوليدية التفريعة التي يمثلها **نوهام شومسكي Noam Chomsky** الذي تجاوز الوصف الظاهري الشكلي للغة إلى المضمون الداخلي الإبداعي في اللغة ، وترى هذه النظريـــة البنيوية للملكة أنّها **عادة** تكتسب **بالمحاكاة و التقليد** ،وهي قبل كلّ شيء سلوك اجتماعي يتمّ اكتسابه بشكل آلي من خلال التمارين الشفوية و الكتابة المكثفة .

ما يلاحظ على هذه النظرية أنّها اكتفت بالجانب المحاكاة مغفلة الجانب الإبداعي الخلاق في اللغة :<< كما تناست المقدرة التي منحت للإنسان على إبداع الكلام غير المنتهي انطلاقا من نماذج معينة >> (1)

أمّاتشومسكي صاحب النظرية التوليدية على عامل الفطرة أو القدرة "حتى يفرّق بين الملكة **Performance** و التأدية **Competence** و بالتالي فالملكة هي مجموعة من القواعد اللغويـــة العامة المتشكّلة في ذهن الإنسان التي تمكّنه من اكتساب أي لغة على وجه الأرض ، أمّا التأديـــة

فهي الإستعمال الفعلي للغة في ظروف معينة ملموسة " (2)

إنّ لهذه النظرية ما يفسّرها من الواقع حيث يستطيع المهاجر ـ مثلاـ أن يتأقلم مع وضعه الجديد حيث تكفيه مدّة وجيزة في اكتساب و تعلّم اللغة الجديدة ثم تبقى اجتهادا ته و مهاراته في التأديـــة الفعلية ـ على حدّ نظرية تشومسكي .

جاء في تعريف د\ **عزيز عظمة** عن الملكة :<< و تتكون الملكة هنا من معرفة تامة بمبادئ العلم و إجراءاته و كذلك القدرة على استنتاج خصوصياته من عمومياته ، و هذه الملكة لا تشكّل فهما بسيطا ، بل هي عبارة عن صفة جسدية في الدماغ و لكنّها ملكة و تحتاج لتدريب متواصل ، فهي تقدّر **بالإجازة** قديما و **بالشهادة** حاليا >> (3)

إنّ مفهوم المحدثين للملكة اللغوية يقترب على العموم مع مفهوم العلماء العرب القدامى وخاصة المدرسة التوليدية التفريعة و التي تركّز على الإبداع الذي تناسته أو تجاهلته المدرسة الوظيفية البنيوية التي اعتمدت على الشكل و المحاكاة .

1- " عبد الرحمن الحاج صالح " أثر اللسانيات" \ من مجلة " اللسانيات ع \ 4 \ ص\ 20

2- د " حسين زروق "مجلة اللغة و الأدب ع\ 5 ص\ 155

3- د" عزيز عظمة " ابن خلدون و تاريخيته " ص\ 182

*** ثالثا ـ سلامة الملكة من سلامة عواملها**

يرى ابن خلدون أنّ هناك عوامل مساعدة على سلامة الملكة على رأسها :

ـ **الممارسة اللسانية :** أولى شروط الممارسة اللسانية و هي :

1)- **السماع :**فالسمع عند ابن خلدون هو **أبو الملكات** << يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقفها أوّلا ثمّ يسمع التراكيب بعدها فيلقفها ، ثمّ لايزال سماعه لذلك يتجدد في كلّ لحظة و من كلّ متكلّم و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذبك ملكة و صفة راسخة .>> **(1)**

يفهم من هذا النص أنّ **السمع** أحد العوامل الأساسية في اكتساب الملكة << فالطفل يبدأ في تعلّم أسماء الأشياء ثمّ يبدأ في تمييزها >> **(2)** ، و هذا ما يعبر عنه ابن خلدون بعبارة **يلقفها** يسمعها فتصبّ في ذاكرته ولا شعوره ، فتعلق تلك الأسماء و المفردات و ترسخ ، ثمّ يتبعها بالتراكيب ، أي يحاول الصبيّ بعدها أن يجد لها نسقا و نظاما داخل ذاكرته تدريجيا .

ثمّ يربط ابن خلدون السمع بالمحيط أو البيئة فالمحيط المقصود " يسمع من أهل جيله "و لابدّ لهذا المحيط من التجدد و التنوع في الأساليب والمخاطبات ، فترسخ الملكة وتتنوع في نفس الوقت بتنوع هذه الأساليب و المخاطبات ، و يقصد بذلك الكلام الجاري و الحوار الرفيع المستوى .

2)ـ**التكرار :**يعدّ التكرار أسلوب من أساليب اكتساب الملكة إذ يؤكّد ابن خلدون على ذلك بقوله : << لا يزال سماعهم يتجدد و استعماله **يتكرر** إلى أن يصير ملكة >> **(3)**

يعدّ القدماء التكرار من قبيل الممارسة و التدريب في اللغة ، يروي المبرد<أنّ تدريب اللسان على الكلام حالة طبية صحيحة ، أمّا حبسه يؤدي إلى عدم الإجادة و التعبير > > **(4)**

هذا ما يؤكّده **ابن المقفع** في قوله :<< إذا كثر تقليب اللسان على الكلام رقت جوانبه و لانت عذوبته >> **(5)** و هذا **الجاحظ** يبيّن لنا أهمية الممارسة للغة من خلال النطق ومسألة الإجادة في اللسان .

1- المقدمة ص\ 555

2- د\ حنفي بن عيسى \ مجلة " اللسانيات" ص\16\مجلة في علم اللسان البشري تصدرها جامعة الجزائر المجلّد الأول 1971

3- المقدمة ص \ 555

4- المبرد " الكامل " ج1\ ص 246

5- المصدر السابق ج1 \ ص 270

يقول الجاحظ :<< و كانوا ـ أي العرب ـ يعلّمونـهم المناقـلات و يأمرونـهم برفع الصوت و تحقيق الإعراب ، لأنّ ذلك يفتق اللهاة (أي اللسان)، لأنّ اللسان إذا كثر تحريكه قدلان ، وإذا ، و إذا أقللت تقليبه و أطلق إسكاته خبأ و غلظ .>> **(1)**

و لذلك تفطّن الناس منذ القديم إلى دور اللسان و أثره في الفرد و المجتمع حتى ارتبط مفعول اللسان من الوجهة النفسية و الأخلاقية بالمشاعر و في بناء الشخصية السوية ، فهذا **زهير بن أبي سلمى** دليل على ذلك :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلاّ صورة اللّحم و الدّم**

و لهذا أقامت الدراسات العلمية الحديثة على اختلاف توجهاتها ، سياسية أو تاريخية و لغوية و فلسفية ... إلاّ لتجعل من اللسان منطلق أبحاثها ، و هذا قصد الوصول إلى معرفة أصول الأمم و أعراقها و علاقاتها و احتكاكها فيما بينها ، و تاريخ تطورها و انكماشها ثمّ درجة مساهماتها في حوار الحضارات الإنسانية قاطبة .

ولكي تصبح الملكة عند المتكلّم راسخة ـ على رأي ابن خلدون ـ لابد لها من أن تشحن بالمفردات و التراكيب و الأساليب و المخاطبات ... و من هنا يأتي دور الحفظ الذي يؤكّد عليه ابن خلدون .

3)ـ المحفوظ و أثره في الملكة :

لقد كان ابن خلدون على قدر كبير من الاهتمام بمسألة الحفظ و المحفوظ ، إذ يقرّ هو نفسه أنّ محفوظه كان ضئيلا بخاصة من الشعر ، لقد كان محفوظه كتاب الأشعار الستة ـ يقصد المعلقات و ديوان الحماسة و شعر المتنبي و أشعار من كتاب الأغاني ، مع حفظه القرآن الكريم و الأحاديث الشريفة و الفقه و المتون و قصيدتي الشاطبي الكبرى و الصغرى في القراءات ، غير أنّ هذا المحفوظ ـ أيّا كان مقداره ـ هو الذي قدّم لابن خلدون فكرة ثابتة حول الصناعة الأدبية من جهة خاصة و الملكة اللسانية بعامة .**(2)**

ينطلق ابن خلدون من فكرة :<< كلّما كثر المحفوظ استحكمت الملكة >> **(3)** ، و انطلاقه هذا ابتدأ من واقع الثقافة في عصره ، فرأى أنّ الإنشاء ملكة لم تعد تتكون "سليقة ،لأنّ الناس يتعلّمون اللغة تعلّما ، و أنّ العامل الذي يكوّن تلك الملكة (الإنشائية) هو الحفظ ، فمن أراد أن يكون شاعرا

1- الجاحظ " البيان و التبيين" ج1 \ ص \ 154

2- " التعريف بابن خلدون " ص \-

3-المقدمة ص 551

كان لابد من أن يحفظ من الشعر العربي :<< حتى ينشأ في النفس ملكة ينسج على منواله >> (1)

جــودة الــحــفــظ = جـــودة الــمــلــكــة

4) ـ المحفوظ الجيّـد و أثـره على المـلـكة:

يشير ابن خلدون إلى كيفية الحصول على ملكة اللسان و ذلك بالحفظ و المحفوظ الجيّد << ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن و الحديث و كلام السلف >> (1)

إنّ المقصود بالمحفوظ على الترتيب ، القرآن ثمّ الحديث و يليه الكلام الجاري ثم كلام السلف تلكم هي العناصر الأساسية في المراحل الأولى للمحفوظ الأوّل أثناء الممارسة و التدريب ، ثـمّ تليها مرحلة << الإبداع بالقياس و البناء >> (2) على هذا الحفظ ، إذ يقول في هذا الشأن : << ثمّ يتصرف بعد ذلك في التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم و تأليف كلماتهم و ما وعـاه و حفظه من أساليبهم و ترتيب ألفاظهم >> (3)

هذا ما يؤكّده **شارتي Alain Emile Chartier** في العصر الحديث :<< كيف نتعلّم لغـــة معينة ، نحفظ أوّلا ثم بعد ذلك نتصرف و نبدع >> (4)

<u>أوّلا ـ المـحـفـوظ الـقـرآنـــي :</u>

إنّ أوّل محفوظ نقي يقترحه ابن خلدون للمتعلّم كما جرت عليه العادة آنذاك في تعليم الصبية و الولدان حيث كانت تنشئتهم تنشئة قرآنية <<اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الـديــن أخذ بها أهل الملّة ، و درجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما سبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان و عقائده من آيات القرآن، و بعض متون الأحاديث >> (5)

1- "المقدمة "ص \ 561

2- " بن حويلي الأخضر المدني " مجلة " المبرز" جامعة الجزائر ـ كلية الآداب ـ ص \ 22

3- نفس المصدر ص 559

4- مجلة اللغة و الأدب \ ع\ 5 \ ص \ 158 شارتيه كاتب فرنسي (1385-1433) أمين أسرار" شارل الثامن" انظر Robert2

5- نفس المصدر ص 536

يترتب علىذلك ـ بداهة ـ أنّ هذا النوع مت التعليم يطيّع الصغير المتعلم مع ما يتفق و هذه التنشئة في فكره و شعوره <<ليتكوّن عنده بعدها نسيجا علميا ووجدانيا ، فجميع ملكاته التي يحصلها تترتب على هذا الأساس الأوّل و هو حفظ القرآن >> (1)

لقد كان و لا يزال القرآن محطّ اهتمام العلماء و الدارسين على اختلاف توجهاتهم العلمية و جهودهم مؤكّدين جميعهم أنّه الأساس في تكوين الثروة اللغوية للمتعلمين و دارسي اللغة على وجه أخص<< من فاته هذا الأمر فإنّه يبقى قاصرا قصورا بيّنا و شائنا عن إجادة اللغة ، ناهيك بالتمكّن منها و درسها >> (2)

أوقف القدماء على اختلاف توجهاتهم العلمية و الأدبية من فقهاء ، و مفسّرين و لغويين جهودهم ومن المشارقة أوالمغاربة لإظهار بلاغة القرآن و جماله وتماسك نظمه من الترابط ومراعاة لأداءه المواقف المختلفة فهو يأتي في أعلى مستويات البلاغة و البيان ، كما << فعل أبوعبيدة في " **مجاز القرآن"** ، وعبد القاهرالجرجاني في " **دلائل الإعجاز "** و مؤلف الجاحظ المفقود" **نظم القرآن " و غيرها** >> (3) ، و لا تزال جهود المحدثين تتوالى في هذا الشأن حيث الدراسات و الأبحاث المتواصلة حول بلاغة القرآن .

و لابن خلدون رأي في هذا الشأن القرآن منظوما أو منثورا :<< و القرآن إن كان من المنثور إلاّ أنّه خارج عن الوصفين ، و ليس يسمى مرسلا مطلقا و لا مسجعا، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع ، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثمّ يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها و يثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى **"الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم "** (4) ، << و أطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلّها ـ على العموم ـ و اختصت "بأمّ القرآن " للغلبة فيها >> (5)

1- " محمد عيد " الملكة اللسانية عند ابن خلدون " ص 37

2- نفس المرجع\ يقول شوقي ضيف إنّ خلفاء بني العباس أظهروا محافظة شديدة في تعليم القرآن، فأخذوا أبناءهم بتعلّمه و إتقانه ، فأحضروا لهم كبار اللغويين و القرّاء ليحفظوهم و يتعمقوا في رواية كل مايتصل من أخبار وأنساب.ص37

3- نفس المرجع ص\39

4- الآية 23 ـ من سورة الزمر \ المقدمة ص 566

5- المقدمة ص \ 566

أمّا عن تكوّن الملكة من المحفوظ القرآني فلابن خلدون أسلوب و رأي متفرّد إذ يخلص أنّ << الاقتصار على تعليم القرآن وحده ينشأ عنه القصور عن ملكة اللسان جملة >> **(1)**

و بهذا الاقتصار على القرآن و الاشتغال به وحده يجعل صاحبه بمعزل عن تحقيق ملكة لسانية متكاملة .

يعزو ابن خلدون هذا القصور لأمرين أساسيين :

أ-أنّ البشر مصرفون عن الإتيان بمثل القرآن

ب- واقع تعليم القرآن في الأمصار (على عهد ابن خلدون)

أمّا يتعلق بالأمر الأوّل فإنّ البشر في رأيه عاجزون أوّلا و مصرفون عن الإتيان بمثل القرآن و محاكاته مشيرا بذلك إلى ما أكّدته الآية في القرآن << قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا >> ثمّ قوله << أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات>> و قوله << فليأتوا بحديث من مثله إن كانوا صادقين >> **(2)**

و بهذه الصرفية يؤكّد ابن خلدون أنّه لا يتحقق للمشتغلين به المقتصرين عليه ملكة تماثله أو تحاكيه << فهم مصرفون لذلك الإستعمال على أساليبه و الاحتذاء بها و ليس لهم ملكة في غير أساليبه ... و حظّه الجمود في العبارات و قلّة التصرف في الكلام >> **(3)**

لم يتناول ابن خلدون هذا الأمر بالتحليل و التفصيل ببيان ما في القرآن من إعجاز مثل الذي نقرأه و نسمع عنه في كتب البلاغة ، إنّما ربط أو قصد بالإعجاز تلك **الصرفية التامة** الخاصة بالبشر على اختلاف مشاربهم من حفظة أو فقهاء ، مفسّرون أو قراء أو غيرهم من الذين سمعوا بالقرآن ، فمهما بلغت درجة مدارستهم أو بلاغة كلامهم لن تصل بأي حال من الأحوال إلى بيان القرآن أسلوبا و لغة و فصاحة و...

ب ـ لقد عرض ابن خلدون واقع تعليم القرآن في الأمصار، فيه من النقد و الانتقاد ، إذ اقتصر <<مدارسته بالرسم و مسائله ، ثمّ لم يخلطوا في مجالس تعليمهم لا من حديث و لا من فقه

1- "الملكة اللسانية" ص \ 40

2- " المقدمة " ص536

3- نفس المصدر ص \ 537

ولا من شعر و لا من كلام العرب >> (1)

أمّا الأمصار المقصودة هنا هي **المغرب** ، **الأندلس** ، **افر يقيا و المشرق .**

أمّا المغرب و ما أحاط به فاقتصروا على تعليم القرآن فقط :<< لا يخلطون في مجالس تعليمهم لا من حديث و لا من فقه و لا من شعر و لا من كلام العرب ...إلى أن يحذق فيه أو ينقطع درسه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا على العلم بالجملة >> (2)

و لمّا اقتصر أهل المغرب على هذه الطريقة فكان حظّهم الجمود في العبارات و قلّة التصرف في الكلام (3)

أمّا **إفريقية** ، ولعلّه يقصد **تونس و الجزائر** – لعهده – أمّا هؤلاء :<< فيأخذون المتعلّمين بالقرآن و بعض العلوم كالحديث و استظهار قوانينه ...>> (4)

الأندلس : أمّا هؤلاء - أهل الأندلس - فإنّهم لم يقتصروا على تعليم القرآن و رسمه وحده بل خلطوا على حد تعبيره ، في تعليمهم للولدان << روايات الشعروالترسل قوانين العربية وحفظها وتجويد الخطّ إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، و قد شدا بعض الشيء في العربية و الشعر و التبصر بهما >> (5)

المشرق : أمّا المشرق المقصود هنا ، الشام و مصر و العراق و ما والاهما فهؤلاء يخلطون تعليم القرآن بغيره من العلوم التي ذكرها (من فقه ، حديث ، و ترسل ...) << إلاّ أنّهم يفردون للخطّ تعليما خاصّا ، فله قانون و معلّمون على انفراد كسائر الصنائع >> (6)

بهذه النتيجة و بحكم معرفته الواسعة بالمجتمع العربي يجمع تلك الحقائق و يقررّها على نحو يمكّنه من إيجاد تفسير لذلك التفاوت الذي لاحظ أثره في ملكة اللسان و التي اقتصرت على الأندلسين أكثر من غيرهم من المغاربة و الأفارقة و المشارقة ، قاده تقصّيه إلى ذلك مردّه إلى اختلاف طرقهم في تعليم القرآن للولدان حيث يستخلص منها طريقتان :

- **الطريقة الأولى :** التي تقتصر على تعليم القرآن فقط.
- **الطريقة الثانية:** التي تجمع بين القرآن و رواية الشعر و الترسل جنبا إلى جنب

1- 2-3-4-5-6- المقدمة ص 536 -536-537 -537- 537- 537-537

ثم راح ابن خلدون بعدها نحو اقتراح طريقة في تعليم القرآن للولدان و هي مقتبسة من رأي **القاضي أبي بكر بن العربي** ،(1) ملخّصه أن يتعلّم الصغار أوّلا كلام العرب الشعر خاصة ثمّ يدرسون العربية و الحساب ثمّ بعدها يتعلمون القرآن ، مبررا ذلك بقوله على لسان القاضي << لأنّ أخذهم بقراءة القرآن و حفظه في البداية يسبب لهم المشقة و الإجهاد ، من قراءة مـا لا يفهمون ناهيك بحفظه و تجويده >>(2)

يقول ابن خلدون مسوغا رأي القاضي أبي بكر :<< و لقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم ، و قدّم العربية و الشعر على سائر العلوم كما هو مذهب الأندلس >> (3) ،أمّا عن مضرّة تعليم و تحفيظ القرآن للصغار مبكرا فيقول القاضي " و يا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبيّ لكتاب الله في أوّل عمره ، يقرأ ما لا يفهم " >> (3)

أمّا ابن خلدون فرأيه فيما ذهب إليه ابن العربي : << و هو لعمري مذهب حسن >> (4) إلاّ أنّه يتعارض معه في مسألة التعود و التبرك ، أي أنّ الناشئة من أهل البلاد المغربية أو حتى المشرقية من عادتهم تعليم صبيانهم بادئ ذي بدء بتحفيظهم القرآن تيمنا و تبركا و مخافة الانزلاق <<إلاّ أنّ العوائد لا تساعد عليه ، و هي أملك بالأحوال >> (5)

إنّ ما يلفت الإ نتباه في مقترح ابن خلدون هذا من ضرورة خلط العلوم مع القرآن والتدرج في تعليمه حتى تستحكم ملكته على الوجه الأكمل ، هذا الأمر له ما يفسره في واقعنا العربي ، المغربي أو المشرقي ـ على حدّ سواء ـ فلا نزال نرى في القرى و بعض المدن من تلك الأماكن التي يتخرّج منها " طلبة القرآن " (6) أو ما يسمونهم (**بالفقهاء**) وهم أبعد ما يكونون كذلك ، نجدهم قد جعلوا من ما يحفظونه سبيلا للارتزاق أحيانا أو يرتّلونه على المقابر و في المآتم دون أدنى إدراك أو فهم لأدنى معانيه .

1- "القاضي أبوبكربن العربي " ، عالم أندلسي ، ولي قضاء إشبيلية ، من آثاره "أحكام القرآن " و " العواصم من القواصم " ينظر المنجد في اللغة و الأعلام \ أو وفيات الأعيان .

2- الشاهد لابن العربي عن " المقدمة " ص 538 .

3-4-5- نفس المصدر ص \ 539 . العوائد:يقصد بها ما تعوّد عليه المسلمون بتعليم القرآن مبكرا إيثارا للتبرك والثواب .

6- " طلبة القرن "ج \ فقيه : حافظ فقط لا غير\ المتخرجون من الزوايا و الكتاتيب الخاصة بالتحفيظ المجرّد \ و هو مصطلح أطلقه عليهم عامة الناس.

<<و قد قصرت بهم إمكاناتهم عن إجادة اللسان العربي ، فلا يمكنهم ارتجال خطبة صحيحة الألفاظ و الجمل و الأسلوب >> (1)

يرحم الله والد **أحمد أمين** الذي أمسك العصا منوسطها كما صرّح بذلك أحمد أمين نفسه حينما قدّم لنا تلك الصورة أو ذلك الحل الذي اهتدى إليه أبوه حين كان حائرا في توجيه ابنه أيوجّهه الوجهة الدينية فيعدّه للأزهر أو يوجّهه الوجهة المدنية فيعلّمه في المدرسة الابتدائية و الثانوية يقول أحمد أمين : << كنت أدرك حيرته من كثرة استشاراته ، و هم لا ينقدونه من حيرته ، فمنهم من يشير بهذا و منهم من يشير بذاك ، فأمسك العصا من وسطها ، فكان يعدّني للأزهر بحفظ القرآن و المتون ، و يعدّني للمدارس المدنية ...>> (2)

إنّها إلاّ صورة من تلك الظاهرة و ذلك النمط الذي يصور ـ بحقّ ـ جانبا من جوانب جيل أحمد أمين في طريقة التعليم الدينية و المدنية و التي تمتد جذورها إلى عهد ابن خلدون .

و ختام ذلك كلّه أنّا نرى وجه الصواب بجانب ابن خلدون في ما ذهب إليه من ضرورة العناية بطريقة تعليم المحفوظ القرآني بالقدر الذي يساهم في تقوية الملكة اللسانية .

ثانيا ـ المحفوظ النحوي:

إنّ تقويم ابن خلدون لكتب النحو المعاصرة له تقويما متفرّدا و متطرّفا ، فهو لم يقف منها موقف المناقش لما حوته من قوانين الإعراب و صناعته و ما إلى ذلك لبيان فائدتها أو عدم جدواها كما كما فعل علماء اللغة قديماأو المحدثين ، إنّما صرّح بكل جرأة أنّها << لا علاقة لها بملكة اللسان>> (3)

و لعلّ ما يشغل ابن خلدون في هذه المسألة أمران :

الأول :

كتب النحو التي تخدم اللغة العربية و تفيد الملكة ، و هو ما حوى نصوصا كثيرة من كلام العرب من الأمثل و الشواهد و الأشعار فيستقرّ في محفوظ الدارس و المتعلّم ، و يتحقق في كتاب **"سيبويه"** ، مقترحا إياه بشرط أن يتنبه لما فيه من نصوص و شواهد .

1- " محمد عيد " الملكة اللسانية " ص \ 42

2- " أحمد أمين الأديب المصري (1886-1954) من مؤلفاته :" حياتي " المقتبس منه هذا النص \ ص\

الثانـــــي :

ما لا يخدم اللغة و لا يـفيدها في قضية الملكة ، تلك الكتب المتأخرة التي وجّهت كلّ همـهــا لصنعة الإعراب وحدها << فهي محشوة بالتشقيق و التفريع و الجدل العقيم و هي في الوقت نفسه عارية من كلام العرب شعرا و نثرا >> **(1)** ، فدارسوا هذه الكتب << يحسبون أنّهم حصلوا على رتبة في لسان العرب و هم أبعد الناس عنه >> **(2)**

فهذا التطويل و التفريع في هذه الكتب يخرجها من طبيعتها ويجعلها هدفا في حدّ ذاتها ، ولذلك فالاشتغال بها يعزّ على المتعلّم احتواءها ناهيك عن تحصيل ما فيها أو تحقيق الملكة ، فهو إضاعة العمر في الوسيلة قبل الوصول إلى الغاية .

لقد كسبت هذه الكتب و المطولات هيبة و احـترام لدى المشتغلين بها ، و لا بأس بـذلك ما دام الأمر محصورا في **الاختصاص و التوغل** (3) ـ كما ذلك ابن خلدون ـ و تجاوز الحدود ، وهذه فئة القليلة من المتعلمين و الدارسين .

أمّا شغل عامّة المتعلمين و العاديين فهو مرفوض عند ابن خلدون ، إذ يقرر ـ بداية ـ<<إنّ من العلوم ما هو مقصود لذاته كالعلوم الشرعية و الطبيعيات و الإلهيات ، و من العلوم ما هو وسيلـة لغيره كالنحو و المنطق >> **(4)**

أمّا العلوم الشرعية و الطبيعيات والإلهيات فيرى أن لاحرج في إطالة الكلام عنها بالاستدلالات و الأنظار ، أمّا النوع الثاني ـ أي النحو ـ والمنطق << فينبغي الاقتصار فيه على ما يحقق المقصود منه و ينتفع به في الغاية منه فلا يوسع فيها الكلام >> **(5)**

هذه من معوقات الملكة ـ وهو عنصرمن عناصرالبحث اللاحقة ـ إذ كيف تتحقق أو يحصل عليها المتعلّم مع تلك الكثرة من المؤلفات و المذاهب المتعددة والآراء المتنافسة وكثرة المصطلحات التي تجعل الكثير من المتعلمين في اضطراب نتيجة هذا التضارب ، و هذا ما نلمسه في واقعنا التعليمي في معاهدنا المتخصصة في اللغة مشرقها ومغربها << إذ يقع الطلاب في تعاسة وحيرة أمام بعض المسائل النحوية ، فيساءل بعضهم بصدق ؟ ألآبدّ من معرفة كلّ ذلك ؟!>> **(6)**

1- د\ إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي " ص 611

2– المقدمة \ ص 534

3-4-5 نفس المصدر \ ص 535 \ يقصد بالتوغل : التخصص في العلوم

6- "الملكة اللسانية"\ ص \ 136

أمام ذلك الكمّ الهائل و الطوفان الزاخر من كثرة المؤلفات و تأثيرها على التحصيل ، والأمثلة على ذلك كثيرة (1)

إنّها نظرة تقيمية أراد من خلالها ابن خلدون الدعوة إلى تصفية النحو للمتعلمين ، و التمسك قدر الإمكان نحو الخط الأصيل المتجنب لنزاع المذاهب وتشعّب الآراء (كالبصرية والكوفية والبغدادية وغيرها...).

ثالثا ـ المحفوظ الأدبي (شعرا ونثرا) :

على اعتبار أنّ " المحفوظ الأدبي " ، و هو نص أو مجموعة من نصوص محتارة من عيون الأدب (شعرا أو نثرا) ، يفترض أن تميزها جملة من الخصائص اللسانية و الفنية ، يراد تبليغها إلى المتعلمين بحسب المستوى و القدرة على الاستيعاب .

و أفضل ما يحقق هذا الأثر اللساني هو في نظر ابن خلدون << الشعر >>

**** المحفوظ الشعري :***

يقولابن خلدون أنّ الملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر :<< اعلم أنّ لعمل الشعر و إحكام صناعته شروطا أوّلها الحفظ من جنسه ـ أي من جنس شعر العرب ـ حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، و يتخيّر المحفوظ من الحرّ النقي الكثير الأساليب ثمّ بعد الامتلاء بالحفظ و شحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم ، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ >> (2)

يفهم منالنص أنّ الشعر ملكة صناعية و تبدأ باختيار أجود شعر العرب ثمّ يتمّ حفظه ، و بكثرة الحفظ ، يشرع في النظم و الإبداع و يكون إبداعا على المنوال (3) ثم بالممارسة والدربة تستحكم الملكة و ترسخ .

و عليه فإنّ تصورا بن خلدون للملكة الشعرية يتمّ ـ استنتاجا ـ بالمراحل التالية :

1- من أمثلة الكتب النحوية :" شرح الكافية" لابن حاجب- "اكتشاف الضرب من كلام العرب" لأبي حيان – "شرح المفصل" لابن يعيش – " الحدود النحوية " للرماني – " القانون " للجزولي – "التسهيل" لابن مالك – "الأجرومية"لابن آجروم و القائمة طويلة .

2- " المقدمة " 572

3- "إبداع على المنوال " ما يشبه المحاكاة و المعارضة "\ إضافة: عن عائشة أمّ المؤمنين(ض) في نصيحة ثمينة تقول:" رووّا أولادكم الشعر تعذب ألأسنتهم " العقد الفريد لابن عبد ربه ج 5 \ ص\ 274 .

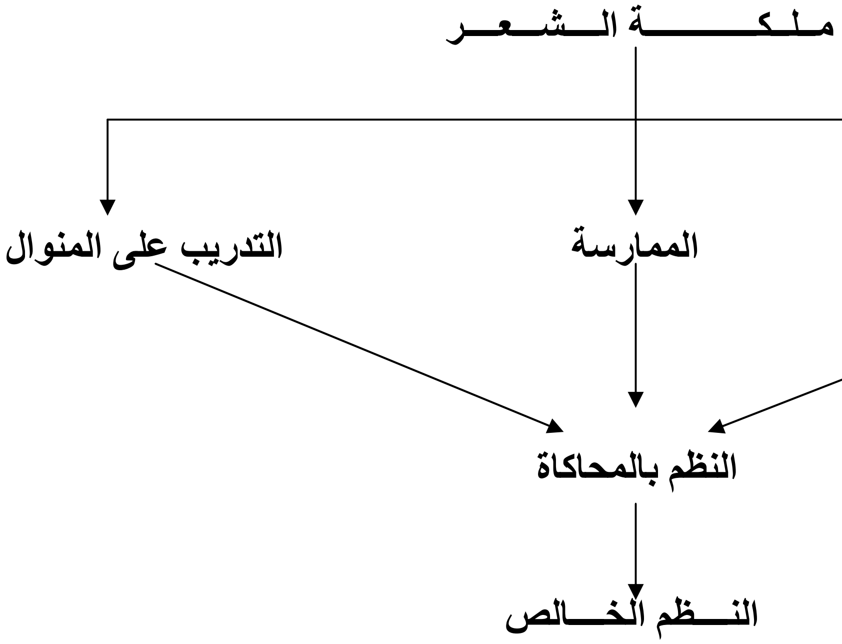
1-مرحلة اختيار المحفوظ النقي

2- الممارسة و التكرار

3- التمكن

4 – تحقق الملكة

5- النظم (أو الإبداع)



و بهذا التصور يخلص ابن خلدون أنّ الملكة عمل مكتسب من بدايته إلى نهايته و أنّ الشرط الأساسي فيه هو الحفظ <<فمن أراد أن يكون شاعرا لابد من أن يحفظ نماذج الشعر العربي و أقلّ ما يحتاجه من شعر الفحول الإسلاميين >> **(1)** ، و يقترح لذلك كتاب " الأغاني " لأنّه << جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كلّه و المختار من شعر الجاهلية >> **(2)** ، ثمّ يذهب في الدّقة أكثر --- < فمن حفظ شعر أبي تمام أو ابن المعتز أو الرضيّ و رسائل ابن المقفع و سهل بن هارون كانت ملكته أجود و أعلى مقاما ممّن يحفظ شعر ابن سهل الإسرائيلي أو ابن النبيه أو ترسل البسياني و العماد الإصبهاني >> **(3)**

نلاحظ بعد التأمّل أنّ الحديث ينصبّ كلّه على **الاكتساب** اللغوي أكثر من غيره **و المهارة اللسانية في قول الشعر** و بالتالي يتحدد تحت هذا الإطار وجده كل آراءه اللسانية مع إغفال تام لمسألة جدّ هامة و المتعلقة **بالموهبة و الاستعداد الفطري** ، يقول إحسان عباس في هذا الشأن << و لكن ابن خلدون هنا أبطل " الموهبة" جملة ، و ذهب إلى الملكة اكتساب خالص >> **(4)**

أسقط ابن خلدون الموهبة << ذلك الإشعاع الإلهي غير المنظور وغيرالمصنوع والذي يهجس في أعماق الشاعر ، فيطلعه على عوالم غريبة من السحر و الرموز و الظلال و الألوان لا يراها غيره >> **(5)** .

يعدّابن خلدون رواية الشعر و حفظه عاملا أساسيا في تحصيل ملكة الشعر وقرضه ، إلاّ أنّ نظرة موضوعية تعارض هذا الرأي ، إذ لو كان كلّ راو شاعرا لسهل الأمر على الجميع ، فما عملنا إلاّ أن نقبل على الدواوين فننتقي منها **النقي**ـ على حدّ تعبيره ـ ثمّ نحفظه و نكررّه ، فنجده بعد ذلك طوع أيدينا .

ظلّ القدماء يفرقّون بين رواية الشعر و درايته و إجادته و بين تعلّمه و موهبته ،عن "**المازني** : قلت للأصمعي : ـ إنّك لتحفظ من الرجز ما لا يحفظه أحد ! فقال : إنّه كان همّنا و سدمنا "**(6)**

1- " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ص\ 620
2- "المقدمة " ص \ 573
3-" المرجع الأول ص620
4- نفسه ص 620
5- محمد عيد " الملكة اللسانية " ص\ 46
6- المرجع السابق ص\ 57 " مراتب النحويين "ـ سدمنا: شغلنا و دأبنا .

<< ويقول القفطي عن محمد بن القاسم الأ نباري أنّه كان يحفظ فيما يذكر ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهدة على القرآن >> (1)

إنّ دلالة هذه الروايات ، الأصمعي و الأ نباري لم يسمع عنهم كونهم شعراء على قدرمحفوظهم الضخم !

**** تقنية ابن خلدون في المحفوظ الشعري :***

لقد تصور ابن خلدون طريقة للنظم ، فبعد أن يرتاض المرء في حفظ الشعر فتعلق بذهنه قوالب الشعر المحفوظ و من ثمّ ترسخ و بعدها يحاول استحضارها نفسها ، ثم ينسج على منوالها << فإنّ مؤلّف الكلام هو كالبناء أو النساج ، و الصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه ، فإن خرج عن القالب في بنائه أوعلى المنوال في نسجه كان فاسدا >> (2) ، قد أضحى الشعر عند ابن خلدون بهذه الصورة شبيها بالعمل اليدوي على حدّ تعبير د\ إحسان عباس .

يركّز ابن خلدون في هذه التقنية على الأساليب و التراكيب العربية المشحوذة الذهن عن طريق الإرتياض ثمّ يرجع ذلك كلّه بواسطة أمر جعله أساس العملية الشعرية و هو **الصورة الذهنية** التي تنتظم معها هذه التراكيب و الأساليب المنتزعة من أجود الشعر العربي ثم توضع هذه الصورة منسوجة في قالب جديد باعتبار الإعراب و البيان ثمّ "يرصّها رصّا " كما فعل البناء في القالب أو النساج في المنوال << حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام >> (3)
و بالتالي تقع الصورة الصحيحة لدى المرء فيستقيم لسانه وتتفتق ملكته في اللسان و الشعر .

و ختام ابن خلدون فصله ـ ملكة الشعر ـ بتأكيده أنّ <<المحصّل لهذه القوالب في الذهن إنّما هو حفظ أشعار العرب و كلامهم >> (4)

1- " إنباة الرواة" ج\3 \ ص \202
2- " المقدمة " ص \ 571
3- نفس المصدر ص\ 568
4- نفس المصدر ص\568

***ـ المحفـوظ النـثـري :**

إنّها الطريق نفسها التي يسلكها ابن خلدون في إجادة الملكة في كلا الفنين المنظوم من الشعر أو النثر ، فمادامت الملكة تكتسب بالحفظ << فعلى قدر جودة المحفوظ و طبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ >> (1)

الموضوع إذن ـ كما سبق ذكره في الشعر ـ صنعة من بدايتهاإلى نهايتها فكلّ من يريد أن يكون صاحب ملكة لسانية فنية ، أديبا أو شاعرا فعليه أن يأخذ بهذا المسلك الخلدوني ، فيحفظ ثمّ يوالي الحفظ ، و يتأمّل القوالب المعينة في استعمال العرب حتى يتحصّل لديه " القالب أو المنوال" إلاّ لابن خلدون رأي في النظم و النثر أنّه يستحيل الجمع بينهما <<لا تتفق الإجادة في فني المنظوم و المنثور معا إلاّ للأقلّ >> (2) ،و هذا لما يتطلبه كلّ فنّ من جهد و عناية فائقة ، فالاشتغال بهما يعدّ ضربا من المحال ،

و لعلّ ما يوافق هذه النظرة الصائبة لدى ابن خلدون عند وا قع أدبائنا من الشعراء و الكتاب فإذا أخذنا على سبيل المثال في عصرنا الحديث من المشرق أو المغرب ، فالعقاد و شوقي على الرّغم مما كان بينهما من صراع كلامي فلم يكن بنفس الصناعة ، فالأوّل كانت ملكته أقوى في الشعر فهو الموصف بأمير الشعراء فقد برز فيه و لمع صيته ، والثاني برزت ملكته النثرية اشتهر بها ، و عندنا في **الجزائر**مالا يقلّ شأنا عن المشرق ، فهذا الإمام بن باديس والشيخ الإبراهيمي رحمهما الله ، فالأول كانت إجادته في الخطابة فهو الإمام الخطيب المعروف بخطبه الثائرة في هدوء و بأشعاره الحكيمة مع درجة عالية من العلم والفقه ، أمّا البشير الإبراهيمي المعروف برائد الصنعة النثرية مع أنّ كلاّ منها قد مارس ملكة اللسان غير تلك التي اشتهر بها .

يضع ابن خلدون شرطا أساسيا في امتلاك هذين من المنظوم و المنثور الفنين و الإجادة فيهما و هو عدم الاشتغال بالعلوم مثل النحو أو الفقه و ما إلى ذلك << إذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر و كثر و تلونت به النفس ، جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور و انحرفت عباراته عن عن أساليب العرب في كلامهم >> (3)

1- " المقدّمة " ص \ 577
2- نفس المصدر ص \ 577
3- نفس المصدر ص \ 578

هذه العلوم تلوّن الملكة و توجّهها الوجهة الخاصة ، و يدلل ابن خلدون على ذلك بشعر النحاة و الفقهاء ، فإنّه شعر علماء لا يرقى إلى مستوى الاعتداد به في الفن أو ما يشبه الفن ثم يزيد في تدليله أكثر حين يجعل من تجربته الخاصة نموذجا لذلك ، فتمرسّه و اشتغاله بالمحفوظ العلمي و الفقهي و مدارسته للكتب الدينية أوجدت عنده صعوبة في نظم الشعر حين كان يريده ، يقول ابن خلدون في حوار له مع ابن الخطيب :<< فقلت له ـــ أجد استصعابا في نظم الشعر متى رمته ، مع بصري به و حفظي للجيّد من الكلام ، من القرآن و الحديث و فنون من كلام العرب ، و إن كان محفوظي قليل و إنّما أوتيت ـ و الله أعلم ـ من قبل ما حصل من الأشعار العلمية و القوانين التأليفية فإنّي حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى و الصغرى في القراءات و تدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه و الأصول و بعض كتاب التسهيل لابن مالك و كثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلأ محفوظي في ذلك **و خدش وجه الملكة** التي استعددت لها بالمحفوظ الجيّد من القرآن و الحديث عن بلوغها >> **(1)**

لقد عاصر ابن خلدون ـــ في القرن الثامن الهجري ـــ مظاهر الصنعة في النثر العربي ، حيث ظاهرة البديع المتفشية عند الكتاب سواء في المشرق أوالمغرب ، إذ وجدوا في ذلك ملاذا وتوارثها الخلف عن السلف ، و استمرّت تلك الطريقة الشكلية دهرا من الزمن ،<< مع أنّه كان في تاريخ النثر العربي كتاب وضعوا أساس الترسل في الكلام بالسهولة والدقة والترابط ، مثل الجاحظ وابن المقفع >> **(2)** لكنّ موجة الصنعة الطاغية حالت دون بلوغ هذا الهدف و بالتالي تحقيق ملكة نثرية حقيقية غير مشوبة بالشوائب .

1- " المقدمة " ص \ 579

2- " الملكة اللسانية " ص \ 63

***ـ را بـعـا معـوقـــات الـمـلـكـة :**

بعد معاينة و تبصر و تشخيص لما يصيب هذه الملكة من أدواء ، ذهب إلى ما يشبه التأكيد أنّ سلامتها و صحتها في صحّة عواملها و شروطها ، ويستخلص ابن خلدون ممّا قدّمه أنّ معوقات الملكة تتلخّص فيما يلي :

1ـ تنازع الملكات :

إنّ سلامة الـملـكة و تـفـرّدها دون أن تنازعها ملـكة أخرى يؤدي إلى إتـقان الـفن السابق وأنّ الصراع بين ملكتين قد يصيب الأولى المتمكنة ببعض الوهن و السبب في ذلك <<أنّ ملكة اللسـان إذا سبـقـت إلى محلّه مـلـكة أخرى قـصـرت بـالـمحل عن تمام الملـكة اللاحـقة ، لأنّ قـبـول الملـكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة أسهل و أيسر، فإذا تقدمتها ملكة أخرى كانت منازعة في المدة القابلة و عائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة و تعذّر التمام في الملكة >> (1)

إنّ الملكة لا تستطيع أن تـفسح المجال بغير صناعة واحـدة تـبلغ بها درجـة الإتقان << حـتى الشعر و الترسل لا يمكن اجتماعهما لدى المرء إلاّ في النادر >> (2)

إذ الملكة القدّمة هي المتحكّمة ، فإذا نازعتها أخرى مكانها لم تجد موضعا تستقرّ فيه ، لذلك يرى ابن خلدون أنّ تصارع الملكات مدعاة إلى خدش الملكة الأصلية وإخراجها من دائرة الإتقان ، وله ما يبرّره من خلال تجربته الخاصة الـتي أشار إلـيها حيـنما أقـرّ أنّ محفوظه من المتون و القـرآن والحديث جعل من الصعوبة عليه فيما بعد نظم الشعرأي أنّ ذلك أعاق على إجادة ملكة أخرى وهي نظم الشعر حيث يقول << فامتلأ محفوظي من ذلك و خدش وجه الملكة التي استعددت لها بالـحفظ الجيّد من القرآن و الحديث و كلام العرب **فعاق القريحة عن بلوغها** >> (3) ، فما كان من لسان الديّن بن الخطيب إلاّ أن أبـدى إعجابه الكبير بهذا الرأي قائلا << لله أنت ! و هل يقول هـذا إلاّ مثلك !! >> (4) ،" لعله وجد في الرأي إنصافا للذات و صوابا في التعليل " (5)

1- "المقدمة" ص \ 567
2- نفس المصدر ص \ 567
3- نفس المصدر ص \ 579
4- نفس المصدر ص \ 579
5- " د\ إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي " ص \ 622

ثمّ يزيد الأمر أكثر إيضاحا بضرب مثال عن تعلّم اللغات ، حيث أنّ الأعاجم لا يتحقق بهم ملكة اللسان العربي إذا سبقت إليه اللغة الأصلية يقول " وإذا اعتبرته في اللغات وجدت الأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة العربي ولا يزال قاصرا فيه و لوتعلّمه وكذا البربري و الرومي و الإفرنجي ، قلّ أن تجد أحدا منهم محكما لملكة اللسان العربي >> **(1)**

بعد عرض ابن خلدون لتجربته وتأكيده تلزع الملكات يخدش بعضها بعضا ، إنّ هناك سؤالا يطرح نفسه قد يناقض ما صرّح به و هو ـ كيف يكون المحفوظ القرآني لديه سببا في خدش الملكة ، أمّا الذي صرّح به في موضع البلاغة ، أنّ الإسلاميين أرفع بلاغة من الجاهليين؟ فما العامل في ذلك ؟! ألم يكن القرآن هو الني صقل المواهب و هدّب الملكات ووجّه تلك المعاني المبتذلة والقيم المستهجنة إلى قيم و معاني أكثر سموّا و رفعة ، فارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم في الجاهلية فكان كما قال<< كلامهم في نظمهم و نثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا من أولئك ، و أرصف مبنى وأعدل تثقيفا بمااستفادوه من الكلام العالي >> **(2)**

قد يبدو للقارئ من هذه النصوص الشاهدة شيئا من التناقض و الخطورة في الرأي إلاّ أنّه قصد المحفوظ القرآني وحده مجرّدا من كلام العرب ، فهذا لا يكفي لصقل و ترسيخ الملكة ، بل لابد من اجتماع المحفوظات النقية على ـ حدّ تعبيره ـ و يجمع معها << التلطّف في مراعاة الأساليب الشعرية التي جعلتها العرب وقفا على الشعر >> **(3)**

2ـ الشـدّة :

و تأتي الشدّة من المعوقات الخطيرة للملكة حيث يقول ابن خلدون في هذا الأمر"إنّ إرها ف الحدّ بالتعليم مضرّ بالمتعلّم ... وهو من سوء الملكة >> **(4)** ، إذ يقف حاجزا منيعا دون ترسيخ الملكة اللغوية لدى المتعّلم بخاصة في الصغر " من كان مربّاه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم ، سطا به القهر و ضيّق على النفس و ذهب بنشاطها و دعاه إلى الكسل و حمل إلى الكذب و الخبث وهوالتظاهربغير ما في ضميره من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلّمه المكرو

1- "المقدّمة " ص\ 567
2- " نفس المصدر ص \ 580
3- نفس المصدر ص\ 580
4- نفسه ص\ 567

الخديعة لذلك و صارت له عادة وخلقا " (1)

إنّ منطق الشدّة هذا الذي يتحدّث عنه ابن خلدون و الذي طال المتعلّمين على اختلاف مشاربهم من صغار الولدان و الخدم و المماليك ، كان ظاهرة العصر و لها أسبابها و ظروفها الموضوعية إذ هي من مظاهر الانحطاط التربوي في المجتمع المغربي بعامّة .

من أشدّ العوامل تأثيرالهذا المنطق العامل الديني ـ كما يوضّحه الدكتور عبد الله شريط في تحليل تقيمي لهذه الظاهرة .

و العامل الديني المقصود هنا هو التشدد الديني يقول :"إنَ التشدد الديني – و نعني به هنا هـو مذهب مالك – في هذه المنطقة من الوطن العربي – المغرب العربي – قدوجّه كلّ الجهود الفكرية إلى الزهد ... و حصر القوة الفكرية و الحرارة النفسية كلّها في الميدان الديني ، فعاشت شبه معطلة عن العمل إلاّ ما كان يخدم التصوف " (2) .

هذه بعض نتائج " إرهـاف الـحـدّ " من أثر ذلك التضـييق على نـفس المتعلّم و حبس نشاطه والحيلولة دون بلوغ الملكة المرجوة .

ولاتزال جذور هذه الطريقة و الأسلوب من الشدّة سارية متفشية في المغرب إلى عهد قريب هذا البشير الإبراهيمي في نداء إلى المعلمين يعرض المسألة نفسها إذ يقول<< ليحذر المعلّمون الكرام من سـلـوك تلـك الطريقة العـتيقة التي كانت شائعة بـين معلّمي القرآن وهي أخذ الأطفال بالقسوة و الإرهاب يحمل الأطفال على الكذب و النفاق ، وتغرس في نفوسهم الجبن و الخوف ، و تبغّض إليهم القراءة و العلم ، و كلّ ذلك معدود في جنايات الجاهلين بأصول التربية >> (3)

كم هو وجه التشابه بيّنا واضحا بين ما دعا إليه ابن خلدون منذ القرن الثامن الهجري و البشير الإبراهيمي في القرن العشرين الميلادي ، فلم يحصل أيّ تغيير أو تطور ملحوظ في هذا الشأن لا تزال قوانين الشدّة و القسوة السارية في الكثير من المؤسسات التعليمية بخاصة الدينية منها على نفس النمط الذي عاشه ابن خلدون آنذاك .

وهذا أبو بكرالقاضي بن العربي متأسفا لما آل إليه المغرب العربي وهو يرجع إليه من المشرق "ثمّ قدّر الله أن عدت إلى مسقط رأسي ، و صرت غريبا بين قومي لماهم عليه من الهمم القاصرة

1- "المقدّمة " ص \538

2- د\ عبد الله شريط " التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون ص \ 640

3- الشيخ البشير الإبراهيمي \ " البصائر ع 28 \ عن " آثار البشير " ج3 \ ص 161

و الأفهام المتقاصرة ... لقد عظم الخطب ...على أيّ شيء أبكي ، أعلى فوات دنياه أم على دروس العلم و طمسه ...>> (1) ، ثم يقرن أبو بكر بعد رحلته إلى المشرق و بما عرفه من مظاهر الثقافة :<<إنّ في القوم صوتا و في هوائهم صفاء و قلوبهم رحمة و في أنفسهم رقة يتميزون على أهل الجفاء و الجهالة و القسوة >> (2)

بهذه الجهالة و القسوة ظلّ الناس يرزحون تحت وطأته و <<هكذا أوقع لكلّ أمّة حصلت في قبضة القهر و نال منها العسف ، و لا تكون الملكة الكافلة له رفيقة >> (3)

إلاّ أنّ ابن خلدون كان أكثر وعيا بالأمر إ ذ أنّه لا ينفي التأديب و العقاب ، أنّما نفى الاستبداد و القهر ، فالعقاب و التأديب تبقى وسيلة من وسائل العلاج التربوي ، و يقترح لذلك " لا ينبغي لمؤدّب الصبيان أن يزيد في ضربهم ـ إذا احتاجوا ـ إلى ثلاثة أسواط "، ويستدلّ على هذا بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله <<من لم يؤدّبه الشرع لا أدبّه الله >> (4)

و لا يلجأ إلى الضرب إلاّ بعد استنفاذ كلّ الطرق ، يقول أحد المفكّرين التربويين في هذا الشأن القسوة و العقاب :<< و الولد حين يستشعر أنّ المربي – بعد إجراء العقوبة-يحنّ إليه و يعطف عليه ، و ينبسط له و يتلطّف معه ... فلا يمكّنه بحال أن يتعقّد نفسيا أو ينحرف خلقيا >> (5)

و جزى الله الحكيم القائل :

أنّ المربيّ في شرع الهدى رحم *** برّ بمرعيه لا عاتي الخلق
يدمي بسوط الأذى القطعان و هويرى *** في نفسه ضيغما قد صال في غسق
أطفالنا يا رعاة الجيل عندكم *** وديعة لا دمى حطم لدى النزق

1-" التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون " ص \ 640
2- نفس المرجع ص \ 640
3- "المقدمة " ص \ 539
4- د \ عبد الله ناصح علوان " تربية الأولاد " ص \ 768-
5- نفس المرجع ص \ 769

3 ـ كـثـرة التـآلـيـف:

لقد ذهب التأليف في عهد ابن خلدون مذهبين :

(أ) ـ مذهب التآليف الضخمة للمادة الواحدة مثل العلوم النحوية ، و الفقهية :<< و اعلم أنّه ممـّا أضرّ بالناس في تحصيل العلم و الوقوف على غايته كثرة التآليف و اختلاف الاصطلاحات و تعدد طرقها >> **(1)** ، و هذا ممّا يعسر على طالبها تحصيل الملكة العلمية أو اللغوية بسبب التكرار في التآليف للمادة الواحدة << ... في الفقه المالكي وكتاب المدونة و ما كتب عليها من الشروح الفقهية و كتاب سيويه في علم العربية ، وجميع ما كتب عليه ... وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين و الأندلسين و المتقدّمين و المتأخرين >> **(2)**

و بذلك يضيع على المتعلّمين من عمره بحثا عن مذهب أو رأي موحّد ترتاح له نفسه و يتقبله عقله <<أنّ المتعلّم لو قطع عمره كلّه فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هوآلة من الآلات ووسيلة >> **(3)** ، قصد ابن خلدون بعلم العربية ، علم النحو الذي جعل بتلك التآليف الضخمة سواء ـ من المشرق أو المغرب ـ جعل وسيلة على أن يتّخذ غاية .

(ب) ـ مذهب التآليف المختصرة ، في مقابل الكثرة اتجهت بعض التآليف إلى الاختصار في العلوم بحيث تحصر مسائله و قوانينه ، و لعلّه كان يقصد تلك **المنظومات النحوية و الفقهية** الـتي بـرع فيها المتأخرون كاختصارهم علم النحو " ألـفـية ابن مالك " ، و " الأرجـوزات و الأجـرومـيـات << عمدوا إلى الأمّهات المطولة في الفنون للتفسيروالبيان فاختصروها تقريبا للحفظ ، مثل ما فعل ابن الحاجب في الفقه و أصول الفقه وابن مالك في العربية و الخونجي في المنطق ، و أمثالهم >> **(4)** بهذه الطريقة كانت تلقى على المتعلمين مع الحفظ الأصمّ و هذا " فساد في التعليم " ، و بالتالي يحصل من كلّ هذا إعاقة في الملكة << فالملكات الحاصلة من تلك المختصرات فهي قاصرة >> **(5)**و ربما قصرت أكثر بالنظر إلى التآليف المطوّلة لأنّـها معلومات مختزلة شديدة الـحشو بعـيـدة المقصد .

1- " المقدمة "ص \ 567

2- نفس المصدر ص\ 567

3-نفس المصدر ص 567

4- نفس المصدر ص\ 531

5- نفس المصدر ص \ 531

يقول الدكتور ابن حويلي الأخضر ميدني ، أستاذ مكلّف بجامعة الجزائر كلية الآداب و اللغات في مقال له في مجلّة "المبرز" إذ ينقل إلينا تجربته الخاصة عن تلك التآليف المختصرة :<< وكان المعلّم يكلّفنا و نحن صبية في مرحلة التحصيل بكتابة و حفظ مسلسلا من "**منظومة ابن عاشر** " في الفقه و العقائد و **منظومة ألفية ابن مالك** في النحو ، و نحفظها صمّاء دون شرح و لا تعليق،ثم تردّد على مسامع الشيخ تماما مثل ما نفعل مع حفظ آي الذكر الحكيم ، و من لم يحفظ عوقب **بالفلا قة** .>> (1)

4 ـ العجمة (و أثرها في فساد اللسان و الملكة)

العجمة في الاصطلاح الخلد وني :

العجمة : "بيئة لسانية غير بيئة العرب تجعل صاحبها مقصّرا في لغة العرب (2)

عجم : " من ليسوا عربا ، و هم مقصورون في اللغة العربية " (3)

أعاجم : " علماء العجم ، بسبب التقصي في التعمق في اللغة العربية ،فإنّهم يعدلون في دروسهم و مجالس تعليمهم عن نقل التفاسير من الكتب إلى قراء تها ظاهرا " (4)

أعجام : علماء غيرعرب صاروا من الجهابذة أمثال سيبويه و الفارسي و الزمخشري الذين صاروا فرسان الكلام و ذلك لأنّهم كانوا عجما في نسبهم فقط " (5)

مستعجم : " هو الذي عنده قصور في اللغة العربية بسبب العجمة السابقة " (6)

أمّا تحديد الكلمة قاموسا فهي : الأعاجم و العجم : بالضمّ و بالتحريك تعني خلاف العرب و " الأعجم " من لا يفصح كقولنا أعجمي ، جاء في الآية :<< ... **لسان أعجمي** >> (7) أي لسان غير عربي .

---

1 مجلة المبرز" جامعة الجزائر \ كلية الآداب و اللغات ع \19\ س \ 2003\ ص 40- "

2- 3-4- " المقدمة " ص \ 554

5- نفس المصدر ص \ 555

6- نفس المصدر ص \ 542

7- الآية \

من خلال هذه المقدمة الاصطلاحية المعجمية يتبين مايلي :أنّ الأعاجم صنفان :

1 ـ صنف أجنبي تماما عن العرب في نسبه و جنسه و **لغته** ، فهو لا يفصح .

2ـ صنف آخر مولّد النشأة و هو من يتكلّم العربية و لكنّه عجمي و إن أفصح .

و هؤلاء من يطلق عليهم الجاحظ **الناشئة** كما قال : <<لا يفصحون بالمرّة لأنّ لهم لغة غير العربية أو يفصحون لكن أنسابهم غير صحيحة في العرب >> **(1)**

إنّ العربي قبل أن تدخل العجمة إلى لسانه كان يعتمد على ملكته اللسانية التي نمت من خلال بيئةعربية نقية صافية ، والبيئة العربية <<هي أداة تكوين الملكة وليس مجرّدانتماء إلى العرب> **(2)**

و يؤكّد ابن خلدون هذا المنبع الذي حافظ على صفاء اللغة حين "كانت لغة قريش أفـصح اللغات العربية لبعدهم عن العجم من جميع جبهاتهم ثمّ من اكتنفهم من ثقيف و هذيل و خـزاعـة و بني كنانة و غطفان و بني أسد و بني تميم "**(3)**

هذا ما يؤكّده **الفارابي :**"أنّ لـغات الأمّة إنـّما تـؤخذ منسكان البراري لأنّ العـجمية لـم تخالطها واللّحن لم يتفشى في ثنايا نحوها "ثم يضيف" و أنت تبين متى تأمّلت أمر العرب في هذه الأشياء، فإنّ فـيهم سكان البراري و سكان الأمصار، وكان الذي تولى ذلك من بين أمـصارهم، أهـل الكـوفة و البصرة من أرض العـراق،فتعـلّموا لغتهم و الفصيح منها من سكـان البراري منهم دون أهل الحضر ، و هم قيس و تميم و أسد و هذيل ، فإنّ هؤلاء معظم من نقل عنه لسان العرب"**(4)**

قصور الأعاجم عن تحصيل الملكة اللسانية ـ:

لابن خلدون نظرة موسعة في هذا المضمار نوجزها في أنّ :

(أ) ـأنّ الأعاجم الداخلين في اللسان العربي و كانت لهم لغة أخرى و هو مضطرون للنطق بالعربية فإنّهم يحصلون علينا ممّن يخالطونهم من العرب << فهؤلاء ليس لهم من الإجادة القوية لأنّ اللغة السابقة قد استحكمت فيهم >> **(5)**

1-" الجاحظ" الحيوان " ص \ 183

2-" محمد فاروق نبهان" الفكر الخلدوني من خلال المقدمة " ص \ 349

3-" المقدمة " ص \ 555

4- " الفارابي " الحروف" ص\ 1 5-المقدمة .

(ب) – إذا لجأ هؤلاء الداخلون في اللسان العربي إلى تحصيل الملكة بالتعليم من كلام العرب شعرا و نثرا فإنّهم قد يحصلون عليها و لكن كما يقول ابن خلدون << تجيء ناقصة أو مخدوشة لأنّه قد سبقت لهم ملكة أخرى للغاتهم الأصلية و هذه تعوق الملكة الجديدة ، فيفترقون بذلك عن العرب الأصلاء .>> (1)

أمّا العجمة التي قصدها ابن خلدون ليست العجمة النسبية فتلك العجمة لا تمنع من امتلاك ناصية اللغة ، إذا أتيح للفرد أن يعيش في بيئة عربية لا تسمح له بأن يتذوق الصنعة العربية و التركيب العربي و هي <<عجمة لا يختص بها الأعاجم نسبا و إنّما تشمل كلّ من اختاروها عن إرادة أو فرضت عليهم العجمة لأي سبب من الأسباب >> (2)

ـ عوامل قصور الأعاجم عن تحصيل الملكة اللسانية :

من العوامل الأساسية التي يعتقد ابن خلدون أنّها تعوق الأعاجم أو المستعربين – كما يسميهم أحيانا – في تحصيل الملكة العربية .

ـ أنّ أهل اللسان بالأمصار قد فسدت لغاتهم ، فلهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ، و هذا بسبب اختلاط الأجناس المعروفة في البلاد العربية ، و يرجع عهدها إلى الفتوحات الإسلامية حيث ظلت الأمّة و المجتمع ـ مع هذا الفتح ـ تعاني ظاهرة العجمة اللسانية المتفشية في الأمصار أي المدن و الحواضر .

من الواضح أنّ الحضر مؤشّر على انتشار العجمة لكثرة اختلاط سكانه بغيرهم من الأمم ، فالاختلاط الذي بدأ منذ القرن الثاني الهجري بين الأعاجم و العرب أمّا بداية العصر العباسي الأوّل و على امتداده كثر الأعاجم بين العرب ، فخالطوهم في الأمصار و الحضر << بحكم عوامل اجتماعية و سياسية لا قبل لأحد بدفعها و هؤلاء الذين أطلق عليهم المولّدون >> (3)

هؤلاء الذين وقف الجاحظ منهم موقفا قائلا :<<إنّ المولّد لا يؤمن عليه الخطأ ، إذا كان دخيلا في ذلك الأمر ، وليس كالأعرابي إنّما يحكي الموجود الظاهر الذي عليه نشأ وبمعرفته غذي >>(4)

1-" المقدمة " ص 555
2- " الفكر الخلدوني " ص \ 351
3- نفس المرجع ص \ 349
4- "الجاحظ " الحيوان ج4 \ ص 183

فالاختلاط هو سبب العجمة و ليس السكنى في الأمصار ، فإذا كان أهل الحضر أبعد عن الاختلاط كانوا أبعد عن العجمة ، فالعجمة ـ إذن ـ ظاهرة يولّدها الاختلاط باللغات الأخرى ممّا يمهّد الطريق لوجود ملكة لسانية مغايرة للملكة العربية الأصيلة .

وبالتالي فالمعادلة الخلدونية الافتراضية ـ المستنتجة ـ تقول :

ـ كلّما كان الاختلاط ←———— فساد اللسان و الملكة

هذه الظاهرة اللغوية هي إحدى الظواهر التي أكّد عليها ابن خلدون و هي محور تحرّكه في هذا الإطار الخاص بالعجمة وأثرها على اللسان العربي << و هي منسجمة مع قوانينه الفكرية في في تفسيره للظواهر الاجتماعية ، فكلّما زاد الاختلاط ازدادت العجمة ، و العجمة هي الابتعاد عن اللسان المضري >> (1)

ولذلك المتتبع لتاريخ اللغة وانتشارها يجد أنّها قدازدهرت حيث ازدهراللسان العربي وتراجعت حيث انتشرت العجمة .

أمّ الأمصار المقصودة بالعجمة مثل الأندلس والمغرب وافريقية ومصروالمشرق ، حيث توالت عليها الأجيال و اختلطت بها أجناس ، و هي قريبة من العجم ، ثمّ إنّ أصول هذه البلاد غيرعربية ثمّ يدلل على ذلك بأنّ أهل إفريقية و يقصد الجزائر و تونس و هم أعرق في العجمة و أبعد عن اللسان الأوّل و هم قاصرون عن تحصيل الملكة بالتعلم << وذلك بسبب استحكام العجمة من جهة و ملكة اللسان البربري الأصلي من جهة ثانية (2)

أمّا الأندلس فهم أقرب في تحصيل الملكة و هذا بسبب عنايتهم الفائقة بالمحفوظات اللغوية و النثرية و الشعرية .

أمّا المشرق فبقي اللسان المضري محتفظا ـ إلى حدّ ما ـ إلى<< عهد الدولة الأموية والعباسية حتى غلب الأعاجم على الملك و الدولة و تلاشى أمر العرب و فسد كلامهم ، و صار من يتعلّم الملكة اللسانية مقصّرا عن تحصيلها >> (3)

1- " الملكة اللسانية" ص \ 78

2-نفس المرجع ص\ 78

3- نفس المرجع ص \97

ـ علماء الإسلام من العجم

سؤال يطرح نفسه ـ ما بال أكثر حملة العلم في الإسلام من العجم ؟ !

الإجابة بكلّ بساطة و يقين أنّه قد تهيّأ لهؤلاء كلّ العوامل التي أهلتهم لأن يحملوا العلم ، ثم كان مربّاهم و منشؤهم الحضارة الإسلامية<< و أجادوا ملكة اللغة العربية فأحسنوا الإجادة ، و كتبوا في علومها فأحسنوا الكتابة >> **(1)**

إنّ عامل المربّى و النشأة هو الذي مكّن لهؤلاء أن يتفننوا و يجيدوا الملكة باختلاف اتجاهها فقد برعوا في علوم شتى ، إذ يعلّل ابن خلدون قائلا :<< فإن عرض لك ما تسمعه من أنّ سيبويه و الفارسي و الزمخشري و أمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول الملكة لهم ، فاعلم أنّ أولئك القوم ... إنّما كانوا أعجاما في نسبهم فقط ، أمّا المربّى و النشأة فكانت بين أهل الملكة من العرب ، فهم إذ كانوا عجما في النسب فليسوا أعجاما في اللغة و الكلام لأنّهم أدركوا الملّة في عنفوانها و اللغة في شبابها، ثمّ عكفوا على الممارسة و المدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته >> **(2)**

ـ العجمة بالنسب + المربى و النشأة = ملكة صحيحة و سليمة

وملخّص ذلك كله أنّ العجمة في مفهوم ابن خلدون تبقى بالدرجة الأولى عجمة المجتمع وعجمة التعبير ، و ليست عجمة النسب أو عجمة البلد ، و لهذا واقعنا الأدبي يعكس ذلك ، فقد نجد من أبناء الأعاجم من يتقنون لغة العرب و يحسنون أداءها ، فاستحكمت ملكتهم فأخذوا بناصية اللغة و التعبير السليم <<و في مقابل ذلك فإنّ عجمة اللسان قد نجدها لدى أبناء العرب و في مجتمعات عربية ذات أعراق عربية أصيلة >> **(3)**

و لكنّها حياة الأمصار ـ أو المدن بالتعبير المعاصر ـ و ما يرافقها من اختلاط يجعل من البيئة الاجتماعية بيئة عجمة في اللسان العربي .

1- " المقدمة " ص \ 544

2- نفس المصدر ص \ 545

3-" الفكر الخلدوني ص \ 354

ـ العامية من مظاهر العجمة

إنّ الملاحظ لواقع العربية و حالها في الوطن العربي برمته لا يملك من الأمر شيئا سوى التعبير بالأسى و الأسف لما آلت إليه وضعية العربية التي كانت إلى عهد ابن خلدون أرحم و ألطف ممّا هي عليه اليوم ، إذ صارت العامية اللسان البديل للفصحى .

و العامية ـ عموما ـ لا تنشأ في معظم الأحوال إلاّ في محيط و بيئة جاهلة لا تجيد التعبير و لا تجسن النظر و لا تملك الرصيد اللغوي الذي يمكّنها من التركيب الصحيح ، و لذا فقد أصبحت العامية الكيفية الميسّرة ، المفهومة و المقبولة .

و العامية أكثر خطرا من الكلمات الأعجمية ، إذ خضعت لمسار و قوانين خاصّة إلى درجة أن صارت لغة الكتابة الأدبية و القصصية ، و لها أنصارها و ممجّدوها .

و عليه فلا سبيل للخلاص من هذه العجمة المعاصرة إلاّ بالعودة إلى المنابع و الأصول بالمحافظة على لغة القرآن و بذل كلّ الجهود المنيعة و المحصّنة للحدّ من خطورتها وسلبياتها على المجتمع العربي و الأمّة الإسلامية قاطبة .

* خامسا ـ منهج ابن خلدون التعليمي و علاقته بالملكة

عرض حال لواقع التعليم في المغرب و المشرق العربي:

إنّ ابن خلدون تفطّن إلى العلاقة الوثيقة بين الملكة و طريقة التعليم و مناهجه السائدة في المغرب العربي أو المشرق ـ آنذاك ـ

ـ أمّا المغرب : <<فمن أسباب تأخّر التعليم بسائر أقطار المغرب بقائه خلوا من التعليم من لدن قرطبة و القيروان ، إنّ سند التعليم فيه لم يتصل ، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في التعليم و كان من نتيجة ذلك أن جهل المغرب أيسر طرق هذه الملكة وهي فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ، فهو الذي يقرّب شأنها و يحصل مرامها ، فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون >>(1)

ـ أمّا الأندلس فلم يبق من رسم التعليم عندهم إلاّ انقطع سند التعليم فيها بتناقص العمران و تغلّب العدوّ على عامتها .

ـ أمّا المشرق << فلم ينقطع سند تعليم العلم >> (2) ، يرجع ابن خلدون هذا التفاوت إلى مسألة الحضارة و العمران .

لم يغفل ابن خلدون عن تقديم شتى الأفكار التربوية لرجال التربية و التعليم في عصره ، و هي جديرة في عصرنا لأنّها لا بقل أهمية عمّا يذهب إليه علم اللسان التربوي الحديث ، و هذا بعد نقده اللاذع للطرائق التعليمية التي كانت سائدة في عصره و كيفية تأدية المعلّمين لها :<< و قد شاهدنا كثيرا من المعلّمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم و إفادته ويحضرون للمتعّلم في أوّل تعليمه المسائل المقفلة من العلم و يطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها و يحسبون ذلك مرانا على التعليم و صوابا فيه و يكلفونه رعي ذلك و تحصيله ويخلطون عليه مما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها .>> (3)

1-" المقدمة " ص \ 403
2 - نفسه ص \ 403
3- نفسه ص \ 402\403

و تظهر معالم منهج ابن خلدون التربوية في تلك الطريقة الناجعة التي رسمها للناشئة في تحديده للآداب و الشروط الواجب توفرها في المعّلم و المتعلّم ، فقد أكّد صراحة أنّ عملية التعليم " طبيعية في العمران البشري ، فالإنسان متميز عن سائر خلق الله بالفكر الذي يهتدي به ، فهو توّاق إلى تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات ، فينشأ عن ذلك موقف تعلّمي " **(1)**

ومن ثمّ جاء هذا المقترح التربوي في طريقة تلقين العلوم التي تقوم على ثلاثة أعمدة و هي المعلّم ، المتعلّم و الطريقة و بالتالي تتحقق الأهداف التربوية و التعليمية بمقدار ما يتوفر لهذا الموقف التعليمي من شروط ، ذلك لأنّ التعلّم << هو اكتساب العلوم و اجتلابها إلى القلب >> **(2)**

ـ معالم المنهج

من الصعب الفصل بين المنهج و الموضوع ، فبدون منهج تصبح كلّ دراسة علمية لأي موضوع أو ظاهرة مستحيلة ، و لهذا تجد ابن خلدون قد حددّ و رسم لخطته التربوية شروطها التي ينبغي على المعلّم و المتعلّم ـ على حدّ سواء ـ التحلي بها حتى تؤتي العملية التعليمية نجاحها و أثمارها .

فمن البديهي أنّ الإنسان لا يتعلّم أي خبرة أو مهارة فكرية إلاّ إذا كان حاصلا على الشروط اللازمة للقيام بهذه العملية .

ـ من أهم الشروط المتعلقة بالمربّي أساسا أو المعلّم

إذ هو العنصر الأساسي في العملية التربوية ، فهو المتصرف في قلوب البشر ، و هو أيضا بمثابة الطبيب المعالج للنفق من مرضها و جهلها بالعلوم ، بل إنّ مهمّته أخطر فيما يؤكّده الغزالي من مهمّة الطبيب <<لأنّ الأوّل متصرف في العقول و القلوب في حين أنّ الثاني متصرف في الأبدان >> **(3)** ، و شتان ما بين النفس و البدن ، فمهمته إذن شريفة إلى حدّ تجعله وريثا للأنبياء ، و من تصدّر و تقلّد أمرا عظيما مثل هذا يفرض عليه آداب و شروط :

*-- <u>كأن يكون المربي قادرا على التعليم</u> ، ذا كفاءة ، غير مستبّد ، لا يكون قاسيا غليظا مع

1-" الفكر الخلدوني" ص |
2-" إحياء علوم الدين " ص\
3-"نفس المصدر " ص \

المتعلّم لكي لا يجرّه إلى الكذب وذلك لأنّ "إرهاف الحدّ بالتعليم مضرّ سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء **الملكة** .

*-- أن يكون ذا ثقافة عامةتمكّنه من إفادة المتعلمين إفادة متنوعة ، ملمّا بطرائق التعليم و مبادئه و مهاراته متوقفا عند مسائله ، مستنبطا فروعه من أصوله حتى يحقق التعليم أهدافه الحقيقية باعتبار ابن خلدون << التعليم صناعة >> (1) ، شأنها شأن بقية الصناعات الأخرى ، فنجاحها وفشلها يرتبطان بالقائمين عليها ، و لذلك كان المعلّمون هم سند هذه الصناعة .

وهذا هوالمبدأ الذي يمثّل اليوم إحدى الاهتمامات الرئيسية للمشرفين على قطاع التربية و التعليم بإحداث المراكز و الهيئات لاستقبال رجال التربية و التعليم وهذا بهدف توسيع معارفهم التربوية و تدريبهم على الأداء التربوي الجيّد وفقا لمتطلبات العصر و تحدياته العلمية و التكنولوجية.

ولا يزال ابن خلدون يقدّم أحسن الصورة التعليمية في أحسن الأفكار التربوية التي توافق العقل الصحيح .

*-- عدم الاستكثار من العلوم الآل ، و جعلها غاية في حدّ ذاتها كالعلوم النحوية التي عكف علـ وصفها و تحليلها في كثير من فصول علوم اللسان ، فالتعمق في هذه العلوم يخرجها عن الهدف و الغاية ، و هو ما يوافق رأي الجاحظ :<< و أمّا النحو فلا تشغل قلبه (قلب الصبي) منه إلاّ بقدر ما يؤدّيه إلى السلامة من فاحش اللحن ، و من مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ، و شيء إن وصفه ، و ما زاد على ذلك فهو مشغلة عمّا هو أولى به >> (2)

وعليه فإنّ الاشتغال والإكثارمن المسائل يصير في رأي ابن خلدون ضربا من اللغو<< و هذا ما فعله المتأخّرون في صناعة النحو...لأنّهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلا واستدلالا وهي مضرّة بالمتعلّمين على الإطلاق .>> (3)

ولهذه النتيجة المضرّة ،لا تزال الدّراسات المعاصرة في مجال اللسانيات التربوية تسعى جهدها في تبسيط المفاهيم و القواعد النحوية في المعاهد والمدارس ، وثمرة هذه الجهود نراها عند الغرب بخاصة في عنايتهم الفائقة في تعليم اللغة بقواعدها النحوية والصرفية بأيسر الطرق كاللغة **الإنجليزية** التي أصبحت اللغة الأولى في العالم ؟!

1-" المقدّمة" ص 402

2-" رسائل الجاحظ "

* المتابعة و الاستمرار في تلقين العلوم وعدم الخلط من المسائل التي يؤكّد عليها ابن خلدون << و كذلك لا ينبغي لك أن تطول على المتعلّم في الفن الواحد لتفريق المجالس و تقطيع ما بينهما ، لأنّه ذريعة إلى النسيان و انقطاع مسائل الفن بعضها من بعض << **(1)**

* مراعاة الفروق تنبه ابن خلدون إلى مسألة تربوية ذات الأهمية الخطيرة وهي مقدرة كلّ متعلّم في العملية الإدراكية التحصيلية ، فالأفراد يختلفون في درجة الذكاء << و هو كما رأيت إنّما يحصل في ثلاث تكرارات ، و قد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه << **(2)** ، وهو ما يؤكّد عليه علم النفس التربوي الحديث من ضرورة مراعاة جانب القدرة العقلية و النفسية للمتعلّمين يقول أحد التربويين النفسانيين :<< الأفراد يختلفون في الكلام ، و في سرعة السرد ، و يتفاوتون في رصيدهم من اللغة و المفردات ، كما يتمايزون من حيث الصوت و أنّ لكلّ منهم أسلوبه في الإنشاء الأدبي و سرعة التحصيل << **(3)**

* أسلوب التدرج إنّ التدرج في التعليم من أهمّ ما ركّز عليه ابن خلدون في مجال بيان منهجه التعليمي ، و هو الطريقة الناجعة في تلقين العلوم ، و التدرج إنّما يكون << مفيدا إذا كان شيئا فشيئا ، و قليلا قليلا ، يلقى عليه أوّلا مسائل من كلّ باب من الفن هي أصول ذلك الباب و يقرّب له في شرحها على سبيل الإجمال ، و يراعى في ذلك قوة عقله و استعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم << **(4)**

يعدّ التدرج أحد المبادئ المساهمة في نجاح العملية التعليمية لذلك فهو يقترح أن يكون في ثلاث تكرارات أو على ثلاث مراحل :

الأولى : إجمال لأصول العلم

الثانية : تفصيل لجزئياته

الثالثة : تحليل للمستغلقات من مسائله

<< يبدأ المعلّم بالشيء الواضح قبل الغامض و بالبسيط قبل المعقّد و بالجزء قبل الكلّ وبالعملي قبل النظري و بالمحسوس قبل المجرّد << **(5)**

1- 2-4 " المقدمة " ص \ 531-532

* الرحلة وملازمة الشيوخ يربط ابن خلدون الرحلة بلقاء الشيوخ لما لها من أثر في ترسيخ ملكة العلم من جهة و من جهة تعدد التجارب و الخبرات التعليمية و اختلافها و تنوعها << فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها ،. فبلقاء أهل العلوم و تعدد المشايخ يفيده وتنهض قواه إلى الرسوخ و الاستحكام ، مع تقوية في ملكته >> (1)

يشير ابن سينا إلى منافع مخالطة الشيوخ والمنافسة ، و يقصد بها منافسة الأقران من المتعلّمين فيقول :<<فإنّه يباهي الصبية مرّة و يغبطهم... ثم يحادث الصبيان ، و المحادثة تفيد انشراح العقل و تهذيب لأخلاقهم و تحريك لهممهم و تمرين لعاداتهم >> (2)

إنّ ابن خلدون وابن سينا متفقان في وجوب مراعاة ملكات الناشئ و ميوله الفطرية يقول كمال اليازجي << يوصي ابن سينا بوجوب التوجيه المهني و بمراعاة الحذق الفطري فيحذر- هوأيضا- من حمل الناشئ على صناعة لا يطيقها و لا يجد في ممارستها لذة .>> (3)

.

1-" المقدمة " ص \
2- " كمال اليازجي " معالم الفكر العربي " ص \
3- نفس المرجع ص \

*خـــــاتـــــمـــــة

و صفوة القول إنّ العلامة ابن خلدون يعدّ بحق موسوعية علمية تناولت شتى حقول المعرفة ، فأفكاره التربويةلا تقلّ أهميةعمّا تذهب إليه اللسانيات التربوية الحديثةPedago-Linguistique و لذا يمكننا وصفه بالباحث اللساني السابق لعصره ، فقد تنبه إلى العديد من القضاياالتربوية بخاصة ما تعلّق منها بالمسألة التعليمية ، فهي المحور الأساس الذي انبثق منه منهج يكاد يكون متكاملا ، على الرغم من توزّعه ـ في المقدمة ـ عبر الفصول الخاصة باللسانو علومه ، إلا أنّ ملامح التفكير التربوي الخلدوني واضحة بيّنة ، حيث اعتمد فيه على تشخيص الداء و تقديم الدواء الأنجع و الأيسر ، كلّ ذلك لإيجاد السبيل الأ قوم إلى **ملكة لسانية و صناعية** ، لغوية أو علمية متينة .

حيث قدّم مفهوما دقيقا للملكة مميّزا بين اللغة كملكة و اللغة كصناعة ، بين نوعين من المعلومات المعلومات الخاصة بالملكة و المعلومات الخاصة بالصناعة ، حيث كان يقصد بالأولى اللغة كنظام و علم مجرّد وقوانين ، و الثانية اللغة كإنجاز أو تحقيق فعلي في صورة كلام أو كتابة و يمثّل هذا النوع جانب الاستعمال .

الفصل الثالث

من قضايا نقد
الشعر عند ابن خلدون

*حد الشعر
*اللفظ و المعنى
*الطّبع و الصنعة
*سمات التصوّر النقدي لابن خلدون

* تـمـهـيـــــــد

لقد كان للعرب نهضة ثقافية تتمثل في أدبها شعره و نثره و كان الشعر الجاهلي ذروة هذه النهضة ، و تعبيرا عن أحاسيس الفرد و تصويرا لواقع الجماعات ، و إن كان ما ضاع منه لأعطى الصورة الحضارية الحقيقية للعرب قديما .

يقول أبو عمرو بن العلاء : << ما انتهى إليكم مما قالت العرب من هذا الأدب إلاّ أقلّه ، و لـو جاءكم وافرا لجاءكم علم و شعر كثير >> **(1)**

ولاشك أنّ النظرة العقلية الخالصة تربط بين تقدم الأدب و تقدّم نقده باعتبار أنّ الأخير موجّـه للأوّل و مقوّملما اعوجّ منه و مقدّر لما استقام .

و الواقع التاريخي يؤكّد هذا الرباط بين الفنين ، و حسبنا بالعصر الحديث دليلا ، إذ صاحب النهضة الأدبية نهضة نقدية ، و اتسّم الأدب و لنقد في كلّ مرحلة منه بسمة واحدة بين الإحياء و التجديد .

و العرب كان لهم في جاهليتهم أدب ممتاز و شعر رائع ، ولكن النقد الذي أثر عنهم ، لا يتناسب مع قوة شعرهم ، وليس السبب في انعدامه لأنّ انعدامه مخالفة لما يستسيغه العقل و مجافاة لطبيعة التطور و نقضا لما عرف بالتجربة و الاستقراء .

لعلّ السبب في ذلك فقدان ما روي عنه طالما هذا في مجال النثر و المعروف لديهم اعتمادهم على الرواية الشعرية أكثر من النثرية .

مبادئ النقد في الجاهلية:(صورة عامّة)

يكاد يجمع أكثر الباحثين أنّ النقد آنذاك جرى على الطريقة الفطرية التأثرية ، يقول د. حفني شرف :<< كان النقد قائما على الذوق و الإحساس ، لا على أصول و مقاييس>> **(2)**

فهذا النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة من أدم في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، مثل ما تبارى عنده الأعشى و حسان بن ثابت الذي أنشده :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى *** و أسيافنا يقطرن من نجدة و دما
ولدنا بني العنقاء و ابني محرق *** فأكرم بنا خالا و أكرم بنا إبنا

-1- ابن سلام " طبقات فحول الشعراء" ص\ 23

-2-" بين ابن طباطبا وابن قتيبة" عبدالسلام عا ل ص\60

فقال النابغة : << أنت شاعر و لكنّك أقلت أجفانك و أسيافك و فخرت بمن ولدت و لم تفخر بمن ولدك ؟!

إنّ نقد هؤلاء في الجاهلية أكثر ما يقتصر على النقد اللغوي الذي يعتمد على دلالات الألفاظ و استعمالاتها في الوجوه المرتضاة مثل ماهو واضح من نقد النابغة لحسان ، فقد كان يرجو منه غاية على اعتبار النابغة أنّ حسّان شاعر ... (1)

ـ في عهد الخلفاء الراشدين

ـ ويتوالى النقد العربي بعد العصر الجاهلي ، حيث روي عنهم ما يؤكّد اهتماماتهم النقدية و بين طابع هذا النقد.

فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقدّم زهيرا من شعراء الجاهلية إذ قال لابن عباس :<< يا ابن عباس ! ألا تنشدني شاعر الشعراء ؟! فقلت ـ المتحدّث ابن عباس ـ : يا أمير المؤمنين و من شاعر الشعراء ؟ قال :زهير قلت : لم صيّرته شاعر الشعراء! قال لأنّه لا يعاضل بين الكلاميين و لا يتبع وحشي الكلام ، و لا يمدح أحدا بغير ما فيه >> (2)

و قد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم رأيه في الشعر أنّ أحسنه حسن ورديئه رديء وحسبه أنّه اتخذّ حسان ـ رضي الله عنه ـ شاعرا له :" اهجوهم و روح القدس " كلمة قالها عظيم عظماء لحسان يشجّعه غلى الهجاء .

و تلك الأقوال البلاغية للإمام علي ـ كرّم الله وجهه ـ التي تعبّر عن ذوق وإحساس نقدي معين ، فهو يعرّف البلاغة:" البلاغة إفصاح عن حكمة مستغلقة ..." أمّا عن البلغاء : " مل رأيت بليغا إلاّ و له في القول إيجاز و في المعاني إطالة " (3)

ـ الترجمة و أثرها في توجيه النقد العربي :

و يأتي القرن الثالث الهجري محطة للكيان الإسلامي حيث أثبت حضوره في المجال الحضاري و أسّس هويته في معترك التطور ، فكان الانفتاح على الثقافات الأخرى عن طريق حركة الترجمة

1-المرزباني " الموشح " ص \

2-"عبد السلام عبد العال " بين ابن طباطبا و ابن قتيبة ص \ 64

3- المرجع السابق ص \ 64

الواسعة و التي بلغت عناية فائقة في عهد المأمون الخليفة العباسي الذي أمر بإنشاء مدرسة لتعليم اللغات الأجنبية و إرسال البعوث إلى بلاد الرومان ... وما إن جاء المعتصم حتى كان أكثر الكتب الأجنبية قد نقل إلى العربية .

فاستكملت الثقافة العربية تأسيسها و تجدّر في المسار التاريخي دين الإسلام و تشكّل من خلاله و به الوعي العربي ، و لأنّ البيان العربي امتدّت فروعه مستلهما لغة القرآن و ما جاءت به قريحة أبناء شبه الجزيرة العربية منذ المرحلة الجاهلية .

و لقد كان لهذه الكتب المنقولة آثار في النقد العربي ، ممّا رويت فيه جوانب منه " كالبيان و التبيين " و " أدب الكاتب " و " الموازنة " و " الصناعتين " .

و من ذلك ما رواه الجاحظ في شأن البلاغة << حين قال معمر أبو الأشعث لبهلة الهندي: ما البلاغة؟ فقال بهلة : عندي الصحيفة و لا أحسن ترجمتها ، فقال الأشعث فلقيت بتلك التراجمة فإذا فيها :"أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، و ذلك بأن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخيّر اللفظ ... ، وقيل للفارسي ـ ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل و الوصل ، و قيل لليوناني ـ ما البلاغة ؟ قال: تصحيح للأقسام و اختيار الكلام ، و قيل للرومي ـ ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة و الغزارة يوم الإطالة >> (1)

لقد كان للنقلة من العصر الأموي إلى العصر العباسي الذي اتسعت فيه دائرة الثقافة بجميع فروعها ، بتدوين العلوم و الفنون و بخاصة في ميدان الشعر و النقد ، و لم تعد في هذا العصر اهتمامات النقاد مقصورة على المعاني و ما مدى تأثيرها ، إنما نظروا إلى الألفاظ و التعابير و الصياغة و الأسلوب ككّل ، فتكلّموا في لغة الشعر و ما يستحسن و ما يستكره و أحصوا على الشعراء أخطاءهم التي سجّلها عليهم علماء اللغة خاصة ، و تعرّضوا إلى العروض و ما يتعلق من زحاف ..ثمّ تدرّجوا في صميم العملية الشعرية ، فوصفوا الخيال و الاستعارة و الإبداع و... فألّفوا في ذلك كتبا عديدة في فنون البلاغة من بيان و بديع ، و تعرّضوا إلى جميع موضوعات النقد العربي تقريبا كالحديث عن نشأة الشعر و النثر ، و الألفاظ و المعاني ، و القديم و الجديد ، و بناء القصيدة و الأوزان و القوافي .

1- المرجع السابق ص \ 116

هذه أهم القضايا التي أثارها النقاد الأوائل ثم تناولها تلامذتهم من بعدهم ، سواء في المشرق منذ ابن سلام ، وابن قتيبة و قدامة بن جعفر إلى الآمدي و عبد القاهر الجرجاني ، و ابن طباطبا... أو في المغرب منذ عبد الكريم النهشلي إلى الحصري ، فحازم القرطاجني إلى ابن رشيق إلى صاحبنا ابن خلدون .

و لمّا كنا نبحث في آراء ابن خلدون النقدية رأينا من الضروري الإشارة إلى أهمّ القضايا التي كثر الحديث فيها و دار النقد و سواء اختلفوا أو اتفقوا فتبقى وجهات نظر و آراء ساهمت في إثراء حركة نقدية معينة و أضافت إلى تاريخ الأدب تراثا نقديا ، و من هذه القضايا التي كان لابن خلدون آراء خاصة :

1- الحديث عن حدّ الشعر و ماهيته

2- قضية اللفظ و المعنى

3- المطبوع و المصنوع

أمّا دراستنا لهذه القضايا تقتضي منا التعرض إلى من سبقوه من النقاد المشارقةأ والمغاربة من خلال آراءهم و نظرياتهم بالاستقراء تارة و الاستنتاج تارة أخرى لنخلص بعدها إلى تقويم عام و صورة نقدية خاصة لابن خلدون .

أوّلا قضية حدّ الشعر :

ليس من السهل وضع تعريف جامع مانع و هو أصعب ما يكون في ضروب الإنتاج العقلي ،لأنّ التعريف لا يخلو من التحديد و العقل البشري لا يخضع بسهولة للحدود و القيود ، و لكن الصعوبة هذه لا تمنع التعرف إلى المحاولات التي بذلها العلماء و النقاد في سبيل تعريفه .

أمّا الشعر لغة " هو منظوم القول ، غلب عليه لشرفه بالوزن و القافية و ربما سمي البيت الواحد شعرا من باب تسمية الجزء بالكل كقولك الماء للجزء من الماء و الهواء للطائفة من الهواء ، قال: الأزهري : " الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، و الجمع أشعار و قائله شاعر لأنّه يشعر بما لا يشعر غيره ".**(1)**

1- لسان العرب ج 4 ص \ 410

لقد عرّف اليونان القهاء الشعر ، محاكاة الأشياء ممّا يمرّ خلال الحواس ـ عند آرسطو ـ مثلا و الشاعر يروي ما يحتمل أن يحدث ، و قال "هو راس" :الشعر كالرسم ، و لكنّ الرسم صامت . هكذا تأثر الغربيون بتعريف الإغريق للشعر ، و لكنّهم تفاوتوا في مقدار فهمهم ، فمنهم من جعل الشعر محاكاة للطبيعة ، و منهم من ربط بين الشعر و الجمهور ، و بذلك تفاوتت النظريات نفسها فبعضها متطرف في الواقعية و بعضها ممعن في المثالية (1)

قال ليوناردو دافينشي:" الشعر الغنائي أساس للشعر كلّه " ، و قال ودزورث : " إنّ الشعر فيض تلقائي " ، و قال هردر :إنّ الشعر نمو طبيعيفي كلّ الأجناس و إنّه نتاج غرائز مشتركة بين الجميع و أنّ الشعر الأصيل يعبّر عن الشعور " (2)

أوّلا حدّ الشعر عند القدماء (من المشارقة و المغاربة) :

1- ابن سلام :

يقرر ابن سلام :<<أنّ للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم كسائر العلوم و الصناعات >> (3) ، كيف يكون الشعر عند ابن سلام ؟ يكون أصيلا و يكون للعربية حجة قوي المعنى مضربا للمثل ، رائع المديح مقذعا في الهجاء معجبا في الفخر ، طريفا رقيقا في النسيب (4)

ثمّ يمضي ابن سلام في تقديره الشعر من خلال تصنيفه للشعراء و إنزالهم مستوياتهم " ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية و الإسلام و المخضرمين فنزّلناهم منازلهم و احتججنا لكلّ شاعر له من حجة و ما قال فيه العلماء " (5)

1- "إحسان عباس " فن الشعر" ص \ 19

2- نفسه \ ص 19

3- "ابن سلام" طبقات فحول الشعراء " ص \ 1

4- نفسه ص\ 6

5- نفسه ص \ 6

لقد استقى ابن سلام منهجيته باعتماده آراء العلماء و الرواة ، فمنحته تلك الآراء شكلا جديدا ، فاستلهم فكرته ـ الفحولة ـ من الأصمعي كما استلهم فكرة الطبقات ، ثمّ بلورها درجات ، ثمّ رتّب الشعراء بحسب تفاوتهم في كثرة الإنتاج و بحسب مقدرتهم على التصرف في فنون الشعروأوزانه.

و من ذلك الترتيب أفاد ابن سلام لتاريخ الأدب ، فقد قدّم تفسيرات أدبية لظواهر معينة في مثل مسألة أثر البيئة في الشعر ، و تعليل قلّة الشعرأوكثرته في الحروب ، و رفض الشعر المروي من الصحف .

لنّ الأصمعي أول من استخدم مصطلح الفحولة في كتابه " فحول الشعراء "ثمّ تلته المصادر الأخرى " البيان و التبيين "، للجاحظ و" الشعر والشعراء " لابن قتيبة و "طبقات الشعراء " لابن المعتز و " نقد الشعر " و " نقد الشعر" لقدامة... و غيرها .

2- قدامة بن جعفر :

الشعر عند قدامة "الشعر قول موزون مقفى يدلّ على معنى " ، فكلمة قول بمعنى الجنس و موزون له فصل عمّا ليس بموزون و مقفىفصل عمّا هو موزون و لا قوافي له ، و دالّ على معنى فصل له عمّا يكون موزونا مقفى و لا يدل على معنى غير أن وصفه مقفى صفة فاصلة للشعر تدلّ على أنّه يؤثر أن يستقل بحديثه عن الشعر العربي "(1)

و يعرّف ابن سينا الشعر :<< الشعر كلام مخيّل مؤلّف من أقوال موزونة متساوية عند العرب مقفاة >> (2)

3- ابن قتيبة :

يعدّ ابن قتيبة من أوائل النقاد الذين لم يتهيبوا الوقوف عند القضايا النقدية الكبرى ، كيف نظّر ابن قتيبة للشعر و بيّن قواعده و ضوابطه ؟

1- " إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي ص \ 191

نلمس ذلك من خلال تدبرّه لمسألة اللفظ و المعنى ، فوجد الشعر :

1ـ ضرب منه حسن لفظه و جاد معناه

2ـ ضرب منه حسن لفظه و حلا و إذا فتشته لم تجد هناك فائدة

3ـ ضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه

4 ضرب منه تأخّر معناه و تأخّر لفظه

هذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد ، << يريد ابن قتيبة باللفظ التأليف و النظم و يريد الصياغة كلّها بما تضمّنه من لفظ ووزن و رويّ ، و يريد بالمعنى الذي يبين عنها البيت أو الأبيات >> **(1)**

أمّا موقف رجاء عيد من هذا التقسيم التجزيئي موقف ـ ابن قتيبة ـ المتورط << إذ لا نملك معجما للتطور التاريخي للمصطلحات حتى نتبين الفوارق بين الحسن و الجيد " حسن لفظه و جاد معناه" و ليس الحسن كالحلاوة " حسن لفظه و حلا ؟ " >> **(2)**

إذ لا يقبل تعليق ابن قتيبة على قول الشاعر :

و لـمّـا قـضينـا من منى كـلّ حـاجة *** و مسح بالأركان من هو ماسح

و شدّت على حدب المهارى رحالنا *** و سالت بأعناق المطيّ الأباطح

يعلّق صاحب " التراث النقدي " على هذه الأبيات من حيث قصورابن قتيبة في اعتبار" الصنف الذي حسن لفظه و تأخّر معناه ، أي لم يجد له معنى مقبولا " لم نجد له فائدة " ، و هو نفسه الذي علّق عليه أبو هلال العسكري في " الصناعتين " ـ مؤيّدا ـ بقوله " و ليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى " ، أمّا ابن الأثير على العكس من ذلك فهو يحتفل بهذا البيت و يقبل ديباجته و يقول :" ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ و صقالته و تدبيج أجزائه ؟ و معناه مع ذلك ليس مدانيا و لا مقاربا ... فالألفاظ إذا خدم للمعاني ، و المخدوم لا أشكّ أشرف من الخادم فاعرف ذلك و قس عليه " **(3)**

بعد عرضنا لأهمّ آراء النقاد المشارقة في حدّ الشعر موجزة ، نحاول تصفح آراء نقادنا المغاربة أشهرهم الأمثل فالأمثل .

1- " رجاء عيد " التراث النقدي ص \ 64

2- نفسه ص \ 65

3-نفسه ص \ 65

مقياس حازم القرطاجني في الشعر :

حازم القرطاجني " ملتقى الروافد العربية و اليونانية " (1) ، لم ينف حازم التعريف العروضي للشعر " كلام موزون مقفى " ، لكنّه وقف من هذا التعريف عند ناحية التأثير أو لنقل مفعول الشعر أي حسب درجة التأثير من حيث التحبب أو التنفير فيكون مقياس الجودة أو الرداءة .

يقول حازم في تعريفه :<< و الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، و يكرّه إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه ، بما يتضمن من حسن تخيل له و محاكاة مستقلة بنفسها أو مقصورة بحسن تأليف الكلام ، و كل ذلك يتأكّد بما يقترن من إغراب ، فإنّ الاستغراب و التعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها و تأثرها >> (2)

يتلخّص مفهوم حازم للشعر في أربعة مقاييس أو معايير : 1- حسن التخييل 2- المحاكاة 3- الصدق 4- الإغراب . يقول حازم " أحسن الشعر ما حسنت محاكاته و هيأته و قويت شهرته أو صدقه أو خفي كذبه و قامت غرابته ، و أردأ الشعر ما كان يضدّد ذلك و هذا النوع الرديء جدير بألاّ يسمى شعرا >> (3)

ذلك هو تعريف الشعر باعتبار تأثيره ، أمّا من حيث الإبداع فيرى حازم أنّ الشعر وليد حركات النفس ، أي وليد انفعالات تتناوب النفوس بين قبض و بسط .

<< و حركات النفس بسائط و مركبات تتضمن الارتياح و الاكتراث و تحت طائلة هذه المركبات تقع الانفعالات ، الاستغراب أو الرضى أو الغضب أو النزوع و الخوف ...>> (4)

ثمّ جعل حازم للشعر عوامل خارجية و داخلية تلخص فيما يلي : << الشعر لا يتأتى نظمه ما يمكن فيه إلاّ بحصول ثلاثة أشياء : المهيآت و الأدوات >> (5)

1-" إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي " ص \
2- " حازم القرطاجني " منهاج البلغاء .." ص \ 71 - ت - محمد الحبيب بن الخوجة (تونس 1966)
3- نفس المصدر ص \ 71
4- نفسه ص \ 71
5- نفسه ص 72

أمّا العوامل الخارجية فهي1- المهيآت ، و أهمّها البيئة ذات الهواء المعتدل و المطعم الطيّب ، و النشأة بين الفصحاء .

إنّ المهيآت المذكورة عند حازم هي نفسها التي يشير إليها ابن خلدون في" مقدمته" إذ يبدو ذلك واضحا من خلال قول ابن خلدون في صناعة الشعر و عوامله <<ثمّ لا بدّ من الخلوة و استجادة المكان المنظور فيه من المياه و الأزهار و كذا من المسموع لاستنارة القريحة ... و خير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب ... و في هواء الجمام >> **(1)**

2- الأدوات : و هي العلوم التي تتناول الألفاظ الأخرى التي تتناول المعاني - و هو تقاطع آخر لابن خلدون على اعتبار للشعر قوانين لغته و إعرابه -

3- البواعث : و هي نوعان : أطراب و آمال

الأطراب : مثل الحنين و الشوق

الآمال : الاستشراف إلى العطاء

أمّا العوامل الداخلية :فقد جعل حازم للشعر قوّات داخلية دافعة :

(أ) -- القوة الحافظة : بأن تكون خيالات الفكر منتظمة متمايزة

(ب) -- القوة المائزة : هي التي تعين الشاعر على أن يميز و يلائم الموضع و النظم و الأسلوب و الغرض الذي يلائم .

(ج)-- القوة الصانعة : هي التي تتولى ربط الأجزاء ، أجزاء الألفاظ بالمعاني و التركيبات النظمية و المذاهب الأسلوبية ، مع الاحتفاظ بالتدرج . **(2)**

منهج حازم :

يقوم منهج حازم على الدقة في الانتقاء و النسق و القياس << فهو قد انتقى من نقاد الفلاسفة تعريفه لماهية الشعر و علاقته بحركات النفس و من الجاحظ و ابن قتيبة القول بأثر البيئة و العرق ثم وقف مع جميع النقاد القائلين بحاجة الشعر إلى الثقافة و العلوم >> **(3)**

1- " ابن خلدون " المقدمة ص \ 573

2- "المنهاج" ص\ 72

3- " تاريخ النقد " ص \ 544

أمّا مسألة العوامل الداخلية فلا نراه إلاّ متأثرا بمنهج الأطباء الفلاسفة مثل " ابـن سـينـا " فـي التحليل النفسي للإبداع و بيان مسألة القوى المؤثرة فيه :<< فهو من حديث ابن سينا عن قــوى النفس : ـ القوة المصورة ـ و القوة المخيلة و القوة الوهمية >> **(1)**

الــسجــلمــاسي و بـنـيـــة الـــشعــــر :

لا يعدو تعريف السجلماسي و تحديده بالخارج عمّا هو مألوف عند نقاد العرب ، فـهو يجعل التخييل موضوعا لصناعة الشعر << إذا كان الشعر هو الكلام المخيّل المؤلّف من أقوال موزونـــة متساوية عند العرب مقفاة معنى كونها موزونة أن يكون لها عدد إيقاعي ، و معنى كونها متساويــة هو أن يـكـون كـلّ قـول منها مؤلّفا من أقوال إيـقاعـيـة ، فإنّ عدد زمانه مـساو لـعـدد زمان الآخـر و معنى كونها مقفاة هو أن تكون الحروف التي يختمبها كلّ قول منها واحدة >> **(2)**

كما يلاحظ القارئ أنّ السجلماسي لم يضف إلى آراء سابقيه شيئا سوى الشرح و تدعيم الأقوال فـبـنية الشعـر مثلما رآها قـبله حازم تـقـع في التخييل و المحاكاة ثمّ ركّز السجلماسي على مسألة الإيقاع الذي يحدث من الوزن و القافية .

---

1)" تاريخ النقد عند العرب" ص \ 555 ـ إضافة : ما يزيد في تحديد حازم للشعر وصاياه في نظم الشعر ، فيقول :<< و يجب للشاعر إذا أراد نظم شعر و كان الزمان له متسّعا و الحال مساعدة أن يأخذ نفسه بوصية أبي تمام الطائي لأبي عبادة البحتـري حين سأله ...فأوصاه أبو تمام ـ يا أبا عبادة تخيّر الأوقات و أنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، و اعلم أنّ العادة في الأوقـات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، و ذلك أنّ النفس قد أخذت حظّها من الراحة و قسطها من النوم ... و كن كأنّك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام >> أنظر " المنهاج" ص \ 41 - 71 .

2) " المنزع البديع في تحسين أساليب البديع "ص 218 " السجلماسي" هو محمد القاسم السجلماسي ، نسبة إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى ، أحد بلاغيي و نقاد العصر المريني (704) في مرحلة بلغت فيها الدولة المرينية أوج نـهوضها و ازدهـارهـا و عرفـت مـزيدا من الانفتاح على الشرق و الأ ند لس و تعددت بيئاتها الـثـقـافـية و كـثرت الرحلات العلمية ، اطّلع أعلامها على الفلسفة و المنطق الأرسطي ، فكان منهم حازم و ابن البناء (721) و السجلماسي الذي عاش إلى حوالي (730) >> ينظر : مقدّمة " المنزع البديع " تحقيق " علال الغازي ـ مكتبة المعارف .

حـدّ الـشـعـر عند ابن رشـيـق :

إنّ الشعروما يتصل به من قضايا نقدية و فنون أدبية عامة كان ميدان دراسة و مناقشة وخلاف *من جهة* و بين النقاد و علماء اللغة و الأدباء من جهة أخرى ، أمّا ابن رشيق فكتابه " العمدة " يصرح بهذا الخلاف بداية ، و صعوبة تحديد الشعر<<ووجدت الناس مختلفين عن كثير، يقدّمون و يؤخّرون ... فقد بوبوه أبوابا مبهمة و لقّبوه ألقابا >> **(1)**

ـ فماذا فعل ابن رشيق ؟ في " عمدته " <<جمعت أحسن ما قاله كلّ واحد منهم في كتاب ليكون العمدة في محاسن الشعر ، و عوّلت في أكثره على قريحة نفسي و نتيجة خاطري >> **(2)**

لم يحدد ابن رشيق في" عمدته"الشعر لأوّل مقدمته من الكتاب بينما راح يقسّم الشعرإلى أبواب *باب فضل الشعر* ، و نراه هنا يضع للشعر أسبقيته على النثر و الدليل أبياته في محاسن الشعر:

الشعر شيء حسن *** ليس به من حرج
يحكم في لطافة *** حلّ عقود الحجج
فعلّموا أولادكم *** عقّار طبّ المهج

هذه رسالة الشعر ، أمّا الشعر فعند ابن رشيق يزيل الهموم يبعث الأمل ، و هو طبّ لأدواء الكبار و الصّغار .

جاء في قول بشير خلدون صاحب " الحركة النقدية أيام ابن رشيق "أنّ ابن رشيق و هو يحدد فضائل الشعر و يوازنه بين النثر << يخلط بين الشعر و الشعراء و بين النثر و الكتاب لذلك وهو يتكلّم عن الشعر ينتقل فجأة للحديث عن الشعراء >> **(3)**

لم يحدّد ابن رشيق الشعر بدقة مثلما هو عند سابقيه أو معاصريه ، فلم يقل لا بوزن و لا قافية فهو يكاد يقترب من حازم القرطاجني في الجزء الثاني من تعريفه للشعر في الجانب التأثيري من تحبيب و ... فالشعر عند ابن رشيق : << ما أطرف و هزّ النفوس و حرّك الطباع إنّما سمي الشاعر شاعرا لأنّه يشعر بما لا يشعر به غيره >> **(4)**

1- " ابن رشيق" العمدة في محاسن الشعر" ج \ 1 \ ص 16 - ت - محمد محي الدين عبد الحميد .
2- نفس المصدر ص \ 17 ج 1
3- " بشير خلدون " الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي " سلسلة الدراسات الكبرى ، ص \ 115
4- " العمدة " ص \ 121

ثمّ يعرّف البيت من الشعر : << البيت من الشعر كالبيت من الأبنية ، قراره الطبع و سمكه الرواية ، و دعائمه العلم ، و بابه الدربة و ساكنه المعنى ، ولا خير في بيت غير مسكون>> **(1)**
إنّ ابن رشيق في موضوع الشعر و قضاياه ، أورد مجموعة من أقوال شيوخه و أساتذته من المشارقة أو المغاربة على حدّ سواء مستفيدا كأيّ ناقد ممّا قاله النقاد الأوائل ، كابن سلام ، و ابن قتيبة ، قدامة ، و الجاحظ ، و عبد الكريم النهشلي .

يرى د \ رجاء عيد في تعليل ابن رشيق للشعر و نشأته تعليلا ساذجا حينما يقول :<< و كان الكلام كلّه منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها و طيب أعراقها و ذكر أيّامها ... فتوهّموا أعاريض جعلوهلموازين الكلام ، فلمّا تمّ لهم وزنه سمّوه شعرا لأنّهم شعروا به ، وقد كان تحديد القصيدة على أربعة أركان هي المدح و الهجاء و النسيب و الرثاء ، و قالوا قواعد الشعر أربعة الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر، و مع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق و رقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء و التّوعد >> **(2)** ، فرجاء عيد لا يرى ثمّة جديد يذكر في " العمدة " من حيث تحديد ابن رشيق للشعر ، إنّما هو رصف في حكمة لأ قوال من سبقوه .

أمّا حدّ الشعر عند ابن المعتز ـ الناقد الانطباعي ـ كما وصفه إحسان عباس يقول : << أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه >> **(3)**
عند ابن سينا :<<و الشعر من جهة ممّا يتخيل و يحاكى بأشياء ثلاثة : باللحن الذي يتنغم و بالكلام نفسه إذا كان مخيّلا محاكيا و بالوزن >> **(4)**
عند ابن طباطبا الحلقة المتممة لما جاء به ابن قتيبة و أفاد من أحكامه و نظراته، << الشعر كلام منظوم >> **(5)**

1- " العمدة " ص \ 121
2- " رجاء عيد " التراث النقدي ص\ 41
3- " تاريخ النقد الأدبي " ص\ 113
4- نفسه ص\ 115
5- ابن طباطبا " عيار الشعر " ص \ 52 ـ ت ـ محمد زغلول

ثانيا حـدّ الشعر عند ابن خــلـدون :

إنّه الفصل الخامس و الخمسون من "المقدمة" ، فصل : " في صناعة الشعر ووجه تعلّمه " سنحاول قراءة ما جاء في هذا الفصل باستخلاص رأي ابن خلدون ووجهة نظره النقدية في مفهوم الشعر و ماهيته .

ـ ما مفهوم الشعر عند ابن خلدون ؟

ـ هل حـدّ له حـدّا خاصا مستقلا ؟

ـ هل يتفق مع القدماء المشارقة أو المغاربة ؟

ـ إلى أي حـدّ يتقاطع مع المفاهيم السابقة ؟

يقول ابن خلدون أنّ الشعر فنّ عرفته سائر اللغات و الأمم ، << هذا الفن من فنون الكلام و المسمّى بالشعر عندهم يوجد في سائر اللغات ...>> **(1)**

ظلّ التفسير العروضي للشعر يلاحق النقاد القدماء على اختلاف مشاربهم و اتجاهاتهم " الشعر كلام موزون مقفى " ، و لم يخرج عن هذه القاعدة العروضية ـ لعلمنـ أيّ ناقد ذلك لأنّ ميزة الشعر بها عرف و بغيرها لم يكن ليفرق بين الشعر و النثر .

و مع ذلك نجد ابن خلدون يحاول أن يخرج عن القاعدة بعدم اعترافه بالحدّ العروضي القائل بالوزن و القافية ، فقد رفض ذلك قائلا : << و قول العروضيين في حده إنّه الكلام الموزون المقفى ، ليس بحدّ لهذا الشعر الذي نحن بصدده و لا رسم له >> **(2)**

ثمّ يؤكّد رفضه في موضع آخر : <<و لا جرم إنّ حدّهم ذلك لا يصلح عندنا >> **(3)**

ـ كيف يعرّف ابن خلدون الشعر؟

1- " المقدمة " ص \ 571

2- نفس المصدر ص \ 572

3- نفسه ص \ 572

الشعر عند ابن خلدون

كلام بليغ

مبني على الاستعارة ــــ الوزن و القافية ــــ مستقل الأبيات ــــ الجاري على أساليب العرب

<< هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ،المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كلّ جزء منها في غرضه و مقصده عمّا قبله و ما بعده ، و الجاري على أساليب العرب المخصوصة >> **(1)**

ثمّ يستطرد بعدها إلى شرح هذا التعريف :<< و قولنا الكلام البليغ جنس ، و قولنا المبني على الاستعارة و الأوصاف فصل له عمّا يخلو من هذه فإنّه في الغالب ليس بشعر ، و قولنا المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن و الروي فصل له عن الكلام المنثور الذي ليس بشعر عندالكلّ ، و قولنا مستقل كلّ جزء منها في غرضه و مقصده عمّا قبلهوما بعده بيان للحقيقة لأنّ الشعر لا تكون أبياته إلاّ كذلك و لم يفصل به شيء، و قولنا الجاري على الأساليب المخصوصة فصل له عمّا لم يجر منه على أساليب الشعر المعروفة ، فأنّه حينئذ لا يكون شعرا ، إنّما هو كلام منظوم لأنّ الشعر له أساليب تخصّه لا تكون للمنثور ، و كذلك أساليب المنثور لا تكون للشعر ، فما كان من الكلام منظوما و ليس على تلك الأساليب فلا يسمى شعرا .>> **(2)**

على خلاف ما يراه النقاد في تحديدهم للشعر سواء منهم العروضيون أو اللغويون إذ جعلوا الوزن و القافية في صدارةالتحديد الشعري لأنّ الناس ألفوا أن يميزوا بينه و بين النثر من جهة ثمّ إنّ الوزن و القافية هي السمة البارزة في الشعر من جهة ثانية .

لكن ابن خلدون آثر أن يجعل

أ) <u>الاستعارة</u> في المقام الأول : "و قولنا المبني على الاستعارة و الأوصاف فصل له عمّا يخلو من هذه فإنّه في الغالب ليس بشعر "

1- "المقدمة " ص \ 572

2- نفس المصدر ص \ 572

إنّ لفظ الاستعارة مطلق عند ابن خلدون ، فهو لم يتعامل مع الاستعارة في حدودها البلاغية المعروفة من حيث هي تشبيه حذف أحد طرفيه إنما أطلقها بما يندرج تحتها كلّ من المجاز و التشبيه و الكناية ...

إذن ما الذي أراد به من قوله المبني على الاستعارة ؟ إذا توقفنا عند الاستعارة كما أطلقها ابن خلدون على عمومها فلا يسعنا ذلك ، إنّما نرى أنّ المقصود منها تلك الصور و المخيلة الواسعة الموجودة في الشعر ، كلّ ما من شأنه تصوير لحقائق بألوان خيالية << فالذي يميز الشعر عن النثر ما يختص به الشعر من صور بيانية كالتشبيه و الاستعارة و المجاز >> **(1)**

لعلّ أحسن من يوضّح هذه المسألة عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم ، إذ أعلنأنّ القيمة في التشبيه والاستعارة و المجاز و الكناية ليست لها من حيث هي تشبيه أو استعارة أو كناية بل هي من حيث قدرة الاستعارة أو التشبيه على الامتزاج و الانصهار بغيرها من عناصر التعبير الأدبي و هي لها من حيث قدرتها على التفاعل مع غيرها و على ما مدى ما اكتسبته الاستعارة من خصائص يمنحها السياق نفسه .

ـ يقول عبد القاهر :<< ... و إن أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر إلى قوله (الشاعر)

سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا *** أنصاره بوجوه كالدنانير

فإنّك ترى هذه الاستعارة على لطفها و غرابتها إنّما تمّ لها الحسن و انتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم و التأخير ، و تجدها قد ملحت و لطفت بمعاونة ذلك و مؤازرته لها ، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فقل : ـ سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ـ

ثمّ انظر كيف يكون الحال!؟ و كيف يذهب الحسن و الحلاوة و كيف تعدم أريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها >> **(2)**

1- " د\ زكي العشماوي " قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث " ص\ 313- دار النهضة - بيروت - لبنان

2-عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز" ص 77 \ 78

هذا ما لا نجده عند ابن خلدون حين يفصّل الاستعارة فيما جاء به إلاّ من خلال قضية اللازم و الملزوم التي ذكرها في فصل " علوم اللسان :"إنّ كلّ ما ساهم به ابن خلدون في تجلية بلاغة الاستعارة و أثرها الأدبي لا يتجاوز إشارتين اثنين أوردهما غلى سبيل التمثيل في الفصل الخامس و الأربعين الذي خصّ به علوم اللسان العربي و قضاياه "(1)

أمّا تفسير ابن خلدون للاستعارة في قوله :<<و قد يدلّ اللفظ و لا يراد منطوقه و يراد لازمه إن كان مفردا كما تقول زيد أسد فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه إنما تريد شجاعته اللازمة و تسندها إلى زيد و تسمى هذه استعارة ـ (؟؟) ـ و قد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير رماد القدور و تريد به ما لزم ذلك عنه من الجود و قرى الضيف لأنّ كثرة الرماد ناشئة عنها ، فهي دالة عليها >> (2)

ما يلاحظ في هذا التمثيل ذلك الخلط الواضح بين التشبيه البليغ و الاستعارة " زيد أسد " تشبيه بليغ فيما يجعلها ابن خلدون استعارة ، لذلك فهو لا يعدّ الاستعارة من التشبيه الذي حذف أحد طرفيه ، و تلك هي حدود البلاغة المتعارف عليها وعلى عكس الحال فهي أوضح عند الجرجاني في المثال السابق في البيت القائل صاحبه :

و سالت عليه شعاب الحي حين دعا *** أنصاره بوجوه كالدنانير

تجد أن القيمة كلّها ليست في " سالت شعاب الحي " << إنّما جمال هذه الاستعارة استطاعت أن تطفر من صياغة البيت كلّه بتقديم الجاروالمجرور على الظرف (حين دعا)ثمّ تأخيره(بوجوه الدنانير) قد استطاع أن يضعنا موضعا خاصا ، و أن يجعل للبيت على هذا النحو معنى يختلف عمّا لو قال : (سالت شعاب الحي عليه بوجوه كالدنانير حين دعا أنصاره) ، لذلك يفهم البيت على نحو الذي يتحكم فيهالكلّ في قيمة الجزء ويتحكّم الجزء في قيمة الكلّ >> (3) ، لذلك نجد الجرجاني يؤكّد أنّ من الاستعارة ما لا يمكن بيانه << إلاّ من بعد العلم بالنظر و الوقوف على حقيقته>> (4)

و هكذا الجرجاني يبدو أقوى تفسيرا و أوضح في شواهده من ابن خلدون في تحديده للاستعارة

1- من رسالة " الأستاذ أحمد منهوج " موقف ابن خلدون من اللغة و النقد " ص \ 108

2- " المقدمة " ص \ فصل علم البيان من علوم اللسان

3- " دلائل الإعجاز " ص \ 79

4- نفسه ص \ 79

و التمثيل عليها ، فنظرة الجرجاني أشمل للغة << فاللغة عنده لا تنفصل فيها الصورة الشعرية عن التعبير الأدبي بل هي جزء لا يتجزّأ منه ، فلا تستمدّ قيمتها إلاّ من النظم و لا تكتسب فضيلتها إلاّ من السياق >> (1)

وهي نفس النظرة الشاملة التي يتفق معها الناقد الآمدي كلاهما يتفق على أصول الاستعارة ووجوه حسنها و قبحها اتفاقا شاملا ، حيث يؤكّد بتعريفه الاستعارة قائلا :<<قال البلاغيون إنّ الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه ، ولابدّ في كلّ تشبيه من وجه شبه فإذا لم يوجد وجه الشبه كانت الاستعارة بعيدة ، و تكون إذن قبيحة غير مقبولة و هذا النوع قليل من بعيد الاستعارات (1) التي يعيب الآمدي على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قول ذي الرّمة:

يعزّ ضعاف القوم عزّة نفسه *** و يقطع أنف الكبرياء عن الكبر

" فليس للكبرياء أنف ، و إنّما الأنف للإنسان ، فشبه الكبرياء بإنسان و حذفه و رمز إليه بشيء من لوازمه و هو الأنف و لكن ما هو الجامع ؟ ما وجه الشبه هنا بين الكبرياء والإنسان حتى يكون لها أنف أو صلة نراها بعيدة المقصد " (2)

أمّا ما يعيبه على أبي تمام في استعارته قوله :

تحمّلت ما لو حمّل الدّهر شطره *** لفكّر دهرا أي عبأيه أثقل

فجعل للدّهر عقلا ، و جعله مفكّرا في أي العبأين أثقل ، و ما معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة " ، لذلك فهو يقترح عليه وجه الصواب : << و كان الأ شبه و الأليق بهذا المعنى لمّا قال "تحمّلت لو حمل هذا الدّهر شطره أن يقول بعدها :لتضعضع أولانهدّ أو نحو هذا ممّا يعتمده أهل المعاني في البلاغة >> (3)

1- " الآمدي " الموازنة " ص \ 240 - ت - محمد محي الدين عبد الحميد \ عن منيل الروضة 1944 \ بعيد الاستعارات عنوان أفرده الآمدي في " الموازنة " التي قال عنها د\ إحسان عباس هي بمثابة حملة شنّها على أبي تمام و البحتري .

2- نفس المصدر ص\ 241

3- نفسه ص \ 241

* مفهوم الاستعارة عند المحدثين : ـ كيف يرى النقاد المحدثون الاستعارة ؟

يقول الدكتور عباس أرحيلة في أطروحته:" لقد لاحظ **كراتشوفسكي**أنّ الدارسين اعتادوا ترجمة Metaphore بالاستعارة في اللغة العربية و هما لا يتطابقان في مدلوليهما ، فاللفظة الأولى تعتبر فئة من الاستعارة و هي لا تطابق المفهوم الاصطلاحي العربي >> **(1)**

أمّا محمد عناني فيرى :أنّ الاستعارة هي مرادفة للصورة فإمّا أن يخصّصها فيعدّها مرادفة للاستعارة و يوسّع نطاق دلالتها فيعنى بها التعبير عن تجربة حسية نقلت بطريقة السمع أو اللمس أو الذوق أي أنّ بعض هذه الحواس أو كلّها مجتمعة تدرك عناصر التجربة الخارجية >> **(2)**

بينما يرى ريفردي Reverdy الشاعر الفرنسي << لا يمكن أن نعمل أو نصنع صورة و إنّما يجب أن نأتي بجناحيها >> يفرق رفردي بين الصورة الشعرية و الصورة البيانية (كالتشبيه و الاستعارة و المجاز المرسل)، و يعتبرأنّ الولادة الأولى هي البدء لأنّها " بداية البدايات" بينما الولادة الثانية ولادة لاحقة >> **(3)**

1- " د \عباس أرحيلة " الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة " ص \ 326 ـمرجع مذكور- "كراتشوفسكي ": (إغناطيوس) (1883 -1951) مستشرق روسي من أوسع علماء زمانه بمعرفة الآداب العربية من الجاهلية إلى العصر الحديث ، عضو المجمع العلمي في دمشق و إيران ، أتقن اللغات الشرقية العربية و الفارسية ، لا تقلّ مؤلفاته عن 200 كتاب منها " خلافة المهدي العباسي " و " تاريخ آداب اللغة العربية ، عضوا أكاديمية العلوم في " ليننغراد"

2- " محمد عناني " النقد التحليلي " بإشراف رشاد رشدي - سلسلة مكتبة النقد .

3- " بيار ريفردي " Pierre Reverdy (1889-1960) ، شاعر فرنسي يعتبر رائد السريالية من شعره " النافذة البيضوية و Le gant De Crins , Flammarion - Paris 1963 pag e33 \ انظر المنجد في اللغة و الأعلام ص\ 274 و روبير
(2) *Robert 2 *

<u>إضافة :</u> أول من سبق إلى الاستعارة بالدراسة هو أبو عمرو بن العلاء (151هـ) و ذكرها أبو عبيدة و الجاحظ و ابن قتيبة و المبرد و ثعلب ، أمّا الجاحظ فالاستعارة :" تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه " و عند ابن قتيبة " العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب في الأخرى أو مجاورا لها و مشاكلا "، و عرّفها ثعلب أبو العباس :" أن يستعار لشيء اسم غيره أو معنى سواه " ثم ابن المعتز " استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها " ، و يبدو عند بعضهم الاستعارة كانت ترادف المجاز . انظر " البيان و التبيين " و " الشعر و الشعراء " و " قواعد الشعر " لثعلب و " البديع " لابن المعتز .

يبقى ما جاء به ابن خلدون في مجال الاستعارة و الصورة عموما أنّه تجاوز بعض نقاد عصره أو ما قبل ليصل إلى تعريف يقدم فيه اعتبار التصوير و التخييل على غيرهما من الاعتبارات في الشعر ، الأمر الذي دفع بعض المعاصرين إلى اعتبار تعريفه إسهاما في تجلية مفهوم الشعر .

ب)الوزن و الرّوي (القافية) :

لا يختلف ابن خلدون عن سابقيه من النقاد اللغويين أو الرواة في اعتبار الوزن و القافية حقيقتين أساسيتين حتى يميز من خلالهما بين النظم و النثر ، لعلمه الأكيد أنّ الجانب الموسيقي هو الذي يفصل بينهما .

و لكننا نجده في الوقت نفسه يعارض العروضيين في تحديدهم للشعر و اعتبارهم الوزن و القافيةأحد حدود الشعر ، على الرّغم من أهميتهما ، إلاّ أنّه أدرك حقيقة الإدراك أنّها ليست من حدّ الشعر، فهو يرفض إدخال كلّ كلام موزون مقفى في مجال الشعر على غرار تلك المنظومات التعليمية السائدة في عصره و التي لا ترقى إلى مصاف الشعر المبني على الخيال (الاستعارة و المخصوص بأساليب العرب ...

أمّا***أبو العلاء المعرّي*** الذي جعل تعريفه للشعر يقتصر على الوزن دون القافية إذ الشعر عنده << كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحسن >> **(1)**

من الغريب أن يخرج صاحب " اللزوميات " عن القاعدة العروضية العامة ـ كلام موزون فقط دون ذكر التقفية ؟ <مع أنّه مشغول الخاطر بها و بأنواعها و عيوبها حتى ألّف فيها كتابا مستقلا> **(2)**

يقول ***ابن رشيق*** في الوزن :<< الوزن أعظم أركان حدّ الشعروأولاها به خصوصية وهو مشتمل على القافية و جالب لها ضرورة إلاّ أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيبا في التقفية لا في الوزن > **(3)** .

1- "أبو العلاء المعرّي " رسالة الغفران " ص \ 242 ـ ت ـ عائشة بنت الشاطئ(ط 2)

2- تاريخ النقد الأدبي " إحسان عباس ص \ 387

3- " ابن رشيق " العمدة " ص 134

أمّا ***حازم القرطاجني***، الذي درس علم العروض دراسة جديدة و استطاع أن يصهر الأقوال صهرا والمفاهيم على قريحته فتخرج منها تعاريف حازمية قرطاجنية ، فيقول واصفا الأوزان << فالعروض الطويل تجده أبدا بهاء و قوة ، وتجد البسيط لبساطته وحلاوته وتجد للكامل جزالته و حسن اطّراده ...>> **(1)** ، و عن مناسبة تسمية الطويل ، قال : << لأنّه طال بتمام أجزائه و عن البسيط : لأنّه انبسط عن مدى الطويل .>> **(2)**

و نظرا لأهمية الأوزان و قيمتها في الشعر عاب كثير من النقاد و العروضيين على بعض الشعراء اختلال شعرهم و اضطراب أوزانها مثل **الزحاف** الذي يعدّ أحد أشهر عيوب الشعر وقد قال فيه الأ صمعي :<< **الزحاف في الشعر كالرخصة في الفقه لا يقدم عليها إلاّ فقيه** >> **(3)**

ـ من الأبيات المستكرهة النسج لدى **ابن طباطبا** القلقة القوافي قول حسان :

و تكلفني اليوم الطويل و قد ***صرّت جنادبه من الظهر

ـ أراد بالظهر حرّ الظهيرة

أمّا من القوافي الواقعة في مواضعها المتمكّنة من مواقعها قول امرئ القيس :

و قد اغتدي قبل العطاس بهيكل *** شديد مشك الجنب فقم المنطق

بعثنا ربيئا قبل ذلك مخملا ***كذئب الغضا يمشي الضرّاء و يتقي

ـ فوقعت " يتقي " موقعا حسنا

ـ و قول زهير :

و أعلم ما في اليوم و الأمس قبله *** و لكنّي عن علم ما في غد عم

ـ فقوله " عم " واقعة موقعا حسنا >> **(4)**

1- " منهاج البلغاء و سراج الأدباء" ص \ 269

2-نفس المصدر ص \ 269

3- " العمدة" ص \ 140\141 - الزحاف :هو ما يلحق أي جزء من الأبيات بنقص أو زيادة أو تقديم حرف أو تأخيره أو تسكينه ولا يكاد يسلم منه شعر مثل مفاعيلن ـ مفاعلن ، (القبض في الطويل) فاعلن ـ فعلن (الخبن في البسيط) \ انظر" العمدة" ص\ 138

4-" ابن طباطبا" عيار الشعر" ص\ 140

***نـظـرة الـمحـدثـين إلـى الـوزن :**

أمّا مسألة الوزن عند المحدثين نوجزها في رأي الدكتور **العشماوي** - على كثرة ما اختلف فـي أهميتها و قيمتها في الشعر .

فيقول العشماوي مبينا أبعاد الوزن في القصيدة :<< ... وإذا أشرنا إلى النغم الموسيقى في القصيدة فليس معنى هذا أننّا نشير إلى الوزن الشعري وحده أوإلى القالب الخارجي الذي تصبّ فيه التجربة أو إلى حرص اللفظ و انسجام الموسيقى ، و إنّما نشير إلى بالنغم إلى كلّ ما ينطوي وراء حركات الوزن ، و علاقات الألفاظ و ما فيها من نبرات و ذبذبات أو إيقاعات أو ضربات موسيقية خاصـــة و ما تنطوي عليها من معان .>> **(1)**

ثمّ يؤكّد العشـمـاوي عـلى دور الوزن ووظيفته الفنية في القصيدة ، إذ يسهم و بشكل كبير فـي تثبيث المعاني و تقريرها بدلالاتها المختلفة :<< ففي جملة البدايات والنهايات تأكيد وتقرير للمعنى الكلّي الذي تتضافر القصيدة على تبليغه و التصميم عليه >> **(2)**

أمّا عـن الـوزن في الـقصـيدة الـمعاصرة فـالعـشـماوي يـرى أنّها استطاعت أن تتحرر من قيود الصياغة القديمة وأن تطوّع الوزن الشعرى والقافية وأن تخضعها للتجربة في غير تكلّف أوصنعة

ج) استقلال البيت (وحدة القصيدة):

لابـن خلـدون رأي يخالـف به كثيرا من النـقاد الذين يرون بدّا من الوحدة في القصيدة ، فبعد تأسيسه الاستعارة و الوزن يعتبر يرى أنّ الأبيات يجب أن تكون مستقلة << كـلّ جـزء مـنها فـي غرضه و مقصده عمّا قبله و ما بعده ، فهو بيان للحقيقة لأنّ الشعر لا تكون أبياته إلاّ كذلك >>**(3)**

إنّ مفهوم ابن خلدون لوحدة البيت ما كانت موزعة فيه أو فيما بعده فيصلح أن ينفرد دون سواه من غير أن يحدث خللا << و إذا سمح الخاطر بالبيت و لم يناسب الذي عنده فليتركه إلى موضعه الأليق به فإنّ كلّ بيت مستقل بنفسه >> **(4)**

1- " العشماوي " قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث ص \ 216

2- نفس المرجع ص \ 217

3- المقدمة ص 572

4- نفس المصدر ص \ 574

و لسنا ندري ما يقصد به من استقلال البيت عمّا قبله علّه يريد بذلك استقلال المعاني و تجنب الحشو و الحشد ، فهو يحذرّ من ذلك كما يتضدّح من القول .

إنّ الدكتورطه حسين يثيرالجدل حول هذه المسألة " الوحدة " ــ في كتابه حديث الأربعاء ـ وهو بصدد تحليل معلقة لبيد بن ربيعة في محاورات لينتهي في الأخير أنّ <<أقبح عيب يمكن أن تؤخذ عليه القصيدة العربية هو أنّها ليست ملتئمة الأجزاء ، وإنّما تأتيها الوحدة من القافية والوزن ، فلولا أنّ " لبيدا "هذا قد اختار البحر الذي اختاره والقافية التي اختارها لما تشابهت أجزاء قصيدته ولما اتصل بعضها ببعض ، و لكانت أبياتا منثورة >> (1)

أنّ طه حسين شديد الإيمان بوجود الوحدة في القصيدة القديمة شديد التحمس للدفاع عنها ، ولكن د\ العشماوي يعارض طه حسين في ما ذهب إليه حيث يقول : <<إلاّ أننا لا نستطيع أن نذهب إلى ما ذهب إليه طه حسين أن نأخذ هذا تعميما على القصيدة العربية .>> (2)

وبعدها يمضي العشماوي في تصوير بيئة الشعرالعربي بإعطاء تلك الصورة العامة عن الحياة العربية بكافة مناحيها الاجتماعية و الفكرية و الجغرافية حتى يقرر في آخر المطاف حقيقةأنّ الوحدة في القصيدة إنمّا هي وحدة تسود الشعر ، فهي مظهر من مظاهر نشاط العرب الفكري و العقلي لكلّ الوحدة التي يمكننا تسميتها وحدة الصراع من أجل الحياة .

يعرض العشماوي نماذج من القصائد العربية القديمة بدءا من قصيدة لبيد إلى النابغة إلى امرئ القيس ، فيقرر حقيقة أنّ ليس هناك وحدة عضوية متحققة في جميع القصائد و المقطوعات .

إذ ترى الشاعر يقطع كلامه و ينتقل من وصف الدّيار إلى وصف الراحلة ثم إلى الفخر بنفسه...

مثلما هو حاصل عند النابغة بعد وقفته الطللية :

يا دار ميّة بالعلياء فالسّند *** أقوت و طال عليها سالف الأبد

ينتقل إلى وصف ناقته << بطريقة تحس بسلطان التقليد و صرامته ، لذلك فالوحدة العضوية لا تتحقق إلاّ في القليل .>> (3) ، هذا الذي يدعمه د\ إحسان عباس في قوله : << كانوا وما يزالون يتساءلون عن أمدح بيت و أغزل بيت و ليس اعتمادا بأنّ البيت هو الوحدة الشعرية ، و إنّما كان

1- "حديث الأربعاء " طه حسين \ قضايا النقد الأدبي \ د العشماوي ص \ 190

2- " قضايا النقد" العشماوي ص \ 191

3- نفسه ص\ 191

وليد البيئة التي تعتمد على الاستشهاد بالأبيات المفردة السائرة >> (1) ، من هذا المنطلق بـات من الواضح فهم رأي ابن خلدون في ضرورة استقلال البيت بنفسه تيسيرا لحفظه و حسن نسجه و العناية بتأليفه .

د) الأساليب المخصوصة :

إنّه الجزء الأخير و المتمّم لحدّ الشعر عند ابن خلدون و الذي اعتبره أحد أركان الشعر ، فالأساليب العربية المخصوصة هي في نظر ابن خلدون بمثابة القوالب والمنوال الذي يجب على الشاعر أن يسلكه إذا أراد الشعر :<< و قولنا الجاري على الأساليب المخصوصة به ، فصل له عمّا لم يجر منه على أساليب الشعر المعروفة ، فإنّه حينئذ لا يكون شعرا إنّما هو كلام منظوم و ليس على تلك الأساليب ، فلا يسمى شعرا >> (1)

يستدلّ ابن خلدون على هذا الحكم الأخير بما أقرّه شيوخه الذين لا يرون في نظم المتنبي و لا المعرّي أساليب مقبولة لأنها خرجت عن المألوف لدى العرب "سمعنا من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية أنّ نظم المتنبي والمعرّي ليس هومن الشعر لأنّهما لم يجريا على أساليب العرب"(2

يعزو الدكتورعبد العزيزعتيق أنّ هذا الحكم <<أنّ كلاّمن المتنبي والمعرّي قد سلك في بعض شعره مسلك نظم الحكم العقلية البعيدة عن إثارة الشعور و مخاطبة العاطفة >> (3)

أمّا الأساليب المخصوصة التي يقصدها ابن خلدون ذلك المحفوظ النقي الكثير الأساليب حيث جعل من الفحول الإسلاميين مثل :<< ابن أبي ربيعة ، و كثير ، وذي الرمة ، و جرير وأبي نواس و البحتري و الرضي و أبي فراس >> (4) هي النماذج الراقية و بعض أشعار " الأغاني ".

و بعد اختيار مثل هذه المحفوظات النقية ــ على وصف ابن خلدون لها ــ و امتلاء صاحبها منها ، يأخذ في النسج على منوالها بعد توفير لها الأجواء المناسبة .

يستنتج من ذلك أنّ ابن خلدون من أنصار القديم المشدودين إليه كما كان شيوخه يؤثرون الشعر القديم و يعدونه المثل الأعلى ، فإن آثروا محدثا على محدث فلابدّ أن يكون من يؤثرونه جاريا على

1- "المقدمة" ص \ 572

2- نفسه ص \572

3-" في النقد الأدبي " د\ عبد العزيز عتيق ص\166

4- المقدمة ص \ 573

جاريا على مذهب القدماء ، و قلّما يتعرض ابن خلدون إلى شعرلما فيه من إسفاف وتكلّف وخروج عن الأساليب المخصوصة << حيث أخذ البديع يستبدّ بالشعر و أخذت رسومه و أصوله تكثر و تتجدد حتى بلغت غاية بعيدة >> (1)

بهذه النظرة وقف "الآمدي " من الشعر الجديد موقف الاحتكام إلى القديم حيث كان ينظر إليها نظرة تقديس معتبرا كلّ من يخرج على ما عرفه الأولون و انتهوا إليه أمرا خطئا ، فهاهو ذا يعيب على الشاعر بقوله :<< لا أنت أنت و لا الزمان زمانك >> (2)

و ما يزيدتشبثّ الآمدي بالقديم نقده المتعصب له في قوله و هو يعيب على المحدثين :<<أمّا إذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة ، و كانت عباراته مقصّرة غير مدرك لها ... فإن اتفق جئت بحكمة و فلسفة و معان لطيفة حسنة ، فإن شئت دعوناك حكيما ، أوسميناك فيلسوفا و لكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك بليغا لأنّ طريقتك ليست على طريقة العرب ، ولا على مذاهبهم " (3)

**** نظرة المحدثين إلى الأساليب المخصوصة:***

نظرة المحدثين إلى الأساليب العربية المخصوصة كما اقترحها ابن خلدون ، نظرة يلخّصها الدكتور عبد العزيز عتيق .

يقول أناتول فرانس Anatole France فهو من الأدباء الذين يرون بحرية الأساليب <<إنّ الأفكار ملك للناس بأجمعهم فلا يقدر أحد أن يقول : هذا الفكر لي ، الأديب يعلم أنّ قيمة الفكر بالقالب الذي يفرغ فيه هذا الفكر ، فإفراغ فكرة قديمة في قالب حديث ، هذا هو الفن كلّه ، و هذا ما يستطيع البشر إبداعه و إنشاءه ، ليس الفكر ملكا لمن يبدعه ، وإنّما هو ملك الذي يثبته في أذهان الرجال >> (4)

إنّ الأسلوب يبقى من اهتمامات النقاد المعاصرين فهو أحد العناصر الأساسية للأدب عامة و الشعر خاصة ، أمّا الشاعر اليوم فقد تخطى مرحلة التقيد بالأساليب القديمة العتيقة منها متحديّا تارة أو مجدّدا و معبّرا في النهاية عن حريته في اختيار ما يناسب الذوق العام المتجدد .

1- " تاريخ النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري محمد طه إبراهيم ص \ 114

2- نفس المرجع ص 114

3- "الآمدي " الموازنة " ص \ 381

4- " عبد العزيز عتيق " في النقد الأدبي " ص 150 – Anatole France \ كاتب فرنسي (1844-1924) ، روائي و ناقد من رواياته " سلفستر" Sylvester ، و " الزنبقة الحمراء " و " ثورة الملائكة " ، حاصل على جائزة نوبل (1921) انظر \ المنجد في اللغة و الأعلام ص \ 407 و (2) Le Petit Robert

* ثانيا قضية اللفظ و المعنى :

لقد اختلف النقاد قبل ابن خلدون في قضية اللفظ و المعنى ، فمنهم من آثر اللفظ على المعنى ومنهم من آثر المعنى على اللفظ ، و منهم من رأى التوسط في الأمر فقالوا بتلازم اللفظ و المعنى و لا غنى لأحدهما عن الآخر و من هؤلاء ابن رشيق ، الجرجاني ...

الفصل بين اللفظ و المعنى من الأمور الصعبة حتى و إن كانت في التصور المنهجي أو من الأدوات الإجرائية النقدية .

أوّل من أولى عناية باللفظ "***الجاحظ***" فقد أبدى تعلقا بمذهب الصياغة و تعصبا للفظ ، فهو يضع الأناقة و الجودة و الجمال في الألفاظ معتبرا إياها مقياسا و منطلقا من نظرية "**المعاني المطروحة**" << المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي إنّما الشأن في إقامة الوزن و تخيّر اللفظ و سهولة المخرج و في صحّة الطبع و جودة السبك >**(1)**

و في عبارة الجاحظ هذه على شهرتها و كثرة تداولها و تأثيرها الشديد فيمن جاءوا بعده من نقاد شيء من الغموض فهو لم يحدد لمفهوم المعنى ولم يفصل فيه فصلا صارما بين اللفظ والمعنى ، فنجده في مواضع أخرى يحرص على الثنائية بينهما حينما يقول :<< و أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره و معناه في ظاهر لفظه ، فإذا كان المعنى شريفا بليغا و كان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ، و منزها عن الاختلال مصونا من التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة >> **(2)**

إنّ إصرار الجاحظ على أن ينعت المعنى بالشرف إنّما يتضمن إحساسه بأنّ من المعاني ماهو شريف و منها ما هو غير شريف <و أنّ ليس كلّ معنى و كلّ فكرة أو موضوع يصلح أن يكون موضوع تأليف أو نظر أو صياغة >> **(3)**

من هنا نجد الجاحظ يكثر من لزوم الملائمة بين الكلمات و موضعها و رعاية الدقة فيقول :<< إنّ لكلّ معنى شريف أو وضيع هزل و جدّ أو حزم أو صناعة ضربا من اللفظ هو حقّه و نصيبه

1- الجاحظ"الحيوان " ج \ 3 \ ص \ 131 ت عبد السلام هارون ـ دار الكتاب العربي بيروت 1973

2- الجاحظ " البيان و التبيين " ج1 \ ص \ 75

3- "قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث " العشماوي ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1984

الذي ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه >> (1)، ثمّ يؤكّد رأيه أكثر<<ولكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، و لكلّ نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسخيف للسخيف و للكناية في موضع الكناية ... إنّما الألفاظ على أقدار المعاني >> (2)

لقد كان اهتمام النقاد بالمعاني عندما كان النقد فطريا يغلب عليه طابع تحكيم الذوق<<لأنّ النقاد في تلك الفترة كانوا متأثرين بمقياس الدرس و الأخلاق >> (3)

و لعلّ الجاحظ من الذين أولوا للفظ عناية و جعلوه الأساس في القيمة الفنية للعمل الأدبي .

ابن قتيبة ، إذا كان الجاحظ قد اشتهر بنظرية " المعاني المطروحة " فابن قتيبة اشتهر بقسمته الرياضية ـ إن صح التعبير ـ و معادلته اللفظية ، إذ جعل الشعر في أربعة أضرب معتبرا الجودة و الرداءة معيارهما في هذا التقسيم ، فهو القائل : << تدبّرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

1ـ ضرب منه حسن لفظه و جاد معناه : كقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملي جزعا *** إنّ الذي تحذرين قد وقعا
و النّفس راغبة إذا رغّبتها *** و إذا تردّ إلى قليل تقنع

2ـ ضرب منه حسن لفظه و حلا و إذا فتشته لم تجد هناك فائدة ، كقول القائل:

و لمّا قضينا من منى كلّ حاجة *** و مسّح بالأركان من هو ماسح
و شدّت على حدب المهارى رحالنا *** و لم ينظر الغادي الذي هو رائح

3ـ ضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه ، كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاقب الحرّ الكريم كنفسه *** و المرء يصلحه الجليس الصالح

إن كان جيّد السبك و المعنى فإنّه قليل الماء و الرونق .

4 ـضرب منه تأخّر معناه و تأخّر لفظه ، كقول الأعشى في امرأة :

و فوها كأقاحيّ *** غذاه دائم الهطل
كما شيب براح با *** رد من عسل النحل (4)

1، 2 " البيان و التبين" ص 76

3- " قضايا النقد بين القديم و الحديث " ص \ 250

4 - ابن قتيبة " الشعر و الشعراء " ص \ 9-13 \ ت ، أحمد محمد شاكر ، دار المعارف القاهرة 1952

و لعلّ **ابن طباطبا و الآمدي** يشكلان الوجه البارز في الدعوة إلى العناية بالمعاني مقابل الطرف الآخر السابق المفضل للفظ .

إذا كان" عيار الشعر" عند ابن طباطبا يقوم على نظرته إلى اللفظ و المعنى نظرة جعلته يصف الألفاظ بالمعرض أو الثوب للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض << << وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، و كم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه >> (1)

فإنّ الآمدي قد ذهب في موازنته مذهب من يؤثر المعاني بخاصة امتداحه أبا تمام على كثرة معانيه و تنوعها من جهة و من جهة ثانية نجده ينكر عليه قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أنّه *** بكفيك ما ماريت في أنّه برد

فقال : هذا الذي أضحك الناس منذ سمعوه إلى هذا الوقت ، و لم يزد على هذا شيء ، و الخطأ في هذا البيت ظاهر لأنّي ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة ، و إنّما يوصف الحلم بالعظم و الثقل و الرزانة و نحو ذلك مثل قول النابغة :

و أعظم أحلاما و أكبر سيّدا *** و أفضل مشفوعا إليه و شافعا (2)

**** قضاء الجرجاني على ثنائية اللفظ و المعنى :***

يقول العشماوي << إذا كانت نظرية الخيال عند **كولردج** قد قضت على ثنائية اللفظ و المعنى التي كانت شائعة و سائدة في الأدب الأوروبيقبل كولردج ، فإنّ نظرية النظم عند عبد القاهر قد قضت على كثير من المفاهيم من بينها قضية اللفظ و المعنى >> (3)

و لنا أن نتأمّل جيّدا في قول الجرجاني لنتبين هذا الحكم ، يقول : << أتتصور أن تكون معتبرا مفكّرا في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله ، وأن تقول هذه اللفظة إنّما صلحت هنا لأنّ معناها كذا ، و لدلالتها على كذا ..إعلم أنّ ما ترى أنّه لابدّ منه من ترتيب الألفاظ و تواليها على النظام الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر ، و لكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث

1- "عيار الشعر" ص \ 8 ـ ت : طه الحاجري و محمد زغلول ، المكتبة التجارية \ القاهرة 1956

2- " الموازنة " ص \ 128

3- " قضايا النقد " العشماوي ص \ 277

إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنّها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها >> (1) ، و هكذا يتوافق الجرجاني مع ابن طباطبا في التمثيل على أهمية المعاني على الألفاظ و في نسبة الأوّل لها بالمعرض و الثاني بالأوعية .

ثم يبيّن الجرجاني موضّحا المسألة أكثر :<< فإذا وجب لمعنى أن يكون أوّلا في النفس وجب اللفظ الدالّ عليه أن يكون مثله في النطق ، فأمّا أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم و الترتيب .فباطل من الظنّ ووهم من يتخيل أنّ من يوفى النظر حقه كيف تكون مفكّرا في نظم الألفاظ و أنت لا تعقل لها أوصافا و أحوالا إذا عرفتهاعرفت أنّ حقّها أن تنظم على وجه كذا .>> (2)

في هذا النص يرى عبد القاهرأنّ المزية إلاّ للنظم الذي هو صنعة ، فلا تكون في الألفاظ وحدها و لا في المعاني وحدها و إنّما تكون في النظم الذي يرتكز أساسا على صلاحية اللفظ في مكان ما تكون ... فلا اللفظ يسبق المعنى و لا المعنى يسبقه ، و إنّما يولدان معا و في لحظة واحدة ، فهما أشبه بالليل و النهار كلاهما " يجري في فلك مشحون " آية، في مسار متكامل محدثين بذلك حركة فلكية و دورة حسابية يخرج منهما اليوم و الشهر و السنة بانتظام .

هذه نظرة بعض النقاد من الشرق العربي إلى قضية اللفظ و المعنى ، ترى ما هي نظرة النقاد في المغرب إلى هذه القضية ؟ هل هي مجرّد تشابه أو إعادة أو تكرار أم فيها من الجدّة والابتكار؟

<u>ابن رشيق و قضية اللفظ و المعنى :</u>

لقد خصّ ابن رشيق اللفظ والمعنى بابا مستقلا في العمدة سمّاه (باب اللفظ و المعنى) ، ثم أورد رأيه بداية فقال :<< اللفظ جسم و روحه المعنى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه و يقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى و اختلّ بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، وكذلك إن ضعف المعنى و اختلّ كان اللفظ من ذلك أوفر حظّ ، و لا تجد معنى يختل إلاّ من جهة اللفظ و جريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم فإن اختل المعنى كلّه و فسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه و إن كان حسن الطلاوة في السمع ، و كذلك إن اختلّ اللفظ جملة و تلاشى لم يصح له معنى >> (3)

1- "دلائل الإعجاز " الجرجاني ص \ 103
2- نفسه ص\ 103
3-" العمدة " ج 1 \ ص 124

المتأمّل لنص ابن رشيق من حيث تعريفه للفظ و المعنى و ما مدى مفاضلة أحدهما على الآخر يجد تقسيمات ابن قتيبة بيّنة سوى أنّها مصهورة على النحو التالي :

اللفظ و المعنى

عند ابن قتيبة	عند ابن رشيق
1--ضرب منه حسن لفظه و جاد معناه	يضعف بضعفه و يقوى بقوته
2-ضرب من حسن لفظه وحلا و إذا فتشته لم تجد فائدة	اختلّ المعنى وبقي اللفظ مواتا و إن كان حسن الطلاوة
3-ضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه	فإذا سلم المعنى و اختلّ بعض اللفظ
4-ضرب منه تأخّر معناه و تأخّر لفظه	اختلّ اللفظ جملة لم يصح لــه معنى

من هنا جاءت قضية الألفاظ و المعاني عند ابن رشيق في موقف معتدل غيرمتعصب لأحدهما حيث اعتمد فيها على مسار المناطقة والعلماء السابقين مثل ابن قتيبة على اعتبار أنها قضية جدلية فهو مسار المعتدل الوسطي أو الناقل لآراء غيره لكن دون تصريح لأصحابها مثلما فعل مع رأي ابن طباطبا ـ أيضا ـ في وصفه للمعنى : << و بعضهم مثّل المعنى بالصورة و اللفظ بالكسوة ــ و هو رأي ابن طباطبا في المعنى بالجارية الحسناء والألفاظ بالثوب ـ فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها و يليق بها من اللباس فقد بخس حقها و تضاءلت في عين مبصرها >> **(1)**

ثم اعتماده قول الجاحظ في المعاني ، يقول ابن رشيق : << إنّ المعاني موجودة في طباع الناس يستوي فيها الجاهل والحاذق >> يقابلها قول الجاحظ : << المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي >> **(2)**

1- " العمدة " ص \ 127

2- "الحيوان" ص 131-132 \ ج3

و بعد هذه الجولة بين نقاد الشرق و الغرب ، أين نضع ابن خلدون في قضية اللفظ و المعنى ؟

*** ابن خلدون و رأيه في قضية اللفظ و المعنى**

لا يختلف ابن خلدون في قضية اللفظ و المعنى عن آراء سابقيه بل هو يقترب من الجاحظ و أبي هلال العسكري في أفضلية اللفظ والصياغة و الدّعوة إلى فكرة المعاني المطروحة .

أمّا عن أفضلية اللفظ يقول : << إعلم أنّ صناعة الكلام نظما و نثرا إنّما هي في الألفاظ لا في المعاني >> ثم يضيف << إنّما المعاني تبع لها ، و أصل >> (1)

أمّا قوله :<<فالمعاني موجودة عند كلّ واحد و في طوع كلّ فكر ، منها ما يشاء و يرضى ، فلا يحتاج إلى تكلّف صناعة في تأليفها و تأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة >>(2)

تبدو نظرية " المعاني المطروحة " ناطقة في هذا القول ، فالتأثير الجاحظي ملموس وواضح <<فالمعاني موجودة عند كلّ واحد >> تقابلها << فالمعاني مطروحة في الطريق ...>>

يلجأ ابن خلدون في تمثيل مفردّ للألفاظ و المعاني ، يراه إحسان عباس << و هذا أغرب ما يمكن أن يقوله مفكّر مثله >> (3) ، فهو يشبّه المعاني بماء البحر و الألفاظ بالأواني ، يقول ابن خلدون :<<فكما أنّ الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب و الفضة و الصدف و الزجاج و الخزف ، و الماء واحد في نفسه ، و تختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء >> (4)

أمّا التمثيل الذي جسّده ابن خلدون للفظ و المعنى في صورة محسوسة ، صورة الأواني التي يغترف بها الماء ، فهي من الذهب أو الفضة أو الخزف أو الزجاج و الماء واحد ؟! و لكن هذا التمثيل مرفوض عند الناقد" محمد عيد " :<<لكن هذا التمثيل لا يشهد له ، لأنّ الماء قد يكون رائقا عذبا ، و قد يكون كدرا ، فكما أنّ الأواني تختلف كذلك يختلف الماء >> (5)

1- " المقدمة " ص\ 576
2- نفس المصدر ص \ 577
3- د\ إحسان عباس " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " ص \ 627
4- "المقدمة" ص \ 577
5- "د \ محمد عيد " الملكة اللسانية ص \ 69

* من آرائه في المعنى :

أ) ذم حشد المعاني :

إنّها مبدأ من المبادئ النقديةالتي عاب على أساسها كثير من النقاد الشعراء ، حتى أنّ الآمدي أفرد لها في موازنته و عدّها من أخطاء أبي تمام و البحتري ، أمّا ابن خلدون فنجده في هذه المسألة أكثر وفاءا لشيوخه حيث أخذ عنهم نفورهم من حشد المعاني في البيت الواحد مؤثرين السهولة و التبسيط في الشعر : << و لهذا كان شيوخنا يعيبون شعر ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس لكثرة معانيه و ازدحامها في البيت الواحد>>.(1). <<أمّا كثرة المعاني في البيت فذلك نوع من التعقيد ، و التعقيد شيء كرهه نقاد الأندلس مثل حازم القرطاجني >> (2)

ب) تجنب المبتذل من المعنى :

حرص ابن خلدون في دعوته إلى عدم إنزال بالشعر إلى أسفل درجاته و إبعاده عن مراتب البلاغة كشعر الربانيات و النبويات ، فهذا اللون من الشعر ـ على حدّ رأيه ـ قد تساوى فيه سواد الجمهور مع الشعراء<< و لهذا كان الشعر في الربانيات و النبويات قليل الإجادة في الغالب و لا يحذق فيه إلاّ الفحول لأنّ معانيها متداولة بين الجمهور ، فتصير مبتذلة>> (3)

ج) المطابقة لمقتضى الحال :

المقصود من مطابقة المعاني لمقتضى الحال مثل مطابقة الشعر لأغراضه المختلفة كالمدح يستوجب حاله و مقامه من الفخر و اختيار الألفاظ المناسبة لذلك و المراثي و ما يناسبها في حال جزع المصاب لذلك و ذكر لمناقب المفقود عند تأبينه ... و من هنا يقتضي من المتكلّم أن يكون على دراية بالأحوال و المقامات و معرفة لأنواع النفوس ، و ما كان الكلام خاليا من مراعاة أحوال المتخاطبين و ما يقتضيه حال الفعل ، فليس من جنس كلام العرب ، لأنّ كلامهم واسع و لكلّ مقام مقال .

ج) مراعاة التأليف و النظم :

إنّ مراعاة صفات الألفاظ و المعاني على الأحوال و المقامات ، كلّها ترجع إلى النسج و التأليف وحسن السبك : << اللغات شبيهة بالصنائع إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني

1-المقدمة ص \ 571

2-" تاريخ النقد" إحسان عباس ص\ 618

3- " المقدمة " ص\ 581

و قصورها ، و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات و إنّما هو بالنظر إلى التراكيب ، فإذا حصلت الملكة التامة في تراكيب الألفاظ المفردة للتعبير عن المعاني المقصودة ، **و مراعاة التأليف** الذي يطبق الكلام على المقصود، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة المقصود للسامع >> **(1)**

يتبين من هذا النص الصريح لغة الجرجاني و أفكاره في نظرية النظم و التأليف ، إذ المفردات كما أعرب عنها الجرجاني و هي أوضاع اللغة و إنّما توضع لتعرف معانيها في أن،أنفسها و لكن بانتظامها و ائتلافها مع جاراتها في سياق العلاقات الصحيحة التي تؤدّي في آخر المطاف إلى إبراز الصورة الذهنية و المعنى المتوخى .

ـ فمن شروط التأليف عند ابن خلدون ملخّصة :

1- انتظام المفردات و ائتلافها

2- مراعاة النسج

3- وضع الصورة في القالب و المنوال

4- مراعاة الحال و المقام

مثلما يؤكّد الآمدي :<<زعموا أنّ صناعة الشعر و غيرها من الصناعات لا تجود و تستحكم إلاّ بأربعة أشياء :الآلة ـ و إصابة الغرض المقصود و صحّة التأليف >> **(2)**

أمّا نظرة المعاصرين إلى اللفظ و المعنى نظرة (الشكل و المضمون) ، لقد توسعت نظرة المحدثين إلى مسألة اللفظ و المعنى حيث أصبحت قيمة العمل الفني الشعري و النثري في اتحاد أجزائه ، يقضي كولردج على ثنائية اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في النقد الأدبي و له في هذا المجال فهم دقيق للغة ووظيفتها في العمل الفني فهو يصف مثلا لغة الشعر فيقول عنها : " إنّها اللغة الأولى ممتزجة باللغة الثانية ، اللغة الاصطلاحية المستخدمة لا تكتفي بمجرد الإشارة إلى الصورة الباردة >> **(3)** و يقول في تعريفه للشعر في كلمتين موجزتين و دالتين .

1-" المقدمة" ص \ 577

2- " الموازنة " ص \ 128

3- " قضايا النقد " العشماوي ص 225

<< إنّه أفضل الألفاظ في أفضل الأوضاع >> << فالكلمة نسيج متشعب من إحساسات>> **(1)**

نستنج أنّ علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، و أنّ ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك أن تغيّر اللفظة أو تنقلها من مكانها أو تستبدلها إلاّ إذا تغيّر المعنى .

عند **كروتشيه** ، واضع كتاب " علم الجمال " يقول :<< ... فالفكرة لا تكون بالنسبة إليها فكرة إلاّ إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ ، و لا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بأنغام، و لا الصورة التجسيمية يمكن أن تكون صورة تجسيمية ما لم تظهر بخطوط و ألوان >> **(2)**

و يقول ـأيضاـ<<متى بلغت الفكرة حدّ النضج و أصبحت فكرة حقّا دارت الألفاظ في كياننا كلّه**(3)**

1-" قضايا النقد " العشماوي " ص \ 225

2- نفسه ص \ 226

3-نفسه ص \ 226

" كولردج" : صاحب" نظرية الخيال" شاعر إنجليزي (1771- 1834) رائد الرومانسية ، من آثاره : القصائد الغنائية \ انظر المنجد في اللغة و الأعلام .

" كروتشيه " (1866- 1952) ، فيلسوف و مؤرخ و سياسي إيطالي ، من زعماء حزب الأحرار ، كان له تأثير عميق على ثقافة بلاده الأدبية و الفنية ، له كتاب " المثالية الجمالية " " و تاريخ فن الباروك الإيطالي " \ انظر المنجد في اللغة و لأعلام .

* ثالثا : الطبع و الصنعة ، (المطبوع و المصنوع)

قضية الطبع و الصنعة من القضايا التي حظيت باهتمام الأدباء و الرواة عموما و الشعراء والنقاد خاصة ، فأكثروا فيها القول بل هي من المسائل التي شغلتهم ، فلا نكاد نجد كتابا من كتب التراث النقدي يخلو من صيغ " طبع " و " صنعة " ، "لقد كان الشعراء و الرواة يتناشدون في مجالس السمر ، فكان يقال للواحد منهم : شعرك مطبوع ولآخرشعرك مصنوع عيه أثر كلفة"**(1)**

ـ فما المقصود بالطبع و الصنعة ؟

ـ **الطبع لغة** : من طبع السيف والدرهم : ضربه و تطبع النهر حتى أنّه ليندفق ، وهو مطبوع على الكرم ، و قد طبع على الأخلاق الحميدة ، و هومتطبع بكذا وهذا كلام عليه طبائع الفصاحة >>**(2)**

و الطبع : السمة جبل عليها الإنسان **(3)**

ـ و كذلك جاء في لسان العرب ، طبع الشيء : صاغه في صورة ماء ، الطبع الخلق ، السجية .

أمّا الصنعة لغة : من صانع (و هو صانع من الصنائع : ماهر في صناعته و تحسينه ، و ثوب صنيع ، و سيف صنيع ، يتعهد بالجلاء ، و صنع الشيء صنعا عمله ، و الصناعة : حرفة الصانع وعمله و الرجل صنيع اليدين : حاذق في الصناعة ، قال تعالى :<صنع الله الذي أتقن كلّ شي>

يبدوممّا سبقأنّ الصنعة مهارة و قدرة عملية موجهة بإرادة ذهنية الغاية منها الدّقة وعمل بإتقان أمّا ارتباط الطبع بالصنعة من حيث أنّه قوة مركّزة في النفس تمازجها طاقة ذهنية واعية تصوغ مادة العمل صياغة جيّدة دقيقة .

مفهوم الطبع عند النقاد القدامى :

عند الجاحظ: في البيان و التبيين :<<و كلّ شيء للعرب فإنما بديهة و ارتجال ... و كانوا لا يكتبون ، مطبوعين لا يتكلفون ، و كان الكلام الجيد عندهم أظهر و أكثر >> **(4)**

1-"-بشير خلدون" الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي " ص \ 199

2- " الزمخشري " أساس البلاغة " ط1 إحياء المعاجم العربية ص \ 275

3- " ابن منظور " لسان العرب " ص 567

4- " الجاحظ" البيان و التبيين ص 3 \ 63

ابن قتيبة <<و من الشعراء المتكلف و المطبوع ، فالمتكلف هو الذي قوّم شعره و نقحه بطول التفتيش و أعاد فيه النظرة >> **(1)**

أمّا القاضي الجرجاني -عبد العزيز- << ملاك الأمر في الباب ترك التكلّف و رفض التعمّل و الاسترسال للطبع و ليس أعني كلّ الطبع بل المهذّب الذي صقله الأدب و شحذته الرواية ... . و متى أردت ذلك عيانا فتعرف ما المصنوع و المطبوع فاعمد إلى شعر البحتري >> **(2)**

أمّا الجرجاني فلا يرى هنا فرقا ملموسا بين الطبع والصنعة ، ولا يرى الصنعة نقيضا للطبع ، بل لابدّ من التهذيب و الصقل وإعادة النظر .

يلاحظ مما سبق أن الطبع قوة فطرية كامنة خلق بها الإنسان ، وهي موهبة تجعل الإنسان ينظم الشعر دون تكلّف و لا وعي بنظامه ، و هي من جهة قوة إبداعية . نلمس من هذه التحديدات أنّ هناك ثنائية يشتمل عليها الإنسان الموهبة الفطرية القوية ، و هي أولى مراحل الإدراك ثم القوة الصانعة و هي المرحلة الثانية التي تنظم الفطرة و تمدّها بالقدرة على التعبير الفعلي الذهني .

أمّا ابن رشيق و رأيه في الطبع و الصنعة :

يرى ابن رشيق بأوليّة الطبع على الصنعة :<< و من الشعر مطبوع و مصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أوّلا و عليه المدار >>ثم في المصنوع يعدّ ـ مثلما عدّ النقاد السابقون ـ الحطيئةمن المتكلفين في غير صنعة و تعمّل << و عدّوا من فضل الصنعة " الحطيئة " حسن نسقه الكلام بعضه على بعض

فلا و أبيك ما ظلمت قريع *** بأن يبينوا المكارم حيث شاءوا

و لا أبيك ما ظلمت قريع *** و لا برموا لذلك و لا أساءوا

و أنّ الجارمثل الضيف يغدو *** لوجهته و إن طال الثّواء

أمّا رأي ابن رشيق في ابن المعتز ـ صاحب البديع ـ :<< ما أعلم شاعرا أكمل و لا أعجب تصنيعا من عبد الله بن المعتز ، فإنّ صنعته خفية لطيفة ... و هو عندي ألطف أصحابه شعرا >> **(3)**

1-" الشعر و الشعراء " 1 \ 63

2- " الوساطة "

3-" العمدة " ج \ 1 ص\ 130

يقف ابن رشيق من هذه المسألة موقف القائلين بمذهب الصنعة ـ في غير تكلّف ـ ذلك أن كـلاّ من البحتري و أبي تمام شاعران مصنّعان ، فلم يكن البحتري مطبوعا فقط ، و لم يكن أبو تمـام متكلفا ، وإنّما مشكل النزاع بينهما والخلاف في التفاوت و قد يطلبان الصنعة و يولعان بهـا (1) <<إلاّ أنّ أبا تمام كان يعنى بها أكثر و أمّا البحتري فلا يظهر عليه كلفة و لا مشقة >> (2)

إنّ اهتمام ابن رشيق بموضوع الطبع و الصنعة جعله يخصّاهما بباب " المطبوع و المصنوع " حيث جعل المطبوع هو الأصل الذي يبنى عليه ، أمّا المصنوع فمنه المهذب و المتكلف ومن ثمة فالشعر ـ عنده ـ في ثلاث : شعر مطبوع -- شعر مصنوع مهذّب -- شعر متكلف .

1 **أمّا المطبوع** ـ فكما سبق بداية ـ هو الصادر عن نفس صادقة تعيش مع الفطرة و البساطة و تنشد على سجيتها دونما تكلف و تحرص على الابتعاد عن البهرجة اللفظية << تقول الشعر ارتجالا أو بديهة كما هو الحال عند الشعراء الجاهليين و الإسلاميين والأمويين و بعض المحدثين من شعراء العهد العباسي >> (2)

2) **المصنوع المهذب** : هو الذي يعتني صاحبه بالتنقيح و التغيير فهو الصنعة دون قصد " سمّوه صنعة من غير قصد فاستحسنوه و مالوا إليه بعض الميل حتى صنع زهير الحوليات ، فهو يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب >> (3)

3) **المتكلّـف:** و هو شائع بين شعر المولّدين على رأيه مثل أبي تمام قائلا عنه <<و هو أوّل من تكلّف البديع من المولّدين و أخذ نفسه بالصنعة >> (4) و هذا ما ذهب إليه **الآمدي** في نقد أبي تمام <<أنّ أبا تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال ... فسلك في البديع مذهبه و إسرافه حتى صار كثير من المعاني لا يعرف >> (4)

1-" العمدة " ص \ 130

2- الحركة النقدية " بشير خلدون ص \ 207

3-" العمدة " ص \ 129

4- " الموازنة " ص \ 125

**** رأي ابن خلدون في المطبوع و المصنوع :***

قبل أن يشرع ابن خلدون على تعريف المطبوع و المصنوع تحدث عن الكلام و علاقته بعلم المعاني و علم البيان ، فنونه و مدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال حتى تبلغ البلاغة غايتها و مقصودها من "كمال الإفادة "

إنّ **المطبوع هو** << الكلام الذي كملت طبيعته و سجيته من إفادة مدلوله المقصود منه >>(1)
إذن الطبع ، السجية و الطبيعة ثم هو إفادة السامع بمدلول هذا الكلام دونما عناء .

يقف ابن خلدون من هذه المسألة موقفين :

أ)موقف المنوّه المعجب بشعر المطبوعين و من أهل الصنعة غير المتكلفين

ب)موقف المنكر و المعيب على بعض المصنعين من القدماء و المتهجّم على صناع البديع المحدث المتكلّف من المغاربة .

أمّا من شعرا لمطبوعين" الإسلاميون" <<و أمّا الإسلاميون فوقع لهم عفوا و قصدا و أتوا فيه بالعجائب (لماذا ؟) لأنّ الإسلاميين أتيح لهم من محفوظ القرآن و الحديث الذي عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لم يكن متاحا للجاهليين ، فارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من كان قبلهم من أهل الجاهلية ممّن لم يسمع هذه الطبقة و لا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم و نثرهم أحسن ديباجة و أصفى رونقا من أولئك ...>> (2)

أمّا الشعراء الإسلاميون الذين يراهم ابن خلدون أهلا لذلك أي من المطبوعين غير المتكلفين مثل << حسان بن ثابت ، عمر بن أبي ربيعة و الحطيئة و جرير و الفرزدق ... ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية >> (3)

ثمّ هاهو يضرب لنا مثلا << و لنذكر مثالا من المطبوع الخالي من الصنعة مثل قول قيس بن ذريح :   و أخرج من بين البيوت لعلّني *** أحدّث عنك النفس في السّر خاليا

1- " المقدّمة " ص\ 581

2- نفس المصدر ص \ 580

3- نفسه ص \ 579

أمّا **المصنوع** :فهو ضرب من التحسين و التزيين الذي أتى به الشعراء إلاّ أنّ منهم من أحكم صنعته و أجاد فيها و جاء فيها بالعجب على رأي ابن خلدون و من سبقه ، و هناك من أفرط يقول ابن خلدون في هذا الشأن :<<و قد كان الشاعر بن برد و ابن هرمة أوّل من ذهب هذا المذهب أي من الذين أحكموا صنعتهم و أتوا فيها بالعجب >> **(1)**

يقف ابن خلدون كما هو واضح من الصنعة ـ مثلما ما وقف في الطبع ـ موقفين :

ـ موقف الصنعة المقبولة غير المعيبة أو الخارجة على حدود البلاغة الأصيلة

ـ موقف المحذّر من الصنعة السلبية التي ذهبت بماء و رونق الكلام البليغ .

لذلك نجده يشترط أن تقع الصنعة من غير تكلّف <<لأنّ التكلف و المعاناة يصرفان جهد صاحبهما و يؤدّيان إلى الغفلة عن مقصوده من كلامه >> **(2)** ، كما يشترط الإقلال منها ، فالإكثار منها عيب شائن يؤدّي إلى القبيح الذي لا حسن فيه .، الأمر الذي جعله ينتقد أساليب التحسين و التزيين التي لا تصحّ ، بخاصة في النثر لأنّ أساسه الترسل و الطلاقة و السلاسة ، فإذا داخلته الصنعة بالسجع و التقفية و التورية و الجناس و غير ذلك من ضروبها أدّت به إلى القصور و الضعف و التهافت ، و قد ضرب لنا مثلا حيّا عن أحد شيوخه الذي تمنّى على نفسه أن تسلّط الدّولة أقسى العقوبات على كتّاب عصره يقول :"سمعت شيخنا الأستاذ أبو البركات البلفيقي و كان من أهل البصر في اللسان و القريحة في ذوقه يقول إنّ من أشهى ما تقترحه علي نفسي أن أشاهد في بعض الأيّام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه و نثره و قد عوقب بأشدّ العقوبة" **(3)**، يلتقي ابن خلدون بحازم في نظرته إلى هوان الشعر على الناس لانعدام القدرة على تذوقه لكن ابن خلدون يذهب بعيدا ، فهو يرى أنّ ما نشأ نحو الشعر من نفور و استهجان منذ أبي تمام و المتنبي و ابن هانئ إنّما سببه الكذب و النفاق و الاستجداء و لذلك << أنف منه أهل الهمم و المراتب من المتأخّرين و تغيّر الحال و أصبح تعاطيه هجنة في الرياسة و مذمّة لأهل المناصب الكبيرة >>**(4)**

1-" المقدّمة " ص \ 582

2- نفسه ص\ 583

3- نفسه ص \ 583

4-نفسه ص \ 585

منـهــج ابــن خـلـدون الـنـقـدي و سـمـاتــه(في الشعر)

لكلّ ناقد تصوره و منهجه الذي يؤسس عليه فكرته أو نظريته فينطلق على أساسه يعالج القضايا النقدية بكيفية تعكس هذا التصور أو ذاك ، قال ميخائيل نعيمة في كتابه " الغربال " :<< لكل ناقـد غرباله >> **(1)** و يقصد به المقاييس و الموازين .

و نحن و في مسيرتنا مع مـفكّرنا في تناوله لـقضايا النقد ـ مثل قضايا الشعر ـ وجدنا أنّ ابــن خلدون اتسم منهجه بسمات ذات طابع خلدوني خاص .، من هذه السمات :

1- ارتباط تصوراته بالشيوخ :

ظلّ ابن خلدون مرتبطا في تصوراته بشيوخه من مجالس تعليمهم و هو كما قال إحسان عباس < ليس لها صلة بالمؤثرات اليونانية أو حتى المفهومات الكبرى عند حازم أو السجلماسي أو التي تمثل تزاوجا بين التيارين النقديين ، العربي الخالص والعربي المتأثر بالثقافات غير العربية> **(2)**

فوفاؤه لهم عـبّر عنه من خلال العـديد من الشواهد و الإحالات فـي شتى الـمجالات اللسانية أو الأدبية << سمعنا من شيوخنا >> أو << قال شيخنا>> ... مثل " الآبلي " و " أبوالبركات" وغيرهم .

2- عدم تأثره بالتيار اليوناني الأرسطي :

لقد حاولت بعض الدراسات العربية الحديثة أن تدخل **"أرسطو"** في أخص خصائص الحضارة العربية الإسلامية << حيث توهموا أنّهم اكتشفوا معلّما و شارحا ، جاء ليعـلـّمهم دينهم و يدلّـهم و يجعلهم يتذوقون و يستنبطون >> **(3)**

لذلك لا تفتأ الدراسات الحديثة تتحدّث عن الثقافة اليونانية و مدى ارتباطها بالثقافة العربية عن طريق الترجمة ، و المعتزلة و المنطق و تأسيس البيان العربي ، إلاّ أنّ هناك أبحاث علمية جادة أثبتت أنّ القرن الثالثالهجري كان محطّة للتأثير اليوناني من جانب أنّ الكيان العربي الإسلامي

**1- " ميخائيل نعيمة " الغربال ص **

2- "تاريخ النقد الأدبي " إحسان عباس ص \ 629-630

3- " الأثر الأرسطي في البلاغة العربية " عباس أرحيلة ص 266

أثبت حضوره في المجال الحضاري ، فأسّس هويته في معترك التطور ، فكان الانفتاح على الثقافات الأخرى .

و بهذا تأسّس البيان العربي مستلهما لغة القرآن ، و استوى النقد الأدبي بمجالاته الفكرية و أصوله، وبعد ترجمة كتاب " **الخطابة** " و" **تلخيص كتاب فن الشعر**" يبقى السؤال : هل نفخ آرسطو في البلاغة العربية ؟ << أ نّى له ذلك و الأمّة مشدودة بأحاسيسها الفكرية إلى هندسة الجملة القرآنية و التأمّل في بنائها المعماري و البحث في إيحاءاتها و ظلالها >> **(1)**

ـ فما شأن هذا بابن خلدون ؟

مع اعتراف ابن خلدون بمكانة أرسطو العلمية بين اليونان فهو يعتبره << أرسخهم في العلوم قدما و أبعدهمفيه صيتا و كان يسمى المعلّم الأوّل فطار له في العالم ذكر >> **(2)**

أمّا شهرة آرسطو العلمية لا تعني لابن خلدون الخضوع لمقولاته و اتباع آرائه أو حتى استلهام منها ما يشاء ، فآرسطو لم يلهمه فلسفة التاريخ و مبادئ البلاغة ، فما كان لأرسطو من ضلع في بناء مشروعه العام ، بل وجد علوم اليونان عند العرب قد عكف عليها المسلمون بالدراسة و التقصي إذ يقول :<<أنّ نظار من أهل الإسلام لما عكفوا على علوم اليونانيين وحذقوا فنونها .. وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، خالفوا كثيرا من آراء المعلّم الأوّل واختصوا بالردّ والقبول>**(3)**

أمّا تصورات ابن خلدون اللغوية و البيانية و النقدية فهي بعيدة عمّا خلّفه آرسطو من آثار في أذهان الفلاسفة المسلمين جرّاء قراءاتهم لكتابي " الشعر و الخطابة " .

3ـ تأثره بابن رشيق :

لقد كان لابن رشيق الأثر القوي في تصور ابن خلدون النقدي إذ بلغ إعجابه به إلى حدّ الأخذ ، يلاحظ المتتبع لكلام ابن خلدون يجد الكثير من آرائه منسوبة بصريح العبارة إلى ابن رشيق فهو يشيد بآرائه و نظراته كثيرا ، فكتاب "العمدة" في رأيبلن خلدون هو المتفرّد عن كلّ من سبقه و من بعده يقول ابن خلدون :<< ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة ، و **هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة و إعطاء حقها و لم يكتب فيها أحد قبله و لا بعده** >> **(4)**

1- " الأثر الأرسطي" ص \ 266 مرجع مذكور
2- " المقدّمة " ص \ 464
3- نفسه ص \ 465
4- نفسه ص \ 574

و يقول أيضا << و بالجملة فهذه الصناعة ـ ويقصد صناعة الشعر ـ و تعلّمها مستوفى في كتاب " العمدة ">> (1) ثمّ لا يكتفي بالإشادة والتمجيد بل راح يدعو إلى اعتماده و النهل منه لاستيفاء صنعة الشعر و تعلّمها << و من أراد استيفاء ذلك فعليه بذلك الكتاب ففيه البغية من ذلك>> (2) ثمّ يفرد له أبياتا شعرية تقع في إحدى وعشرين (21) بيتا ، فهو يعتبره وابن شرف من مشاهير افريقية ، وهذه أبيات ممّا قالها ابن رشيق في الشعر :

لعن الله صنعة الشعرّ ماذا *** من صنوف الجهّال فيها لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما *** كان سهلا للسامعين مبينا
و أصحّ القريض ما فات في النظم *** و إن كان واضحا مستبينا

هذا حظّ ابن رشيق من الذكر حظّا موفورا. و الغريب في الأمر أنّه لم يشر و لو إحالة واحدة إلى السجلماسي أو حازم القرطاجني أو ابن البناء وبذلك يكون قد تغاضى عن رجال النقد و البلاغة للقرنين السابع و الثامن مثلما تغاضى عن بعض المشارقة كالجرجاني (عبد القاهر) أو غيره و لعلّ السبب يرجع إلى تبني ابن خلدون لآرائهم ثم تواردها على ألسنة النقاد فأصبحت شائعة فلم يجد ضرورة لإسناد أقوالهم ، ولذلك فهو إمّا يتعمد الإغفال أو يتمثل الفكرة من زاده الثقافي فينسى فينسى بعدها أنّه أخذها من شيخه أو الشيوخ الآخرين من اللغويين و النقاد ...

1- " المقدمة " ص \ 574
2- نفسه ص \ 574

*** خـــــــــــاتـمـــــــــــة ***

لـقد تـبـين بـعـد هـذه الـدراسـة نـتـــائج نـجـمـلـهـا فـي الـنـقـــاط الـتـالـيـة لـنـا:

1- إنّ أسلوب ابن خلدون الموغل في الإيجاز الذي يصعب فهمه دون الرجوع إلى ما خلّفه القدماء .

2- إهمـالـه للإحـالات فـي أغـلـب نـصوصـه اللغوية و النقدية التي تساعد على معرفة مجهوداته من مجهودات غيره .

3-إنّ أفكار ابن خلدون اللسانية موسومة بالنظرة الاجتماعية و هـي فـي عمومها تعاني الانفصام و تحتاج إلى من يكشف الصلة بينها ، لأنّه - قلّما- يجـتـمع له رأي موحّـد ذي معالم محدّدة .

4- بعض الآراء تتسم بالجدّة و تختلف عن آراء القدماء مثل رأيه في حدّ الشعر ورفضه الصريح لحدّ ه عند العروضيين جملة .

5- قدّم ابن خلدون رأيه للّغة - في إطار نظرته الاجتماعية - على أنّها مـلـكـة تـكـتـسـب بالتعليم و المران و الدربة .

6-رأيه في المشتغلين بعلوم اللسان من نحو وبلاغة الذين يرفضون الجديد مـن الآراء ، لقد أوجعهم تأنيبا ، فوصفهم " **بالخرفشة** " و قصور المدارك و آفة الفطـرة و الـنظر .

7- يعتبر ابن خلدون علوم اللسان من لغة و نحو وبيان وأدب من العلوم الآلية التي تعين على فهم الشرع ، و لمّا كانت العلوم الشرعية أكثر مباحثها في الألفاظ و كان لابـد مـن اقتناص المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالا تـها اللـغـوية عليها ، وجدناه يـجـعـل أركـان اللسان العربي ، اللغة والنحو والبيان والأدب و معرفتها ضرورية عـلى أهـل الشرع ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب و السنة ، و هي من لغة العـرب و نـقلتـها من الصحابة و التابعين عرب .

8- لذا كانت ملكة اللسان عند ابن خلدون بألفاظها و معانيها و أدبياتها و جمالياتها تتحول إلى غاية مصيرية ، هي إعداد المجتهد لأن يستنبط حكما شرعيا من عبارة قرآنية أو حديثية .

9-الأدب نفسه يتحول عند ابن خلدون إلى وسيلة ، و من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي و حصول ملكته ، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه ، لذا نجده يلحّ في مقدّمته على صدور الإبداع من داخل أساليب العرب المحدّدة في بنياتها و خصوصيتها .

10- البديع ، من أكثر علوم اللسان التي توقف عندها ابن خلدون بالنقد حينا و التهجّم حينا آخر، أحسن كتب البديع - في نظره - من المشارقة ، ابن المعتز بكتابه " البديع" الذي كان الرّائد في ذلك و يأتي ابن رشيق بعده من المغاربة في كتابه "العمدة " ، يحتل هذا الرجل في مقدمة ابن خلدون بخصوصية الشاعر و الناقد الفذّ فهو من المقدّمين لديه و بالمكانة و التقدير على سائر الشعراء و النقاد المغاربة، فقد جعله و ابن شرف أحسن شعراء إفريقية " ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلاّ ابن رشيق و ابن شرف " [1]

-أمّا التهجّم فتلصبّ على أولئك المحدثين المبدعين من المغاربة الذين برعوا في هذا الفن ففرعوا له أبوابا و صنفوا و أكثروا حتى أفرطوا ، و كانوا هم أقدر عليه من المشارقة إذ << صعبت عليهم مآخذ البلاغة و البيان لدقة أنظارها و غموض معانيها فتجافوا عنهما ...>> [2]

و ختامهذا كلّه أنّ فكر ابن خلدون في عمومه يتسّم بالشمولية << لقد كان تفكيره داخل التجربة الحضارية العربية الإسلامية ، فالعلم الذي أراده علما للعمران البشري ككّل و بالأخصّ العمران العربي الإسلامي .>> [3]

1- المقدمة ص 552
2- نفس المصدر ص 552
3- " التأصيل الإسلامي في نظريات ابن خلدون " مجلة مذكورة ص 50

***أوّلا ـ الـمـصــادر**

*** الـقــرآن الـكــريـم**

1- ابن خلدون عبدا لرحمن " المقدمــة " تحقيق : درويش الجويدي ـ المكتبة العصريــة ـ صيدا بيروت .
2 - الآمدي أبو القاسم " الموازنة بين أبي تمام و البحتري " تحقيق : محمد محي الدين ـ عن منيل الروضة 1944 .
3 - أبو الفتح بن جني " الخصائص " تحقيق محمد علي النجار ـ المكتبة العلمية .
4 - أبو هلال العسكري " الصناعتين " تحقيق محمد أمين الخنجي ـ مطبعة علي صبيح ـ القاهرة ط (2) .
5 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ " البيان و التبيين " تحقيق فوزي عطوي ـ مكتبة الطلاب ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت .
6 - ----------------------------- - " الحيوان " تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي القاهرة - 1979 .
7- امرؤ القيس " الديوان " تقديم و تحقيق ابن أبي سويلم ، و علي الهروط و علي الشوملي ، شرح محمد الحضرمي .
8- الجرجاني القاضي علي بن عبد العزيز " الوساطة بين المتنبي و خصومه " تحقيق و شرح محمد الفضل إبراهيم و محمد علي البجاوي - منشورات دار المكتبة العصرية -
9- الجرجاني عبد القاهـر " دلائل الإعجاز " شرح ياسين الأيوبي - المكتبة العـصرية - صـيـدا بيروت (1999)
10- ابن خـلـكــان شمس الدين " وفيات الأعيان و إنباء أبناء الزمان " تحقيـق و تعـليق مـحـمـد الفاضلي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ،(1367هـ - 1948م)

11- **ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني الأزدي** " العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده" تحقيق و تفصيل و تعليق علي حواشيه ، محمد محي الدين عبد الحميد ـ (ط \ الثالثة، 1383هـ - 1963 م مطبعة السعادة بمصر) .

12- **ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم** " الشعر و الشعراء " تحقيق و شرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر (ج-1 - 1969م)

13- **المعرّي أبو العلاء** " رسالة الغفران "، تحقيق و شرح عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر (ط \ 5 1969م)

14- **ابن منظور أبو الفضل جلال الدّين** " لسان العرب " - دار صادر بيروت ، لبنان- (1412هـ 1981م)

15- **ابن السلام محمد الجمحي** " طبقات فحول الشعراء " تحقيق محمود محمد شاكر دارالمعارف بمصر.

16- **أبو علي القالي** " الأ مالي و النوادر " تحقيق الشيخ صلاح بن فتحي هلل و الشيخ سيّد بن عباس الحليمي - المكتبة العصرية - صيدا بيروت (ط1 - 2001)

17-**المبرّد العباس بن محمد يزيد** " الكـــا مل " طبعة محققة بإشراف مكتب العلوم البحوث و الدراسات - دار الفكر للطباعة و النشر .

18- **أحمد أمين** " ضحى الإسلام " - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة (1964) .

19- **أبو حامد محمد بن محمد الغزالي** " الإحـيـاء " طبعة عيسى البابي الحلبي (ج 3 - القاهرة - 1957) .

20- **أبو الفرج الإصفهاني ، علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم** " الأغـا نـي" تحقيق لجنة من الأدباء - دار الثقافة - بيروت - (الطبعة السادسة 1983م) .

21- **الزمخشري** " أساس البلاغة " تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود(1399هـ - 1976م)

22- **إخوان الصفا و خلاّن الوفاء** " رســائـل " - دار صادر للطباعة - دار بيروت للطباعة و النشر بيروت(1957) \ النسخة الثانية تقديم : عليوش عبود م \ موفم للنشر .

23- **أحمد أمــيــن** " حـيـا تــي

24- **المرزبــانــي** " الـمـوشـّح "

25- **السجلماسي محمد القاسم** " المنزع البديع في تحسين أساليب البديع " تحقيق علال الغازي - مكتبة المعارف بمصر .

26- القرطاجني حازم " منهاج البلغاء و سراج الأدباء " تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة دار الكتب الشرقية تونس 1966م.

27- ابن طبا طبا محمد العلوي " عيار الشعر " تحقيق محمد زغلول سلام منشأة المعارف الإسكندرية مصر .

28- البشير الإبراهيمي " آثاره " الجزء الرابع - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية - وحدة الطبع المتعددة - ورشة أحمد زبانة - الجزائر (1985) .

29- السيوطي جلال الدّين عبد الرحمن " المزهر " في فلسفة اللغة ، شرح و تصحيح و تعليق على الحواشي محمد أحمد جاد المولى بك و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت (1408هـ- 1987م) .

30- ________________________ " بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة " المجلد الأول تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم - المكتبة العصرية للطباعة والنشروالتوزيع (1384هـ-1964م)

30- قدامة بن جعفر " نقد الشعر" تحقيق كمال مصطفى - مكتبة الخانجي - القاهرة (ط 2 1963) .

* ثانيا ـ المـرا جـــع

1- **إحسان عباس** " تاريخ النقد الأدبي " الطبعة الخامسة(1406هـ- 1986) دار الثقافة - بيروت لبنان -

2- **أحمد قدور** " مبادئ اللسانيات " دار الفكر - دمشق - سورية (ط 2 1999) .

3 - **أحمد طاهر المكي** " دراسة في مصادر الأدب " - دار المعارف - مصر .

4- **أحمد طه إبراهيم** " تاريخ النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري " دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - (ط1 1985) .

5- **الجابري محمد عابد** " تكوين العقل العربي "

6- **بشير خلدون** " الحركة النقدية أيام ابن رشيق القيرواني " سلسلة الدراسات الكبرى - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - الجزائر .

7- **زكي العشماوي** " قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث " - دار النهضة بيروت لبنان .

8- **أحمد حسني** " مباحث في اللسانيات "

9- **محمد الطنطاوي** " نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة " مطبعة خاصة \ السيد محمد بن علي - السنوسي الإسلامية - الطبعة الأولى (1387هـ- 1968م) .

10- **عابد الجابري** " نحن و التراث " - المركز الثقافي العربي - (ط6) .

11- **عبد العزيز عتيق** " في النقد الأدبي " - دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت لبنان

12- **محمد عيد** " الملكة اللسانية " - دار الثقافة العربية - القاهرة .

13- **عزيز العظمة** " ابن خلدون و تاريخيته "

14- **عبد الله شريط** " التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون " - سلسلة الدراسات الكبرى - الشركة الوطنية للتوزيع ، الجزائر .

15- **محمد فاروق نبهان** " الفكر الخلدوني "

16- **محمد الشريف بن دالي حسين** " الفكر الإجتماعي عند ابن خلدون " - ديوان المطبوعات الجامعية المؤسسة الوطنية للكتاب .

17**محمد حمّور** " أسواق العرب " - دار الشورى - بيروت (ط2) .

18- عبد الله ناصح علوان " تربية الأولاد " دار الشهاب باتنة - الجزء الثاني .(1987م)
19- رجاء عــيــد " التراث النقدي ، نصوص و دراسة " - الناشر : منشأة المعارف -الإسكندرية (1990) .
20- عبد القادر جغلول " الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون " دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
21-ناصف نصّار " الفكر الواقعي عند ابن خلدون " - دار الطليعة - بيروت .
22- عبد الواحد حسن الشيخ " العلاقات الدلالية و التراث البلاغي العربي ، دراسة تطبيقية " مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية (1419هـ - 1999م) .
23- محمد عبد الله عنان " ابن خلدون ، حياته ، تراثه الفكري " - مؤسسة مختار للتوزيع و النشر .
24- عباس أرحيلة " الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة إلى حدود القرن الثامن الهجري " منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط - سلسلة رسائل و أطروحات (1999م) .

*** ثـالـثـا الدوريات (المجلاّت)**

1- حسن زروق " مجلة اللغة و الأدب " - جامعة الجزائر- العدد (5) .

2- عبد الرحمن حاج صالح " أثر اللسانيات " - العدد (4) .

3- حنفي بن عيسى " اللسانيات " - المجلّد الأول - العدد الأول (1971) .

4- بن دويلي الأخضر مدني " المبرز " كلية الآداب - الجزائر - العدد (19) .

5- عبد الحليم عويس "كتاب الأمّة" ، التأصيل الإسلامي للنظريات عند ابن خلدون -

8- مجلة الفيصل - العدد 317 - ذو القعدة 1433م - يناير 2003م .

*** رابعا الرسائل الجامعية :**

- محمد بن حمو " المصطلح في مقدمة ابن خلدون " دراسة في الحقول الدلالية - رسالة دكتوراه - بإشراف الدكتور عبد الكريم بكري . جامعة وهران .

2- أمين الزاوي " مفهوم القراءة عند الجاحظ "- رسالة ماجستير - معهد اللغة و الأدب العربي - جامعة وهران .

3- بوشيبة بو بكر " قضايا النقد الأدبي في رحلة العبدري " رسالة ماجستير- (2003-2004) جامعة وهران .

4- زايدي الخداوية " التفكير اللساني عند ابن سينا " - رسالة ماجستير (2000- 2001) جامعة وهران .

5- خلوي شميسة " التناص في منامات الو هراني " - رسالة ماجستير- في مشروع الأدب الجزائري القديم \ بإشراف الدكتور : حبار مختار . جامعة وهران (2005-2006) .

6-أحمد منـهوج " موقف ابن خلدون من اللغة و النقد " رسالة ماجستير \ بإشراف د\ عبد الغني الشيخ جامعة وهران (1986- 1987) .

*** خامسا المواقع الإعلامية :**

- موقع " غوغل " WWW.Google-- مشيخة ابن خلدون -- المنهج التربوي عند ابن خلدون.